مظاهر سكانية من دمشق
في العهد العثماني

د. عبد الكريم رافق

جامعة دمشق

مقدمــة

تواجه الباحث صعوبات جمة في معرفة عدد سكان مدينة ما ، أو قطر ما ، في مختلف فترات التاريخ العربي ، قبـل اعتماد الاحصاءات الرسمية . والمصـادر التاريخية العربية لا تزودنا بمعلومات عن اعداد السكان ، سواء في المدن ، أم في البلاد ككل ، كما أن معلوماتها بالنسبة لاعداد الجماعات ، بما في ذلك اعداد المقاتلين في المعارك ، تعوزها الدقة . ولم تكن تقديرات المراقبين الاجانب ، وبخاصـة الرحالة منهـم ، اقرب الى الصحة ، اذ اعتمدت ، في كثير من الاحيان ، على اعتبارات خاطئة أو مبالغ فيها ، او على معلومات مستقاة من مصادر غير موثوقة .

وازاء هـذا الارتبـاك في المعلـومات عـن اعـداد السكـان ، وتزايدهـم أو تناقصهـم ، لجـأ الباحثون المحدثـون الـى اعتمـاد معاييـر عـدة لمعـرفـة اعداد السكـان في الماضي . ومـن هـذه المعاييـر اعتماد عـدد الحمامات فـي مدينة ما لمعرفة عدد سكانها . وذهب بعض الباحثين الى القول ان الحمام الواحد يخدم مائتي بيت يتألف كل منها من خمسة اشخاص . وعلى هذا فان مجموع السكان هو حاصل ضرب عدد الحمامات بالف (٢٠٠ × ٥) . وقال احد الباحثين ان الحمام الواحد يخدم ثلاثة الاف نسمة . وقدر اخر العدد بأربعة الاف .

واعتمد باحثون اخرون مساحة الجوامع في التوصل الى معرفة عدد السكـان في مدينة ما ، وذلك بتقسيم المساحة على ما يحتاجه المصلي الواحد من مكان للصلاة ، تقدر ابعاده ، حسب قول أحد الدارسين للجامع الكبير في مدينة سوسة التونسية ، بستين سنتيمترا عرضا ومتر وخمسة وثلاثين سنتيمترا طولا . وبعد التوصل الى عدد المصلين الذين تستوعبهم مساحة ذلك الجامع ، يضرب العدد بالرقم ثلاثة ونصف ، وهو ما يمثل وسطي عدد الاسرة في سوسة ، لتقدير مجموع عدد السكان

في تلك المدينة . وطبيعي أن هــذا المعيار لا يمكن استخدامه في كل بلد اسلامي ، نظرا لاجتهاد المذاهب فيما بينها بالنسبة لصلاة الجماعة .

ومن الباحثين من اعتمد المساحة المسكونة في المدينة وقسمها على وسطي مساحة البيت ، لمعرفة عــدد البيوت المسكونــة ، ثم ضـرب العدد بخمســة ، وهو وسطي عدد افراد الاسرة المتعارف عليه بين عدد من المؤرخين . وتصطدم هــذه التقديرات بصعوبات كثيرة منها ان وسطي عدد افراد الاسرة يختلف من منطقة الى اخرى ، ومن فترة الى اخرى . وكذلك يختلف عدد ساكني البيت الواحد فيما بين الاسرة الصغيرة ، والاسرة الكبيرة التي تضم جيلين أو أكثر (١) .

واعتمد بعض الباحثين السجلات المالية العثمانية ، ومقدار الضرائب والجزية لتقدير عدد السكان . ولكن هذه التقديرات بدورها لم تكن لتخلو من الاخطاء ، سواء بالنسبة لمجموع السكان في المدينة أو اللواء أو الولاية ، أم بالنسبة للسكان حسب طوائفهم . وقد ذكر أحد الباحثين ، مثلا ، ان سكان مدينة حلب تناقصوا مــن سبعة وخمسين الفا ، في الفترة ما بين ١٥٢٠ ــ ١٥٣٠ م ، الى ستة واربعين الفا في عام ١٥٨٠ ، وحدث مثل ذلك بالنسبة لسكان دمشق ، الذين تناقصوا من سبعة وخمسين الفا الى ثلاثة واربعين الفا في المدة ذاتها . وعزي هذا التناقص الــى الطاعون الكبير الذي اصاب السكان في عام ١٥٥٥ (٢) .

وقد حدثت الطواعين بشكل متكرر في العهد العثماني وشملت مناطق واسعة من بلاد الشام وغيرها . وبعضها انتشر بالعدوى من مناطق اخرى ، وبعضها الاخر حدث في اعقاب الزلازل والدمار الذي الحقته بالانسان والحيوان ، والتلوث الــذي اصاب المياه . وتغص كتب التراجم باسماء الذين « طعنوا » ، وتوفوا بسبب ذلك . واسهب ، بل بالغ الاخباريون في وصف حوادث الطاعون والاصابات التي خلفها . ومن ذلك قول ابن جمعة في احداث عام ١١٤٤/١٧٣١ ــ ١٧٣٢ :

« وفيها كان الطاعون بارض الشام ونواحيها حتى فني خلق كثير وعم غالب البلدان » (٣) . ومن الطواعين الشديدة التي اصابت بلاد الشام ، في العهد العثماني ، ذلك الذي حصل في عام ١١٧٣/١٧٦٠ ، في اعقاب سلسلة من الزلازل العنيفة (٤) . وكان طاعونا مخيفا مكث ، على حد قول رسلان القاري (٥) ، اربعة أشهر . وذكر اخر انه دام ستة اشهر (٦) وبلغت ضحاياه كل يوم في دمشق ، كما ذكر القاري ، « الف او ازيد » ، ووصف أحمد البديري الحلاق الدمشقي هذا الطاعون بقوله : « فقبل عيد الفطر بيومين وبعده بيومين يخرج من كل باب من أبواب دمشق ممن مــات مطعونا في كل يوم نحوا من الف جنازة والعياذ بالله . وهذا شيء ما سمع من عهــد

طاعون عمواس ، نسأله تعالى اللطف فيما جرت به المقادير » (٧) . وهذا دليل على اضطراب الروايات في ذكر الضحايا التي يميل الاخباريون الى تضخيمها نظرا لضخامة الحادث .

وقد قدر سكان بلاد الشام ، ابان الحكم المصري،في الفترة بين ١٨٣١ـ١٨٤٠، بما يتراوح بين (١٫٣٧٩٫٤٤٦) و (١٫٧٩١٫٠٧٦) نسمة ، وذلك بالاستناد الى سجلات الضرائب المصرية (٨) . وجاء في الاحصاء العثماني لعام ١٨٩٣ ان ولاية حلب ، بما فيها الوية حلب ومرعش وأورفة ، بلغ عدد سكانها ، باستثناء البدو ، (٧٨٧٫٧١٤) نسمة ، منهم (٣٨٨٫٠٨٣) من الاناث و (٣٩٩٫٦٣١) من الذكور . وضمت ولاية سورية ، التي كانت تتألف من لواء الشام (ويضم دمشق ودرعا وحاصبيا وراشيا ووادي العجم وبعلبك والبقاع والنبك) ، ولواء حماة (ويضم حماة والسلمية وحمص والحميدية) (٤٠٠٫٧٤٨) نسمة ، منهم (٢٠٢٫٧٤١) من الاناث و (١٩٨٫٠٠٧) من الذكور . واشتملت ولاية بيروت ، التي تألفت من لواء بيروت (ويضم بيروت وصيدا وصور ومرجعيون) ، ولواء عكا (ويشتمل على عكا وحيفا وصفد والناصرة وطبرية) ، ولواء اللاذقية (ويضم اللاذقية وجبلة والمرقب وصهيون) ، ولواء طرابلس الشام (ويشمل طرابلس وعكار وصافيتا وحصن الاكراد)، ولواء البلقاء (ويضم نابلس وبني صعب وجماعين وجنين) على (٥٦٨٫٠١٤) نسمة ، منهم (٢٧٣٫٤٨٥) من الاناث و (٢٩٤٫٥٢٩) من الذكور . وعلى هذا يبلغ مجموع سكان هذه الولايات التي كانت تشكل القسم الاكبر من بلاد الشام (١٫٧٥٦٫٤٧٦) في عام ١٨٩٣ (٩) . وبالمقارنة مع عدد السكان في فترة الحكم المصري يتضح ان الزيادة كانت طفيفة ، ان لم تكن معدومة ، في أحسن الاحوال . وربما يفسر ذلك بالاحداث التي جرت ، ومنها اضطرابات فترة ١٨٤٠ ـ ١٨٦٠ ، والهجرة التي اعقبتها الى الخارج ، واصابات الطاعون المتكررة في القرن التاسع عشر .

سجلات التركات واهميتها في دراسة السكان

تزودنا سجلات التركات ، او المخلفات ، في العهد العثماني ، بمعلومات هامة عن السكان ، وبخاصة فيما يتعلق بحجم الاسرة ، ونسبة الجنس الواحد الى الاخر بين الاولاد ، ووسطي الاعمار ، والاوضاع الاجتماعية والاقتصادية المرتبطة بذلك .

وقد عني بسجلات المخلفات نوعان من القضاة ، عرف كل منهما بلقب قسام ، واشير الى الواحد بلقب القسام العربي أو البلدي ، والى الاخر بلقب القسام العسكري ، فالقسام العربي هو القاضي الذي قام بحصر وتسعير ، أو بيع ، مخلفات

المتوفى ، واقتطاع ما كان بذمته من التزامات وديون وما ترتب على حصر التركة من نفقات ، ثم توزيع ما بقي من الثروة بين الورثة . وعالج هذا القسام بخاصة امور الاوصياء والقاصرين وثرواتهم ونفقات معيشتهم . وعرفت المحكمة التي تراسها القسام العربي بمحكمة القسمة العربية البلدية ، وباختصار القسمة العربية أو القسمة البلدية . والقسام العربي غالبا ما يعينه قاضي قضاة دمشق ، وهو القاضي الحنفي الرئيسي فيها ، الذي يعين من استانبول ، وكان طيلة الفترة العثمانية روميا ، أي عثمانيا تركيا ، باستثناء حالات نادرة عين فيها اشخاص من اصل محلي لمنصب قاضي القضاة . ولا تتوافر معلومات واضحة حول مكان عمل القسام ، وعما اذا كانت لـه باستمرار محكمة خاصة به ، تشمل بناء معينا ، على غرار المحاكم الشرعية .

ويستدل من بعض النصوص ان القسام العربي اقام في محكمة الباب بدمشق(١٠) وهي مقر قاضي القضاة ، وتقع في مواجهة المدرسة النورية الكبرى ، لذا عرفت بالمحكمة النورية(١١) ، أما القسام العسكري فقد عالج شؤون العسكريين ، مـن الجنود والموظفين . وعين القسام العسكري من قبل قاضي عسكر الاناضول ،وعرفت محكمته بمحكمة القسمة العسكرية . ولا يعرف مكان اقامة هذا القسام ولا المكان الذي مارس عمله فيه ، ولكن وجدت سجلات كثيرة للقسمة العسكرية .

وتعد سجلات القسام العربي من اهم السجـلات بالنسبـة لدراسة السكان ، فهي تذكر المتوفين من مختلف طبقات الشعب. ولكنها لاتشكل بحال مسحا دقيقا لجميع المتوفين . فبعض الورثة يحلون قضاياهم فيما بينهم دون اللجوء الى القسام ، كما ان معظم السكان من غير المسلمين كانوا يلجأون الى محاكمهم الدينية الخاصة بهم . ومع ذلك ذكرت سجلات القسام اعدادا لا بأس بها من المتوفين غير المسلمين . ولا يرد في سجلات القسام ذكر للمتوفين القاصرين الا فيما ندر من الحالات ، حين يكـون هؤلاء من أصحاب الثروات ، بحكم الوراثة ، وعندئذ يقتضي تدخل القسام لحصر ثرواتهم وتوزيعها بين الوارثين . وعنيت سجلات القسام بالمتوفين من الجنسين ، الذكور والاناث ، كما انها عالجت مخلفات المتوفين في القرى المحيطة بدمشق ، وفي المدن الابعد احيانا حين تكون الوفاة قد حدثت في دمشق أو بجوارها ، أو اذا كان الوارثون في دمشق .

ومما تجدر ملاحظته ان هذه السجلات تعطي مسحا شبه كامل لمخلفات المتوفين الاغراب ، ومعظم هؤلاء من الاروام (الاتراك) ، الذين قدموا الى دمشق للالتحاق بقافلة الحج الشامي المتجهة منها الى الحجاز . وترد قوائم المتوفين هؤلاء في سجلات القسام العربي عقب عودة قافلة الحج الى دمشق ، في النصف الاول من شهر صفر

غالبا . ومن الحجاج من يتوفى في طريق العودة ، ويدفن هناك ، ومنهم المرضى الذين يصلون دمشق ويتوفون فيها . ويذكر هؤلاء جميعا في سجلات القسام العربي بدمشق .

ويقوم القسام بحصر ورثة المتوفى ، أو المتوفاة ، من زوجات ، أو ازواج ، واولاد واقرباء . ويتم حصر الممتلكات في البيت وفي مكان العمل (الدكان أو الخان) وتحصى الديون ان وجدت ، ثم تطرح الممتلكات في المزاد ، لتقدير ثمنها ، أو بيعها ،و غالبا ما اشتراها ابناء المتوفى من حصصهم بالميراث ، كما اشتراها احيانا اغراب على اختلاف مذاهبهم . وكثيرا ما اجل بيع الممتلكات غير المنقولة ، مثل العقارات والاراضي ، التي تبقى مشاعا بين الورثة . اما في الحالات التي لا يوجد فيها وارثون للمتوفى فتنتقل الثروة الى بيت مال الدولة . وبالنسبة للحجاج الاغراب الذين لهم وارثون في اماكن اقامتهم البعيدة ، فتسلم ثروة المتوفى التي تكون بحوزته وغالبا ما شملت نقودا وحاجيات وسلعا ، الى وصي من بلدته ، يكون المتوفى قد عينه سلفا كتدبير احتياطي ، لينقل ذلك الى وارثيه .

ولم تذكر سجلات القسام العربي تاريخ الوفاة بدقة ، بل اكتفت بترديد العبارة التالية : « المتوفى قبل تاريخه » . وهذا يعني انه قد يمر بعض الوقت ، قد يبلغ شهورا أو سنوات ، على الوفاة ، قبل الشروع بحصر التركة ، وبخاصة اذا كانت كبيرة وتشمل ديونا كثيرة وهامة .

ولا تذكر السجلات عمر المتوفى ولا مكان اقامته اي حيه او داره . واذا كان قرويا ذكرت القرية التي ينتسب اليها . واذا كان غريبا اشارت الى بلدته والولاية التي تقع فيها . وفي الحالات التي تذكر فيها دار المتوفى الدمشقي ، ويعين موضعها وحدودها ، بمناسبة تقدير سعرها ، وتوزيعها بين الورثة أو بيعها ، يمكن عندئذ معرفة الحي الذي كان يسكنه المتوفى . ولم تعن سجلات القسام بذكر عمل أو مهنة المتوفى ، ويمكن تقديرها من لقبه الذي يحمله ، مثل الدباغ أو الصباغ ، ومن الادوات والسلع التي توجد في دكانه .

وقد اهتم القسام العربي بمحاسبة اوصياء القاصرين كل سنة ، فيما عهد اليهم من ثروة القاصرين وتوظيفها ومبلغ الربح ، أو المرابحة ، الذي نجم عن ذلك . واهتم ايضا بمعرفة النفقات التي انفقها الوصي على القاصر ، وتقتطع من مبلغ ثروته .

دراسة عينتين من سجلات القسام العربي

تزودنا سجلات القسام العربي بمعلومات هامة عن تركيب الاسرة ، وبالتالي

السكان ، رغم الثغرات التي سبقت الاشارة اليها . ومع ان المخلفات التي نظر فيها القسام عنيت بالدرجة الاولى بشؤون القاصرين ، فان بعض المخلفات اقتصرت على ورثة من البالغين فقط . ومن شأن ذلك ان يطلعنا على فئات الاعمار بين السكان بشكل عام ، وتعد محتويات هذه السجلات مصدرا هاما لقطاع كبير من السكان آنذاك .

وقد قمنا بدراسة عينتين من سجلات القسام العربي بدمشق ، احداهما (١٢) تشمل الفترة بين اول شعبان ١١٦٣ و ٢٨ ذي الحجة ٦/١١٦٥ تموز ١٧٥٠ و ٧ تشرين الثاني ١٧٥٢ ، والثانية (١٣) تشمل الفترة بين أول ذي القعدة ١٢٣٢ و ١٦ ربيع الثاني ١٢/١٢٣٥ ايلول ١٨١٧ واول شباط ١٨٢٠ . وتتألف كل فترة من هاتين الفترتين من حوالي تسعة وعشرين شهرا . وقد اختيرت هاتان العينتان ، بفاصل سبعين سنة تقريبا ، لمعرفة المتغيرات السكانية التي حدثت خلال تلك المدة . وقد جرت احداث جسام ، بالنسبة لدمشق ، في تلك الفترة ، مثل الزلازل الشديدة التي اصابتها عام ١٧٥٩/١١٧٣ ، والطواعين التي اعقبتها واودت بحياة الآلاف من سكانها ، كما سبق القول . وحدث أيضا في تلك الفترة هجوم علي بك المملوكي من مصر على بلاد الشام واحتلاله دمشق لمدة عشرة ايام ، بين ٢٤ صفر و ٥ ربيع الاول ٨/١١٨٥ ــ ١٨ حزيران ١٧٧١ (١٤) ثم تلاه هجوم مملوكي اخر من مصر على الجزء الجنوبي من بلاد الشام في عام ١٧٧٥ ، كما ان احمد باشا الجزار والي صيدا المملوكي الاصل ، الذي عين على ولاية الشام أربع مرات ، بين عام ١٧٨٥ ووفاته في ١٨٠٤ ، والذي صد حملة نابليون بونابرت على عكا عام ١٧٩٩ ، قد روع الاهلين بظلمه وفرضه السخرة عليهم ، وتسخيره الطاقات البشرية والاقتصادية لمصلحته . وشهد الربع الاول من القرن التاسع عشر توغل قوات الوهابيين في بلاد الشام وحروبهم مع السلطة العثمانية .

تضم العينة الاولى مخلفات ٣٣٦ متوفى ، منهم (١٤٢) مسلما محليا (من دمشق والقرى المجاورة والمدن السورية ومن نزلاء دمشق) و (١٠٤) مسلمة محلية ، و (٨٢) من الاغراب المسلمين ، وهم باكثريتهم من الاتراك ، ويضمون بعض المصريين والمغاربة ، و (٧) مسيحيين ، وامرأة يهودية واحدة . ومن الـ (١٤٢) محليا ، حمل (٧١) منهم لقب حاج ، و (٣٢) لقب سيد ، و (١٤) لقب شيخ ، و (٦) لقب اسطه او استاذ او معلم (اسطه تحوير لكلمة أستاذ ، وتشير هذه الالقاب الى معلم الحرفة) وكان (١٩) منهم بدون لقب . ويبدو أن لقب سيد حل محل بقية الالقاب نظرا لاهميته في التدليل على ان صاحبه ينحدر من السلالة النبوية الشريفة . وفي بعض الحالات لم يحمل والد السيد هذا اللقب مما يدل على ان المتوفى قد اكتسب الشرافة عن طريق امه التي كانت من الاشراف . ويلاحظ ان الذين حملوا لقب شيخ ، ويدل

على درجة من التفقه في العلوم الدينية ، كانوا ينحدرون من اباء يحملون ذلك اللقب ، مما يشير الى انتقال الاهتمام بالعلوم الدينية من الاباء الى الابناء ، بدليل شيوع تعبير ان فلانا من اسرة علماء .

ويلاحظ في قائمة المتوفين الـ (١٤٢) ان (٧٣) منهم كانت لكل منهم زوجة واحدة عند وفاته ، و (٣١) كانت لكل منهم زوجتان . وفي (٢٧) من بين الـ (٣١) حالة هذه اشير الى الزوجة الثانية بانها زوجة سابقة ، وقد تكون مطلقة او متوفاة ، ولكنها خلفت اولادا حق لهم وراثة والدهم . أما الحالات الاربع اخرى فاشارت كل منها الى زوجتين كانتا في عصمة المتوفى عند وفاته . وفي أربع حالات من أصل (١٤٢) كان للمتوفى ثلاث زوجات ، وفي حالتين منهما كان اثنتان منهن في عصمته وزوجة سابقة ، وفي حالة واحدة كانت له زوجة واحدة في عصمته وزوجتان سابقتان وامراة رابعة اشير اليها بمستولدته ، أي انها ولدت له اولادا ، ولم تكن بزوجته . وفي (٣٤) حالة من (١٤٢) لم يذكر للمتوفى اية زوجة مما يعني انه لم يكن متزوجا ، أو ان زوجته قد توفيت ، أو كانت مطلقة ولم تخلف له اولادا . ويلاحظ في هذه الاحصاءات ان ٥٩ر٦٧٪ من المتوفين المتزوجين كانت بعصمتهم زوجة واحدة حين وفاتهم ، وربما دل هذا الاتجاه بالاكتفاء بزوجة واحدة على اوضاع مادية محدودة ، وكذلك على تدني مستوى العمر بين المتوفين كما سنشير الى ذلك لاحقا . ونستنتج من عدد الحالات التي كان للمتوفى فيها زوجة سابقة او اكثر ، ويبلغ عددها (٣١) حالة تعادل ٧٠ر٢٨٪ من مجموع المتزوجين ، ان نسبة تعدد الزوجات ، وما يرتبط بذلك من طلاق ، كانت متدنية بالقياس مع اعداد المتوفين المتزوجين بزوجة واحدة .

واذا ما استعرضنا عدد الاولاد الذين خلفهم المتوفون لتوصلنا الى احصاءات هامة . فمن مجموع المتوفين الـ (١٤٢) خلف (٨٩) منهم اولاداً ، وبلغ مجموع هؤلاء الاولاد (٢٥١) ينقسمون الى (١٣٩) قاصرا و (١١٢) بالغا . وينقسم القاصرون الى (٦٣) ذكرا و (٧٦) انثى . أما البالغون فيتألفون من (٤٣) ذكرا و (٦٩) انثى . وبالاضافة الى العدد (٢٥١) كان تسع من زوجات المتوفين حاملات . وكان الحمل قبل ولادته يخمن دائما بذكر ، وذلك عند اقتسام الميراث ، وهذا اضمن لحقوق المولود مما او خمن بانثى ، لان حصتها نصف حصة الذكر ، ومن شأن ذلك أن يسبب الارباك المالي بين الورثة فيا بعد .

ونستنتج من كون عدد القاصرين بين اولاد المتوفين اكثر من عدد البالغين ان المجتمع الدمشقي كان فتيا . ولكن ذلك يعني من ناحية اقتصادية أنه كان أقل انتاجا لان موارد صاحب الاسرة تنفق على عدد اكبر من القاصرين غير المنتجين .

ونلاحظ ايضا من ارتفاع نسبة القاصرين الى البالغين ، بين أولاد المتوفين ، ان متوسط اعمار المتوفين كانت متدنية . واذا اخذنا بعين الاعتبار ان ٥٩ر٦٧٪ من المتوفين المتزوجين كانت لهم زوجة واحدة ، وان الزواج في المجتمعات الزراعية التقليدية يتم عادة في سن مبكرة ، وان الولادات تتلو الواحدة منها الاخرى ، في فترات قصيرة ، فان كثرة القاصرين تغدو ذات مدلولات هامة .

ويلاحظ كذلك من مقارنة مجموع عدد الاولاد ، وهو (٢٥١) بعدد الاسر التي ضمتهم وهو (٨٩) ان وسطي عدد الاولاد في الاسرة الواحدة هو (٨٢ر٢) . واذا أضفنا الى ذلك ان نسبة القاصرين من الاولاد كانت ٣٧ر٥٥٪ فان التفسير الارجح لهذا التدني في وسطي عدد الاولاد في الاسرة هو ارتفاع نسبة الوفيات ، سواء بين الاطفال أم الاباء . ومن بين المتوفين الـ (٨٩) ، هناك أربعة كان لكل منهم ستة أولاد ، وواحد له سبعة أولاد ، واخر له تسعة أولاد ، والجدير بالذكر ان ثروة المتوفى الذي خلف الاولاد التسعة كانت أعلى ثروة بين جميع المتوفين . اما غالبية الاسر فيتراوح عدد أولاد كل منها بين ولد واثنين. كما سنلاحظ في الجداول اللاحقة.

ويلفت الانتباه ان نسبة الاناث بين القاصرين بلغت ٦٧ر٥٤٪ ، ونسبتهن بين الاولاد البالغين بلغت ٦٠ر٦١٪ . وارتفاع نسبة الاناث بين البالغين عنها بين القاصرين ربما يدل على مقاومة الاناث للامراض اكثر من الذكور . وينتج عن ازدياد نسبة الاناث بين أولاد المتوفين تحزؤ الملكيات الموروثة الى حصص اصغر مما لو كان الامر عكس ذلك ، لان الانثى ترث نصف ما يرث الذكر .

والى جانب المتوفين المحليين الـ (١٤٢) ، في العينة الاولى ، هناك (١٠٤) من النساء المتوفيات من المسلمات المحليات . وقد حملت ثماني منهن لقب حاجة ، أي بنسبة ٦و٧٪ بينما كانت نسبة الذين يحملون لقب حاج بين الرجال المحلين المتوفين ٥٠٪ . ولم يكن تدني نسبة النساء اللواتي ذهبن الى الحج ليفسر بسبب اقتصادي بحث لان وسطي ثروة النساء المتوفيات فاق وسطي ثروة الرجال المتوفين ، ويبدو ان الاسباب تتعلق بالتقاليد السائدة وبصعوبات الطريق ومخاطره . ووجد بين النساء اربع عشرة امراة حملن لقب شريفة ، اي بنسبة تبلغ ٤٦ر١٣٪ من مجموع النساء المتوفيات . ويقابل ذلك واحد وثلاثون رجلا حملوا لقب سيد ، اي بنسبة تبلغ (٨٣ر٢١) من مجموع المتوفين المحليين . ونستدل من هذه النسب انه لم يكن ضروريا أو شائعا ان يتزوج الاشراف من شريفات دون غيرهن .

ولدى استعراض عدد النساء وازواجهن ، في العينة الاولى ، نجد ان (٧١)

امرأة من اصل (١٠٤) قد تزوجت كل منهن مرة واحدة . وهناك (١٧) امــرأة تزوجت كل منهن مرتين . وليس هناك من امرأة واحدة ذكر انها تزوجت ثلاث مرات، وطبيعي ان المعيار الذي نعتمده في معرفة عدد مرات الزواج هو وجود الاولاد وانتسابهم وحقهم في الارث ، اما بقية النساء ، وعددهن (١٤) ، فلم يكن متزوجات عند وفاتهن . ونستدل من ارتفاع نسبة النساء المتزوجات مرة واحدة ، وتقدر بـ (٧٨ر٨٨٪ بين المتزوجات ، وكذلك نسبة الرجال المتزوجين من زوجة واحدة ، والمقــدرة بـ (٥٩ر٦٧٪) ان المجتمع المحلي الشامي كان يميل الى عدم تعدد الزوجات أو الازواج. وربما يفسر ذلك باسباب اقتصادية أو بتدني وسطي الاعمار ، رغم ان نسبة الاناث فاقت نسبة الذكور بين البالغين ، كما ذكرنا .

وبلغ عدد الاولاد الذين خلفتهن (٦٠) متوفاة من اصل (١٠٤) ، (١٢٦) ولدا كان من بينهم (٨٧) من القاصرين و (٣٩) من البالغين . وتبلغ نسبة الاولاد لكل امرأة متزوجة (١ر٩٣) ، في حين بلغت النسبة بين الرجال (٢ر٨٢) ، لان الرجال امكنهم الزواج اكثر من مرة بالمقارنة مع النساء . ويتألف القاصرون من (٤٤) ذكرا و (٢٣) انثى ، والبالغون من (٢٠) ذكرا و (١٩) انثى . وارتفاع نسبة القاصرين بين أولاد النساء المتوفيات والبالغة ٦٩ر٠٤٪ تفوق نسبة القاصرين بين أولاد الرجال المتوفين والبالغة ٥٥ر٣٧٪ والنسبة في الحالتين تؤكد كون المجتمع فتيا .

وباستعراض اسماء النساء الـ (١٠٤) تبرز نسب الاسماء المستعملة انذاك ، فقد حملت (٢٣) امرأة اسم فاطمة ، و (١١) زينب ، و (٨) خديجة ، و (٧) عائشة ، و (٥) آمنة وخانم وسعدية ، و (٤) حامدة ورحمة ، و (٣) مريم و (٢) صالحة وصفية وليلى ونجيبة . وحملت أمرأة واحدة اسم كل من اسامي واسمهان وجميلة وحديفة وحليمة وراجحة ورقيــة وزاهدة وســت وستوت وسعديــة وشرف وصادقــة وصافية وعاتكة وعفيفة وعيني وفايقة وكرافة ونفيسة وهبت .

أما بالنسبة للمتوفين الاغراب الذين قدر عددهم بـ (٨٢) فكان معظمهم مــن الاتراك الذين انضموا الى قافلة الحج الشامي المتجهة الى الحجاز . وقد ذكرت مخلفات المتوفين منهم في طريق العودة (يرجح أن المتوفين منهم في طريق الذهاب قد نظر في مخلفاتهم أحد القسامين في الحجاز ، أو في دمشق بعد وصولهم اليها) . وقد ذكرت مخلفاتهم بصورة متتالية تقريبا في سجل القسام العربي . واشار السجل الى اسم البلدة التي قدم منها المتوفى ، والولاية التي تقع فيها ، واسم الوصي الذي يهتم بتركة المتوفى ، وغالبا ما اختاره صاحب المخلفات قبل وفاته ووافق عليــه القسام ، واسماء الوارثين . ولكن لم تذكر تفاصيل كثيرة عن هؤلاء وفيما اذا كانوا

قاصرين أو بالغين لان سجل القسام يذكر الوارثين على سبيل العلم بهم لكي لا تنتقل الثروة الى بيت مال الدولة . وينقل الوصي التركة ، بعد اقتطاع الرسوم والمصاريف الاخرى الى اصحابها في البلد الاصلي .

وذكرت العينة الاولى اسماء سبعة متوفين من المسيحيين بينهم امرأة ، واسم امرأة يهودية واحدة . وكان لمعظمهم مشاكل اقتضى عرضها ، كما يبدو ، على القسام العربي . فاحدهم توفي في عكا ، والاخر كان ارمنيا توفي في احد خانات دمشق ولم يكن له وارث ، والثالث توفي في القاهرة ، والاخرون كان احدهم من حلب ، وثانيهم صائغا ، وثالثهم طبيبا .اما المرأة المسيحية فقد تركت زوجا وابنتين بالغتين . ولم تكن المرأة اليهودية متزوجة . وكان ستة من المسيحيين السبعة متزوجين ، ولثلاثة منهم اولاد بلغ عددهم ثمانية جميعهم من القاصرين ، وقد اشتملوا على ستة ذكور وانثيين ، ولا تشكل هذه الاعداد القليلة من المتوفين غير المسلمين نماذج ذات دلالات يمكن تعميمهـا .

وتتألف العينة الثانية التي درسناها ، والتي تعود الى الفترة بين ١٢٣٢ — ١٢٣٥/١٨١٧ — ١٨٢٠ ، من (٢٧٧) متوفى ، يضمون (١٢٠) مسلما محليا ، و (٧٦) مسلمة محلية ، و (٧٥) من الاغراب ، و (٦) مسيحيين . وضم المسلمون المحليون (٣٧) شخصا يحملون لقب حاج ، و (٢٦) لقب سيد ، و (١٣) لقب شيخ ، وشخصا واحدا يحمل لقب معلم ، أما الاسماء الاخرى فلم تحمل لقبا .

وبلغ عدد المتوفين المحليين الذين كانت بعصمة كل منهم زوجة واحدة عند وفاته (٦٦) من اصل (١٢٠) . وهناك سبعة كان لكل منهم زوجتان عند وفاته ، و(١٥) لكل منهم زوجة واحدة واخرى سابقة خلفت اولادا . وذكر اثنان لكل منهما زوجتان بالاضافة الى زوجة ثالثة سابقة . ولم يكن لـ (٣٠) منهم اية زوجة حين وفاتهم . ولكن احد عشر منهم كان لهم اولاد ، مما يدل على وجود زوجات لهم في السابق .

وقد خلف (٨٢) متوفى ، من اصل (١٢٠) ، اولادا بلغ مجموعهم (٢٣٧) . وضم هؤلاء (١٣٦) قاصرا و (١٠١) بالغا . واشتمل القاصرون على (٧٦) ذكرا و (٦٠) انثى . أما البالغون فضموا (٤٨) ذكرا و (٥٣) انثى . ووجد الى جانب هؤلاء الاولاد اثنا عشر حملا . ويلاحظ أنه بعد مضي سبعين سنة على العينة الاولى زادت نسبة القاصرين الى البالغين في العينة الثانية ، وبلغت ٥٧ر٣٨٪ من مجموع الاولاد ، في حين أن النسبة في العينة الاولى كانت ٥٥ر٣٧٪ . ونلاحظ تناقصا في نسبة الاناث الى مجموع الاولاد ، اذ بلغت في العينة الثانية ٤٧ر٦٧٪ في حين كانت ٥٧ر٧٦٪ في العينة

الاولى . ويبلغ متوسط عدد الاولاد في الاسرة ، في العينة الثانية ، (٢٫٨٩) . وهذا يزيد بقليل عن متوسط العدد في العينة الاولى التي سبقت بسبعين سنة ، والبالغ ٢٫٨٢ ، مما يدل على ان التزايد السكاني كان بطيئا جدا .

وبالنسبة للنساء في العينة الثانية ، فقد حملت امرأتان من (٧٦) امرأة متوفاة لقب حاجة ، ولم تحمل أية امرأة لقب شريفة . ووجد لـ (٣١) امرأة زوج لكل منهن عند وفاتها ، ولامرأتين زوج سابق لكل منهما رزقت منه اولادا . وكان لثلاث فقط زوجان سابقان لكل منهن . ولم يذكر سجل القسام لـ (١٩) امرأة أي زوج عند وفاتهن ، ولكن خمسا من هاته النسوة ، كان لهن أولاد ، مما يعني انهن كن مطلقات من ازواجهن ، او ان ازواجهن قد توفوا .

ولم تختلف الاسماء المفضلة للنساء كثيرا في العينة الثانية عنها في العينة الاولى ، فقد بقي اسم فاطمة يحتل المرتبة الاولى ، اذ حملته (١٨) امرأة ، وتلاه اسما آمنة وزينب (٦) مرات لكل منهما ، وخديجة وسعدية وصالحة (٥) ، وعائشة (٤) ، ورقية (٣) ، وحنيفة وحوا وكلسن ومروه وصادقة مرتين ، واسماء واسمهان وحسنة وحفظة وحنيفة ودرة ورحمة وساقية وصادقة وعاتكة وغوا وقادرية ومحبوبة ومريم مرة واحدة .

أما بالنسبة للمتوفين الاغراب ، وعددهم (٧٥) ، فكان معظمهم من الاناضول وقلة من روميلية . وكانوا جميعا يحملون لقب حاج . وكتبت تفاصيل تركات هؤلاء باللغة العثمانية خلافا للعينة الاولى التي كتبت فيها تركات الاغراب باللغة العربية . وربما دل ذلك على ان الدولة العثمانية في الربع الاول من القرن التاسع عشر ، وقد بدأت بتطبيق الاصلاحات وفرض سلطة المركز على الولايات ، قد عمدت الى دعم اللغة العثمانية .

وذكرت في العينة الثانية اسماء ستة متوفين مسيحيين ضموا امرأة . وكانوا جميعا متزوجين ، وتزوج احدهم مرتين . وبلغ مجموع اولادهم (٢١) ولدا ضموا (١٢) من القاصرين (٧ ذكور و ٥ اناث) ، وتسعة من البالغين (٣ ذكور و ٦ اناث) . ويشتركون مع المتوفين المسلمين بازدياد نسبة القاصرين بين الاولاد .

استنتاجات

بمقارنة العينتين ، وفق الجداول اللاحقة ، نصل الى الاستنتاجات التالية :

١ ـ الالقاب

العينـــة الاولـــى

١١٦٣ ـ ١١٦٦/١٧٥٠ ـ ١٧٥٣

	حــاج		شريف		شيخ	
متوفون محليون	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة
العدد : ١٤٢	٧١	٥٠٪	٣٢	٢٢ر٥٣٪	١٤	٩ر٨٦٪
متوفيات محليات						
العدد : ١٠٤	٨	٧٦ر٠٪	١٤	١٣ر٤٦٪	—	—

العينـــة الثانيـــة

١٢٣٢ ـ ١٢٣٥/١٨١٧ ـ ١٨٢٠

	حــاج		شريف		شيخ	
متوفون محليون	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة
العدد : ١٢٠	٣٧	٣٠ر٨٣٪	٢٦	٢١ر٦٦٪	١٣	١٠ر٨٣٪
متوفيات محليات						
العدد : ٧٦	٢	٢٦ر٠٪	—	—	—	—

يتضح من هذين الجدولين ان نسبة الذين أدوا فريضة الحج في العينة الثانية قد تناقصت عما في العينة الاولى ، وذلك بالنسبة للرجال والنساء معـا . ويمكن

تفسير هذه الظاهرة بالضائقة الاقتصادية التي اصابت جزءا من السكان المحليين في الربع الاول من القرن التاسع عشر ، اي في السنوات الاخيرة من حكم أحمد باشا الجزار وابان حكم احد عشر واليا تعاقبوا على جكم دمشق من بعده وحتى نهاية فترة العينة الثانية(١٥) . ولكن السبب الاهم من ذلك هو اتساع هجمات الوهابيين في العقد الاول من القرن التاسع عشر ووصولهم الى أطراف دمشق ، وعدم خروج قافلة الحج الشامي الى الحجاز لبضع سنوات نتيجة لذلك . ثم تلا القتال بين قوات الوهابيين وقوات والي مصر محمد علي باشا الذي كلفه السلطان العثماني بمهاجمتهم . وتمكنت قوات محمد علي من البطش بالقوات الوهابية ـ السعودية اثر حملات متعددة ضدهم واحتلت عاصمتهم الدرعية في عام ١٨١٨(١٦) .

ويلاحظ في العينتين ان نسبة الاشراف بين المتوفين الرجال كانت متقاربة مما يدل على ان عدد الاشراف في دمشق كان متوازنا وطبيعيا ، خلافا لما حدث في حلب في فترة السبعين سنة التي فصلت بين العينتين ، اذ ازدادت اعداد الاشراف وقوتهم فيها الى درجة كبيرة جعلت نقيب الاشراف في استانبول يكتب الى نقيب الاشراف في حلب يحثه على التدقيق في صحة النسب واتخاذ العلامة الخضراء ولقب السيد . وكان الاشراف في حلب يدافعون عن مصالح السكان المحليين فيها ضد الانكشارية العثمانيين ، وبالتالي ضد تسلط الدولةالعثمانية . وحدثت مواقع دامية بين الفريقين بلغت ذروتها في مذبحة جامع الاطروش ، قرب القلعة ، في عام ١٧٩٨ وذهب ضحيتها عدد كبير من الاشراف . ونظرا للاهمية العسكرية للاشراف في حلب آنذاك فقد استنجدت بهم الدولةالعثمانية لمقاومةحملة نابليون بونابرتعلى مصر وبلاد الشام(١٧) .

٢ ـ نسب الزواج

العينة الاولى

١١٦٣ ـ ١١٦٦/١٧٥٠ ـ ١٧٥٣

عدد المتزوجين	زوجة واحدة		زوجتان		ثلاث زوجات		بدون زوجة	
	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة
١٠٨	٧٣	٪٦٧ر٥٩	٣١	٪٢٨ر٧٠	٤	٪٣ر٧٠	٤٣	٪٣١ر٤٨

عدد المتزوجات	من زوج واحد		متزوجات مرتين		متزوجات ثلاث مرات		بدون زوج	
	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة
٨٨	٧١	٪٨٠ر٦٨	١٧	٪١٩ر٣١	ـ	ـ	١٦	٪١٨ر١٨

العينـــة الثانيـة

١٢٣٢ — ١٨١٧/١٢٣٥ — ١٨٢٠

عدد المتزوجين	زوجة واحدة		زوجتـان		ثلاث زوجات		بدون زوجة	
	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة
٩٠	٦٦	٣٣ر٧٣٪	٢٢	٤٤ر٢٤٪	٢	٢٢ر٠٪	٣٠	٣٣ر٣٣٪

عدد المتزوجات	من زوج واحد		متزوجات مرتين		متزوجات ثلاث مرات		بدون زوج	
	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة
٤٦	٣١	٣٩ر٦٧٪	١٢	٠٨ر٢٦٪	٣	٦٥ر٠٪	١٩	٣٠ر٤١٪

يلاحظ في الاعداد والنسب السابقة ان ٥٩ر٦٧٪ من المتزوجين في العينة الاولى كانت لهم زوجة واحدة عند وفاتهم . وازدادت النسبة الى ٣٣ر٧٣٪ بعد سبعين سنة من ذلك ، مما يدل على ان المجتمع الشامي كان يميل في غالبيته الى الاكتفاء بزوجة واحدة . أما بالنسبة للنساء فنلاحظ ان نسبة المتزوجات من زوج واحد قد تدنت من ٨٠ر٦٨٪ في العينة الاولى الى ٣٩ر٦٧٪ في العينة الثانية . وربما كان سبب ذلك تدني نسبة الاناث في العينة الثانية الى ٦٧ر٤٧٪ ، وكانت في العينة الاولى ، قبل سبعين سنة ، ٦٧ر٥٧٪ . ولكن ما يعدل ذلك ارتفاع نسبة المتزوجات مرتين الى ٠٨ر٢٦٪ في العينة الثانية ، بينما كانت ٣١ر١٩٪ في العينة الاولى . وتبعا لهذا الاتجاه في الاقلال في عدد الزيجات فمن الطبيعي ان يكون المتزوجون من ثلاث زوجات ، أو المتزوجات ثلاث مرات ، اقل من المتزوجين من زوجتين ، او من المتزوجات مرتين . ويلفت النظر ضمن هذه النسب ان عدد المتزوجين باكثر من زوجة ، في العينة الاولى ، ومجموعهم (٣٥) ، ضم ست حالات فقط كان للمتوفى فيها زوجتان في عصمته حين وفاته ، أما الزوجات الاخريات ، ممن خلفن أولادا ، فكن زوجات سابقات . وفي العينة الثانية نلاحظ ان من مجموع (٢٤) متوفى لكل منهم اكثر من زوجة ، وجد سبعة فقط لكل منهم زوجتان في عصمته حين وفاته ، وهناك خمسة عشر لكل منهم زوجة واحدة واخرى سابقة . وفي حالتين كان للزوج زوجتان وزوجة اخرى سابقة . وتؤكد هذه التفاصيل ماورد في العينتين ، على مدى سبعين سنة ، من الاتجاه نحو الاكتفاء بزوجة واحدة .

ويلفت النظر ان عدد المتوفين بدون زوجة ، بلغ في العينة الاولى ٤٨ر٣١٪ وفي العينة الثانية ٣٣ر٣٣٪ . أما نسبة المتوفيات بدون زوج فبلغت ١٨ر١٨٪ في العينة الاولى و ٣٠ر٤١٪ في العينة الثانية . وربما يفسر هذا الازدياد بالنسبة للمتوفيات بدون زوج بارتفاع متوسط العمر بينهن بالنسبة لمتوسط عمر الازواج . كما أن هذا ينصب في النتيجة باتجاه عدم تعدد الزوجات أو الزيجات .

٣ ـ حجم الاسرة

العينـة الاولى

١١٦٣ ـ ١١٦٦/١٧٥٠ ـ ١٧٥٧

		القاصرون		البالغون	
متوفون اعقبوا اولادا	مجموع الاولاد	العدد	النسبة	العدد	النسبة
العدد = ٨٩	٢٥١	١٣٩	٣٧ر٥٥٪	١١٢	٦٢ر٤٤٪

		القاصرون		البالغون	
متوفيات اعقبن اولادا	مجموع الاولاد	العدد	النسبة	العدد	النسبة
العدد = ٦٥	١٢٦	٨٧	٤.ر٦٩٪	٣٩	٩٥ر٣٠٪

العينـة الثانيـة

١٢٣٢ ـ ١٢٣٥/١٨١٧ ـ ١٨٢٠

		القاصرون		البالغون	
متوفون اعقبوا اولادا	مجموع الاولاد	العدد	النسبة	العدد	النسبة
العدد = ٨٢	٢٣٧	١٣٦	٣٨ر٥٧٪	١٠١	٦١ر٤٢٪

		القاصرون		البالغون	
متوفيات اعقبن اولادا	مجموع الاولاد	العدد	النسبة	العدد	النسبة
العدد = ٤٢	٧٩	٥٢	٨٢ر٦٥٪	٢٧	١٧ر٣٤٪

ويتضح من هذا ان نسبة القاصرين بين اولاد المتوفين كانت تتجه نحو الازدياد خلال السبعين سنة التي فصلت العينة الثانية عن الاولى . ويفسر ذلك بتدني وسطي العمر بين الاباء نظرا لكثرة انتشار الاوبئة والطواعين بصورة خاصة ، ويترتب على كثرة القاصرين بين الاولاد ان الاب يضطر للانفاق عليهم لاعاشتهم ولا يستفيد كثيرا من عملهم قبل وفاته .

ويلاحظ أن متوسط مجموع الاولاد في الاسرة بالنسبة للمتوفين الذكور كان (٢ر٨٢) في العينة الاولى و (٢ر٨٩) في الثانية ، ويبدو ان تفسير هذه النسبة المتواضعة في عدد الاولاد يعود الى تدني وسطي العمر وكثرة الوفيات ثم الضائقة الاقتصادية . وسنعالج العلاقة بين الوضع الاقتصادي للاسرة وعدد الاولاد فيها في جدول لاحق . واذا اضفنا الابوين الى وسطي عدد الاولاد لوصلنا الى ما يقرب الخمسة ، وهو الحجم المتعارف عليه للاسرة في بلاد الشام في العهد العثماني . ونظرا لان الاتجاه نحو الاكتفاء بزوجة واحدة كان هو الغالب فان حجم الاسرة لا يزيد عن الخمسة الا في حالات قليلة ، كأن يكون في الاسرة زوجتان أو أكثر في وقت واحد .

وباستعراض عدد الاولاد في اسر المتوفين والمتوفيات في العينتين تصل الى النسب التالية :

	العينة الاولى				العينة الثانية			
	١١٦٣ – ١١٦٦/١٧٥٠ – ١٧٥٣				١٢٣٢ – ١٢٣٥/١٨١٧ – ١٨٢٠			

عدد الاولاد في الاسرة

	المتوفون		المتوفيات		المتوفون		المتوفيات	
	(المجموع : ١١٠)		(المجموع : ٨٨)		(المجموع : ٩٨)		(المجموع : ٥٢)	
	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة
بدون أولاد	٢١	١٩ر٠٩ (١)	٢٣	٢٦ر١٣	١٦	١٨ر٥١	١٠	٢٣ر٨٠
ولد واحد	٢٤	٢٦ر٦٦ (٢)	٢٩	٤٤ر٦١	١٨	٢٢ر٢٢	٢٣	٥٤ر٧٦
ولدان	٢٠	٢٢ر٢٢	٢١	٣٢ر٣٠	٢٢	٢٧ر١٦	٧	١٦ر٦٦
ثلاثة أولاد	١٥	١٦ر٦٦	٨	١٢ر٣٠	١٧	٢٠ر٩٨	٩	٢١ر٤٢
أربعة أولاد	١٨	٢٠ر٢٢	٤	٠ر٦١	١٤	١٧ر٠٧	١	٠ر١٩
خمسة اولاد	٦	٠ر٦٦	٣	٠ر٤٦	٦	٠ر٧٣	١	٠ر٢٣
ستة أولاد	٤	٠ر٤٤	–	–	١	٠ر١٢	١	٠ر٢٣
سبعة اولاد	١	٠ر١١	–	–	٣	٠ر٣٦	–	–
تسعة أولاد	١	٠ر١١	–	–	–	–	–	–
احدعشر ولداً	–	–	–	–	١	٠ر١٢	–	–
مجموع الاولاد (٣)	٢٥١		١٢٦		٢٣٧		٧٩	

١ ـ حسبت هذه النسبة من المجموع العام للمتوفين .

٢ ـ حسبت هذه النسبة من المجموع العام للمتوفين ذوي الاولاد .

٣ ـ لا يتضمن عدد الاولاد تسع حالات حمل في العينة الاولى واثنتي عشرة حالة حمل في العينة الثانية

يتضح من الجدول السابق ان عدد اسر المتوفين ، في العينة الاولى ، التي ضم كل منها ولدا واحدا : بلغ (٢٤) اسرة . يليها (٢٠) اسرة ضم كل منها ولدين ، وهذا يعني ان (٤٤) اسرة ، من اصل (٨٩) اسرة ذات اولاد ، ضمت (٦٤) ولدا ، اي ان ٤٣ر٤٩٪ من عدد الاسر ضم ٤٩ر٢٥٪ من عدد الاولاد . ويدل هذا على ان الاسرة كانت اقرب الى الصغر . اما الاسر التي راوح عدد الاولاد فيها من ثلاثة الى اربعة فبلغ عددها (٣٣) اسرة ، شكلت ٣٧٫٠٧٪ من مجموع الاسر ، وضمت ١١٧) ولدا ، اي بنسبة ٦١ر٤٦٪ من مجموع الاولاد . ثم يهبط عدد الاسر التي راوح عدد الاولاد في كل منها من خمسة الى ستة الى عشر اسر ، تشكل نسبة ٢٣ر١١٪ من مجموع الاسر ، وقد ضمت (٥٤) ولدا ، اي بنسبة ١٥ر٢١٪ .

وبالمقارنة مع المتزوجين في العينة الثانية نجد ان عدد الاسر التي ضمت ولدا واحدا بلغ ١٨ اسرة . ويليها (٢٣) اسرة ضم كل منها ولدين . وهذا يعني ان (٤٠) اسرة من اصل (٨٢) اسرة ذات اولاد ضمت (٦٢) ولدا ، اي ان ٧٨ر٤٨٪ من عدد الاسر ضم ١٦ر٢٦٪ من عدد الاولاد . وتتشابه هذه النسب مع نسب العينة الاولى مما يعني استمرار الاسر ذات الحجم الصغير بعد سبعين سنة من العينة الاولى . اما الاسر التي راوح عدد الاولاد في كل منها من ثلاثة الى اربعة فقد بلغ عددها (٣١) اسرة ، تشكل نسبة ٨٠ر٣٧٪ ، وضمت (١٠٧) اولاد تبلغ نسبتهم ١٤ر٤٥٪ . وتتقارب هذه النسب بدورها من نسب العينة الاولى . ثم يهبط عدد الاسر التي راوح عدد الاولاد في كل منها من خمسة الى ستة فتشكل نسبة ٥٣ر٨٪ وقد ضمت (٣٦) ولدا يشكلون نسبة ١٨ر١٥٪ من مجموع الاولاد .

اما بالنسبة للمتوفيات في العينة الاولى ، فقد بلغ عدد اللواتي خلفن ولدا او ولدين (٥٠) امرأة ، اي ٩٢ر٧٦٪ من مجموع المتوفيات اللواتي خلفن اولادا . وبلغ عدد اولادهن (٧١) ولدا من اصل (١٢٦) ، اي بنسبة ٣٤ر٥٦٪ . ثم يهبط عدد اللواتي خلفن ثلاثة او اربعة اولاد الى (١٢) امرأة ، نسبتهن ٤٦ر١٨٪ ، وعدد اولادهن (٤٠) ولدا ، بنسبة ٧٤ر٣١٪ .

ويقابل ذلك في العينة الثانية (٣٠) امرأة خلفت كل منهن ولدا او ولدين ، بنسبة ٤٢ر٧١٪ من عدد المتوفيات ذوات الاولاد ، وبلغ مجموع اولادهن (٣٧) ولدا ، بنسبة ٨٣ر٤٦٪ من مجموع الاولاد . وتقل هذه النسب قليلا عن نسب المتوفيات من فئتي الولد او الولدين في العينة الاولى . اما اللواتي خلفت كل منهن ثلاثة الى اربعة اولاد فبلغ عددهن (١٠) نساء ، اي بنسبة ٨٠ر٢٣٪ ، ومجموع اولادهن (٢٨) ولدا ، تساوي نسبتهم ٤٤ر٣٥٪ من مجموع الاولاد . وهذا اكثر بقليل من العينة الاولى ، اي ان

العينة الثانية تؤكد الاتجاه السائد نحو شمول الاسرة ولدا أو ولدين مع بعض الزيادة في عدد الاسر ذوات الثلاثة والاربعة اولاد .

٤ ـ العلاقة بين وضع الاسرة الاقتصادي وعدد اولادها

يمكن ايجاد علاقة بين عمل رب الاسرة ووضعه الاقتصادي ، وحجم اسرته . ويلاحظ من تفاصيل العينتين ان بعض الحرفيين الذين اقتضى عملهم الجلوس ، مثل القوافين (بائعي الاحذية) والقاووقجية (صانعي غطاء الرأس المعروف بالقلنسوة) ، وكذلك النساج ، كان لهم اسر متوسطة الحجم ، بمقاييس ذلك الزمن ، تضم الواحدة منها ولدين الى اربعة اولاد . ويشترك معهم في ذلك الحرفيون المشتغلون بالطعام ، مثل الحلوانية والاقسماوية (بائعي المرطبات) ، والسمانين . ولكن الحرفيين الذين اقتضى عملهم الحركة الدائمة ، مثل الحلاقين والحمامين والطحانين والكيالين فكانت اسرهم اقل عددا ، تضم الواحدة منها ولدا الى ثلاثة اولاد . اما المشتغلون بالعلم ، فيلاحظ انهم لا يتزوجون ، او يتزوجون وينجبون اولادا كثرا . واصحاب الاسر الكبيرة ، اي التي يضم كل منها اربعة اولاد أو اكثر ، يكونون في الغالب اما من اصحاب الدخول القليلة او الثروات الضخمة . فالفئة الاولى تنظر الى الاولاد كمورد اقتصادي، والفئة الثانية تتباهى بالاولاد ، كقوة وجاه ، وبالقدرة على الانفاق عليهم .

وقد قمنا بدراسة العلاقة بين صافي ثروات المتوفين (اي المبالغ المتبقية من ثروتهم للورثة بعد اقتطاع التزامات المتوفى وديونه ونفقات دفنه) وعدد الاولاد الذين خلفوهم ، فوصلنا الى النتائج التالية :

يلاحظ في العينة الاولى ان اصحاب الدخل المحدود الذين يراوح صافي ثرواتهم بين قرش ومائة قرش ، بلغ عدد اولادهم (٥٦) ولدا وهذا اعلى رقم لمختاف فئات الثروة في حدود العينة الاولى . ويلاحظ ، من ناحية اخرى ، ان الاسر التي رزق كل منها بولد واحد بلغ عددها ، بقطع النظر عن دخلها ، أربعا وعشرين أسرة ، وهي أعلى نسبة بين الاسر على الاطلاق . مما يظهر ان الاسرة ذات الولد الواحد هي الغالبة . ويلي ذلك الاسر ذات الولدين .

العينـــة الاولـى

١١٦٣ – ١٧٥٠/١١٦٦ – ١٧٥٣

العلاقة بين صافي الثروة وعدد الاولاد لمتوفين دمشقيين

(عدد المتوفين ١١٠ خلف ٨٩ منهم اولادا)

عددالاولادفي الاسرة	مفلس	٠–١٠٠قرش	١٠١–٢٠٠	٢٠١–٤٠٠	٤٠١–٦٠٠	٦٠١–٨٠٠	٨٠١–١٠٠٠	١٠٠١–١٥٠٠	١٥٠١–مافوق	عدد الاسر حسب عدد الاولاد
بدون أولاد	١	٩	٢	٥	١	٢	–	–	١	٢١
ولد واحد	–	١٣	٤	٢	٣	٢	–	–	–	٢٤
ولدان	١	٧	٤	٤	٢	١	–	–	١	٢٠
ثلاثة اولاد	٢	٣	٥	٢	١	–	–	١	١	١٥
اربعة اولاد	٢	٣	٢	٣	٣	١	–	٣	١	١٨
خمسة اولاد	–	١	٤	–	–	–	–	–	١	٦
ستة اولاد	–	٢	–	–	–	١	–	–	١	٤
سبعة اولاد	–	–	–	–	–	–	–	١	–	١
تسعة اولاد	–	–	–	–	–	–	–	–	١	١
المجموع	١٦	٦٥	٥٥	٢٨	٢٢	١٤	–	٢٢	٢٩	٨٩

- ٢٥١ولدا متوفى

العينــة الثانيــة

١٢٣٢ – ١٢٣٥/١٨٢٠ – ١٨٢٣

(عدد المتوفين ٩٨ خلف ٨٢ منهم اولادا)

عدد الاولاد في الاسرة	مفلس	١ــ١٠٠ قرش	١٠١ــ٢٠٠	٢٠١ــ٤٠٠	٤٠١ــ٦٠٠	٦٠١ــ٨٠٠	٨٠١ــ١٠٠٠	١٠٠١ــ١٥٠٠	١٥٠١ــمافوق	عدد الاسر حسب عدد الاولاد
بدون اولاد	١	٣	٤	٣	١	١	١	—	٢	١٦
ولد واحد	١	١	٣	٤	٤	٢	—	—	٣	١٨
ولدان	٢	٥	٢	١	١	١	١	٢	٧	٢٢
ثلاثة اولاد	—	١	٢	١	٢	١	١	٤	٥	١٧
اربعة اولاد	—	—	—	٢	٤	١	١	—	٦	١٤
خمسة اولاد	—	١	—	—	—	—	١	١	٣	٦
ستة اولاد	—	—	—	١	—	—	—	—	—	١
سبعة اولاد	—	١	—	—	—	١	—	—	١	٣
احدعشر ولدا	—	—	—	—	—	—	١	—	—	١
المجموع	٥	٢٦	١٣	٢٣	٢٨	١٨	٢٥	٢١	٧٨ = ٢٣٧ ولدا	٨٢ متوفى

ويحدث تبدل جذري في العينة الثانية ، اذ يزداد عدد الاولاد في الاسر التي زاد صافي ثروة اصحابها على (١٥٠٠) قرش . ويبلغ عدد اولاد هذه الفئة (٧٨) ولـدا من أصل (٢٣٧) ، اي بنسبة ٣٢٫٩٠٪ ، في حين ان نسبة الاولاد في الاسر التي زاد صافي ثروتها على (١٥٠٠) قرش في العينة الاولى كان ١١٫٥٥٪ . وتحتل الاسر ذات الدخل الاقل (من قرش الى مائة قرش) المرتبة الثالثة من حيث عدد الاولاد ، اذ بلغ مجموعهم (٢٦) ولدا ، اي بنسبة ١٠٫٩٧٪ من مجموع عدد الاولاد ، في حيـن كانت نسبة اولاد هذه الفئة من الدخل في العينة الاولى ٢٥٫٨٩٪ ، ويطـرأ تحسن في حجم الاسرة اذ يزداد عدد الاسر التي تضم الواحدة منها ولدين وتصبح هي الغالبة، ثم تتلوها الاسر ذات الولد الواحد ، ثم ذات الثلاثة والاربعة اولاد . وتبقى اعلى نسبة بين الاسر هي تلك التي تضم من ولد الى اربعة اولاد ، وتتساوى في ذلك العينتان الاولى والثانية . ففي العينة الاولى بلغت نسبة هذه الاسر ٨٦٫٥١٪ ، وفي العينة الثانية ٨٦٫٥٨٪ . ويظهر هذا ان الغالبية العظمى من الاسر خلال سبعين عامـا لم تتجاوز حدود الولد الى اربعة أولاد .

نخلص الى القول ان ما تقدم عرضه هو محاولة لالقاء الضوء على حجم الاسرة ووسطي العمر ، وربط ذلك بالوضع الاقتصادي والصحي . ورغم ان سجلات القسام عنيت اكثر من كل شيء بمخلفات المتوفين الذين تركوا قاصرين ، ولا تشكل مسحا لجميع المتوفين ، فانها هامة جدا لانها تطلعنا على مظاهر سكانية لقطاع كبير مـن السكان ، وما يترتب عليها من نتائج شتى في مختلف الميادين . ونذكر على سبيل المثال اثر الاسرة الصغيرة الحجم بالنسبة للملكية . فقلة الافراد في الاسرة من شانه الا يفتت الملكية العقارية فتتجه هذه الى التجمع في اسر قليلة . ويصح ذلك بالنسبة للاوقاف الاهلية (الذرية) التي ينتفع بها عدد اقل من المستفيدين . واذا كان ازدياد الثروة لدى بعض الفئات في الربع الاول من القرن التاسع عشر قد نتج عنه ازدياد حجم الاسرة ، فان الكثرة من طبقات الشعب الادنى دخلا لم تبدل كثيرا في حجم الاسرة، ربما لانها بقيت تقليدية في اطرها وتقاليدها ودخلها . ولاشك ان اثر اوربا الصناعية على بلاد الشام قد زاد من الهوة الاقتصادية ، وبالتالي الاجتماعية ، بين طبقة قايلـة اصبحت تجني الثروات الضخمة من تعاملها مع أوربا ، واخرى تضم غالبية الشعب وتدفع ثمن منافسة البضائع الاوربية لمنتجاتها الحرفية . ولا شك ان هذا الوضـع كان له انكعاساته على حجم الاسرة . وقد تحسنت ، في القرن التاسع عشر ، الخدمات الصحية وطرق مكافحة الاوبئة ، واستحدثت اماكن الحجر (الكارانتينا) في مراكـز الحدود . ومن شأن ذلك أن يحد من الوفيات ويزيد من عدد السكان .

الحواشي :

١ ـ انظر المناقشة الوافية لهذه الاراء المختلفةالتي قام بها المرحوم الدكتور انطوان عبد النور في كتابه بالفرنسية (وهو طروحة دكتوراه دولةمن جامعة باريس) وعنوانه :
Introduction à l'histoire urbaine de la Syria Ottomane (XVIe-XVIIe siècle), Beyrouth, 1982, pp. 41-56.

٢ ـ المصدر السابق ، ص ٥٧ ـ ٦٠ .

٣ ـ محمد بن جمعة ، الباشات والقضاة ، نشرهالدكتور صلاح الدين المنجد في كتابه : ولاة دمشق في العهد العثماني ، دمشق ، ١٩٥٩ ، ص ٦٥ .

٤ ـ انظر حول ذلك : الشيخ محمد احمد دهمان ، « زلزل سنة ١١٧٣ هجرية » ، مجلة المشرق ، المجلد ٤٢ (١٩٤٨) . ص ٣٣٣ ـ ٣٤٧ . وانظر ايضاسيد رسلان القاري ، الوزراء الذين حكموا دمشق نشره الدكتور صلاح الدين المنجد في كتابه :ولاة دمشق في العهد العثماني ، دمشق ، ١٩٥٩ ، ص ٨٢ .

٥ ـ رسلان القاري ، ص ٨٣ .

٦ ـ قدر الاخباري الدمشقي المعاصر للطاعونالخوري ميخائيل بريك أن الطاعون دام حوالي ستة اشهر انظر كتابه : تاريخ الشام ، ١٧٢٠ ـ ١٧٨٢ ،نشره قسطنطين الباشا ، حريصا ، ١٩٣٠ ، ص٧٠ . وانظر تفاصيل اخرى عن هذا الطاعون مستقاةمن مراسلات القناصل الاجانب في بلاد الشام وغيرها، في كتابنا :
The Province of Damascus, 1723-1783, Beirut, 2nd printing (paperback), 1970, pp. 232-233.

٧ ـ احمد البديري الحلاق ، حوادث دمشق اليومية ، نشره الدكتور احمد عزت عبد الكريم ،القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٢٢٨ .

٨ ـ انظر المقال التالي :
Daniel Panzanc , « L'Affrontement Turco - Egyptienne de 1830 - 1840 », **Economie et Société dans l'Empire Ottoman (fin du XVIIIe-début du XXe siècle)**, publié par Jean-Louis Bacqué-Grammont et Paul Dumont, CNRS, Paris, 1983, pp. 232-233.

٩ ـ انظر تفاصيل هذا الاحصاء في مقال :

Kemal Karpat, «Ottoman Population Records and the Census of 1881/82-1893», **International Journal of Middle Eastern Studies**, Vol. 9, No. 2 (1978), pp. 258-274.

١٠ـ انظر مثلا : السجلات التالية : رقم ٢٣ ص١ ،رقم ٢٤ ص ١ ، رقم ٤٠ ، ص ١ ، رقم ٤١ ص ١ .

١١ـ انظر : محمد الامين المحبي ، خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر ، ٤ اجزاء ، القاهرة ، ١٩٦٩/١٢٨٤ ، ج ١ ، ص ٢٤٦ ، ٣١٧ ، ج٤ ، ١٤٣ ، محمد خليل المرادي ، سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر ، ٤ اجزاء ، بولاق١٣٠١ ، ج ١ ، ٦٣ ، ١٨٧ ، ٢٥٤ ، ج ٢ ، ٢٨١ ـ ٢٨٢ ، ج ٤ ، ١٠٢ .

١٢ـ انظر سجل القسام ، رقم ١٣١ .

١٣ـ انظر سجل القسام ، رقم ٣٩٠ .

١٤ـ انظر تفاصيل ضافية عن هذا الهجوم في كتابنا :

The Province of Damascus, pp. 260-282.

١٥ ـ انظر حول اوضاع دمشق الاقتصادية في هذه الفترة : تاريخ حسن اغا العبد ، حققه يوسف جميل نعيسة ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٧٩ .

١٦ـ انظر حول توقف قافلة الحج بسبب تلك الاخطار ، تاريخ حسن اغا العبد ، ص ١٣٢ ، ١٤٣ ـ ١٤٤ . وانظر حول توغل القوات الوهابية في بلاد الشام ، المصدر السابق ، ص ١٤٩ ـ ١٥١ .

١٧ـ انظر : محمد راغب الطباخ ، اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، ٧ اجزاء ، حلب ، ١٣٤٢ ـ ١٣٤٥ /١٩٢٣ ـ ١٩٢٦ ، ج ٣ ، ص ٣٧٠ ـ ٣٧٤ . وانظر : تاريخ حسن اغا العبد ، ص ٦٣ ـ ٦٤ . وانظر كتابنا : العرب والعثمانيون ، ١٥١٦ ـ١٩١٦ ، دمشق ، ١٩٧٤ ، ص ٣١٨ ـ ٣٢٠ . وانظر الدراسة الضافية حول صراع الانكشارية والاشراف في حلب في كتاب :

Herbert L. Bodman, Jr., **Political Factions in Aleppo, 1760-1826**, North Carolina Press, 1963, pp. 79-102.

* * *

نداءُ عالمي
لإنقاذ آثار حوض الخابور الأوسط

اصدرت وزارة الثقافة والارشاد القومي في الجمهورية العربية السورية ـ المديرية العامة للآثار والمتاحف ـ النداء التالي :

تقوم السلطات المختصة في الجمهورية العربية السورية بانشاء سد كبير على نهر الخابور جنوبي مدينة الحسكة في سبيل رفع مستوى منطقة الجزيرة السورية من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والانسانية . وسيشكل هذا السد عند انجازه في عام ١٩٨٨ بحيرة اصطناعية على منسوب + ٣٠٠ م بطول ٣٥ كم وعرض وسطي ٥ كم تغمر قرابة ثلاثين موقعا اثريا مختلف الاهمية .

وقد أوضح المسح الاثري الاولي في المنطقة أن عهود هذه المواقع تتراوح بين طور تل حلف في الالف الخامس قبل الميلاد حتى العهد العربي الاسلامي . ومن المؤكد أن التحريات الادق ستوضح مستقبلا آثار العصر الحجري الحديث وغيره .

ان الآثاريين وعلماء اللغات القديمة والاتنولوجيين وغيرهم من مختلف الاختصاصات يرون في انشاء هذا السد مناسبة لالقاء الاضواء الساطعة على هذه المنطقة الرئيسية من « الجزيرة » التي كانت في العصور الاكادية والآشورية والبابلية القديمة مركزا ناشطا في اقتصاد بلاد الهلال الخصيب واصبحت خلال الالف الاول ق.م. من المقاطعات الآشورية بعد اخضاع الدويلات الآرامية في هذه المنطقة التي كانت قائمة منذ نهاية الالف الثاني ق.م .

وأظهرت الدراسات الاولية في أسماء المدن المكتشفة امكانية تحقيق هوية مدائن أخرى من العهود القديمة في هذا الجزء من الخابور نظرا لوقوعه على شبكة مواصلات وقنوات مياه هامة .

وفي العهود اليونانية ـ الرومانية لعبت هذه البقاع دورا استراتيجيا حاسما في صراع الشرق والغرب حتى اذا جاء الاسلام ووحدت دولة العرب أجزاء العالم القديم كلها كانت الجزيرة السورية وخاصة حوض الخابور من مواطن الخير العميم والصراع المصيري بين العرب والبيزنطيين ثم الصليبيين .

ان المواقع المهددة بالغمر قد لا تكون اطلالا اثرية ظاهرة تحتاج للنقل أو التقوية أو الحماية ولكنها في الغالب من الحالات هي تلال على ضفاف النهر تدل مقاطعها الستراتيغرافية على غنى بالشواهد الاثرية الكثيرة التي قد تنبئنا بما سكتت عنه النصوص والروايات .

والسلطة الاثرية اذ تدعو للاسهام في تلك الحملة العالمية ستقدم للبعثات التي تلبي الدعوة كل التسهيلات والمؤازرة التي تقدمها للبعثات الاجنبية العاملة حاليا في اراضي الجمهورية العربية السورية والتي يتجاوز عددها الثلاثين . وفضلا عن ذلك انها تسعى لدى المراجع العليا في البلاد لاستصدار الصكوك القانونية اللازمة لمنح البعثات بعض الاثار المكتشفة كما تم سابقا في حملة انقاذ آثار الفرات في السبعينات . ويمكن للؤسسات العلمية والاثرية الراغبة في الاسهام ، الاتصال مباشرة بالمديرية العامة للآثار والمتاحف (دمشق – سورية) . للحصول على المزيد من التفصيلات ... علما بأن العمل ببناء السد سيبدأ في النصف الثاني من عام ١٩٨٤ وينتهي خلال عام ١٩٨٧ وهي الفترة التي يمكن ممارسة التنقيب الاثري خلالها .

المدير العام للآثار والمتاحف

– مخطط لمنطقة غمر السد

١ – تل رد شقرا ٢ – تل كرما ٣ – تل مطار ٤ – تل رجائي ٥ – تل جابي
٦ – تل جديدى ٧ – تل خوين ٨ – تل تنينير ٩ – تل زيدية ١٠ – تل ناجة
١١ – تل ميليبيا ١٢ – تل شيخ عثمان ١٣ – تل ام قصير ١٤ – تل حسن
١٥ – تل بويض ١٦ – تل البديري ١٧ – تل مسيحة ١٨ – تل النهاب
١٩ – تل النهاب الجنوبي ٢٠ – تل صور ٢١ – تل كنيدج ٢٢ – تل دكاك
٢٣ – تل تعبان ٢٤ – تل دغيرات شمالي ٢٥ – تل ذهب ٢٦ – تل دغيرات
٢٧ – تل مطرية ٢٨ – تل مشنقة شمالي ٢٩ – تل مشنقة غربي ٣٠ – تل مشنقة
٣١ – تل فليتي ٣٢ – تل مقبرة فليتي ٣٣ – تل تليلات .

المجتمع الأندلسي، والمجتمع الإسباني
في عصر ملوك الطوائف

د. أحمد بدر

جامعة دمشق

استمرت الوحدة السياسية في الاندلس ثلاثة قرون ، منذ فتحها في أواخر القرن الاول الهجري وحتى اخر القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي . وزادت في القرن الاخير مركزية الحكم والادارة ، وبلغت الاندلس اوج قوتها وازدهارها ، فاصبحت دويلات الشمال الاسبانية تدور في فلكها ، وقرابة نصف المغرب العربي الاسلامي يخضع لنفوذها المباشر في قسم منه ، وغير المباشر في القسم الاخر . وارتقت بنتيجة قوتها السياسية وازدهارها الحضاري الى مرتبة الدول الاولى في العالم .

انهارت هذه الوحدة السياسية في خضم ما سمي بالفتنة ، وكانت عبارة عن ربع قرن من الحرب الاهلية ، التي جرت بالعاصمة قرطبة بين عناصر متعددة من المجتمع الاندلسي ، حاول فيها كل عنصر تنصيب شخص من الاسرة الاموية على سدة عرش الخلافة ، كي يحكم الاندلس به ومن ورائه . لكن الفشل حاق بالجميع ، فقنعت كل قوة بالاكتفاء بحكم منطقة من الاندلس تتوافر لها فيها القوة . كما ان حرب المركز ادت لانحلال سلطة سلطانه واستقلال القوة المحلية عنه . ودعيت الدويلات هذه باسم الطوائف التي تعني الزمر والفئات والاشتات ، دون ان يكون لها صلة بمذاهب فكرية او فرق دينية او مذهبية .

* * *

ومن الصعب تحديد عدد الدويلات التي نشات لان الانحلال كان عاما وشاملا ، والتمزق كان شديدا . فقد قامت اسر اقطاعية قديمة بالاستقلال في مناطقها ، كما هو حال بني نجيب وبني هود في الثغر الاعلى منطقة سرقسطة ، وبني ذي النون في الثغر الاوسط ، طليطلة وماحولها ، وبني الاقطس المكناسيين في الثغر الادنى بطليوس . وقام الجند والعبيد الصقالبة بانشاء دول عديدة لهم في شرق الاندلس :

في دانية والجزر ، في بلنسية وفي المرية ومرسية . أما الجند المغاربة ، أو من سماه الاندلسيون بالبربر ، فاقاموا عدة دول في الجنوب ، اكبرها دولة بني زيري في غرناطة . معتمدة على عصبية العشيرة الزيرية ، وتليها دولة بني برزال في قرمونة بين قرطبة واشبيلية ، اضافة لعدة دويلات اصغر في الجنوب والجنوب الغربي من الاندلس . اما في الحاضرتين الكبيرتين على نهر الكبير الشمالي ، فاقامت الارستقراطية العربية دولة بني عباد في اشبيلية ، وعلى رأسها قاضي المدينة وكبير اغنيائها ، وفي قرطبة عاصمة الخلافة اقامت ارستقراطية الوظيفة ، أو طبقة موالي الامويين ، دولة ترأسها ابن جهور . اضافة لهؤلاء الذين سادوا مناطق توفر دعامة مادية وبشرية لقيام دولة استقل العشرات من الاشخاص الصعاليك ، او من سماهم الاندلسيون بالدابرة ، بحكم بلد صغير او حتى حصن ، ولكن هؤلاء لم يلبثوا ان ابتلعوا من قبل الدول الاكبر المجاورة ، التي استطاعت ان تعيش العصر كله ، وهو ثلاثة ارباع القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي . اما عدد السكان الذين تقاسم السلطان عليهم ملوك الطوائف فلا يمكن معرفته على وجه الدقة اووجه اليقين . وان كان من المفيد هنا ذكر أحد التقديرات عند الباحث الاسباني رامون مينديث بيدال ، الذي يبنيها على رسالة موجهة من البابا غريغوريوس السابع لالفونسو السادس غازي طليطلة ، ينعته فيها بانه صاحب رعية من مليون رجل ، ويخلص في تقديره الى ان عدد سكان الجزيرة الايبيرية كلهم يصل الى مابين ثمانية وتسعة ملايين نسمة منهم ستة يخضعون لملوك الطوائف . ومع ذلك قدر للعدد الاقل ان يتغلب على العدد الاكثر ، الذي كان يعاني من تفكك وتمزق على صعد مختلفة ، اضافة لشيوع انحطاط معنوي في مجالي العقيدة والاخلاق في قطاعات واسعة من ابنائه . وتتبين لنا الابعاد الدقيقة لهذه الاوضاع التي كانت سبب قوة للبعض ، وعامل ضعف للبعض الاخر ، اذا استعرضنا اوضاع المجتمعين : العربي الاسلامي من جهة ، والاسباني الكاثوليكي من جهة ثانية ، عبر المجالات المختلفة .

السلطة في مجتمع الطوائف – بين الاساس النظري والواقع الفعلي .

وفقا لما ترسخ في العقول وقر في النفوس بالاندلس ، من ان مصدر السلطة هو الله عز وجل ، مارسها الرسول الكريم ، وخلفه خلفاؤه في حراسة الدين وسياسة الدنيا ، وهم امراء للمؤمنين ، وعن ثالثهم عثمان بن عفان انتقلت الى معاوية لتتسلسل في الامويين في المشرق حتى مروان بن محمد ، ومنه انتقلت الى عبد الرحمن الداخل في الاندلس ، وتوارثها بعده الامراء والخلفاء الامويون حتى هشام المؤيد بالله ، والذي حدثت الفتنة في عهده واعلن موته خلالها اكثر من مرة .

حاول اغلب حكام الطوائف ، من الجيل الاول ، الاعتماد على اساس شرعي في حكمهم ، فلم يتخذوا القابا سلطانية واكتفوا بالقابهم السابقة ، كلقب القاضي ، او اتخذوا لقب حاجب وادعوا انهم يحكمون باسم خليفة ، كما فعل زعماء المغاربة من بني زيري حين بايعوا خليفة مغربيا من بني حمود وادعوا ان هشاما المؤيد ، اخر الخلفاء الامويين ، تنازل له . ورد خصومهم العباديون من العرب الاندلسيين ،بالادعاء بان هشاما المؤيد حي وانهم عثروا عليه وبايعوه . لكن اخرين مثل اسماعيل بن ذي النون صاحب طليطلة ، لم يعترف بامامة الامويين قائلا : « والله لو نازعني هذا السلطان الصديق لقاتلته عليه ، فكيف اسلم سلطاني لمن يدعى اليه من بني امية ممن لا يوجب الله طاعتهم ، عترة مروان خبط باطل ، الذين لم تسبق لهم صحبة ولا ادخلهم السلف في شورى الامامة » ثم نفى فكرة حصر الخلافة بقريش قائلا : « توارثوا هذه هذه الامامة ممزقة وصنعتها قريش لاستعباد الناس ، والناس لام واب والفخار باطل »(١) ثم تجاوز هذه الفكرة ليقول بعدم وجود اساس شرعي للسلطة وانها مبنية على القوة وذلك بقوله « أحق الناس بالملك من استقل به ، والله لو نازعنيه فلان وفلان (ذكر هنا اسماء بعض السلف الصالح الذين كرم الله ذكرهم) لضربتهم دونه بسيفي » .

ساد هذا الوضع تجاه النظرة للسلطة حتى أواسط القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، اي عدة عقود من السنين . واتى بعد ذلك جيل اخر من ملوك الطوائف رأى ان يحكم دون غطاء شرعي أو واجهة ، حتى ان ملكي الدولتين الحاميتين للخلفاء من أمويين وحموديين ، قاما بعملية الغاء الخلافة فاعلن ابن عباد موت هشام ، وقضى باديس الحمودي على اخر الحموديين ، واستخلص منه قاعدته مدينة مالقة(٢) . واصبحت نظرية اسماعيل بن ذي النون القائلة « احق الناس بالملك من استقل به » هي السائدة ، وعبرت القاب ملوك الطوائف انذاك عن هذا الواقع الجديد اذ كانت كألقاب الخلفاء العظام ، وخاصة العباسيين ، مثل منصور ومامون ومعتضد ومعتمد ومتوكل . وزاد البعض على ذلك فلم يعد يكتفي بلقب واحد بل تعداه الى لقبين ، وهو امر لم تكن له سابقة ، الا من الخليفة الاندلسي الاول عبد الرحمن الثالث ، موحد الاندلس وباسط سلطانها على شمال شبه الجزيرة الايبيرية ، واجزاء واسعة من المغرب ، الذي تسمى بلقبين ، لكنه تعفف عن استخدامهما معا في الداخل ، فاكتفى بلقب الناصر ، بينما كانت كتبه الخارجية تضيف اليه لقب القائم ايضا .(٣) اما ملوك الطوائف فقد استخدموا اللقبين معا في الداخل وضربوهما على النقد . وهكذا لقب يحي بن ذي النون ملك طليطلة نفسه « المامون ذو المجدين » ولقب محمد ابن عباد ملك اشبيلية نفسه

« المعتمد على الله ، المؤيد بالله » لكن احدا من ملوك الطوائف لم يتجرأ على تقلد لقب الخلفاء الشرعيين الرسمي وهو امير المؤمنين ومع ذلك فقد راى الكثيرون من الناس ان القابهم التي اتخذوها وهي القاب خلفاء عظام ، اكبر منهم بكثير . وبالتالي فهم صغار ينفخون انفسهم ليصبحوا كبارا . وقد عبر عن ذلك احد الشعراء بالقول :

مما يزهدني في ارض اندلس — اسماء معتضد فيها ومعتمد
القاب مملكة في غير دولتها — كالهر يحكي انتفاخا صولة الاسد

سلطة ملوك الطوائف في واقعها الفعلي

مهما يكن من شأن الاساس النظري لسلطة ملوك الطوائف ، فانهم مارسوا هذه السلطة فعليا ، واستبدوا بها الى حد يمككننا من اعتبارها مطلقة ، وذلك منذ الايام الاولى لنشوء دولتهم ، ومن ناحية اخرى اعتبروا دولهم ملكا شخصيا لهم يورثونه بمشيئتهم كتوريثهم العقارات والاملاك الخاصة ، كما فعل سليمان ابن هود في الثغر الاعلى ، عندما قسم مملكته بين اولاده الخمسة.وعلى شاكلته ورث المظفر ابن الافطس حاضرتي دولته بطليوس ويابرة الى ولديه ، فاختص كل منهما بواحدة . ومثله ايضا فعل باديس فخص حفيدا له بعاصمته غرناطة ، وحفيدا اخر بمالقة . وحتى عندما كانت الدولة مدينة واحدة كقرطبة حصل التقسيم ايضا ، ولكن بمهام الدولة ، فقسم ابو الوليد جهور نواحي ادارتها بين ولديه . وعندما لا يفعل الملك ذلك كان ورثته يعتقدون ان من حقهم الاقتسام ، كما حصل عندما سمى اسماعيل ابن ذي النون خلفا واحدا له، وهو يحيى المامون فنازعه على الامر عمه واخوه . وربما كان الاستثناء الوحيد لذلك دولة العباديين . حيث تم التوارث لكامل للدولة من الاب الى ابن واحد فقط .

وفي مجال الادارة لم يبدع ملوك الطوائف شيئا ولم يبتكروا جديدا ، بل ساروا على نمط الادارة الموروثة من عصر الخلافة . ومع ذلك لم يتقنها منهم الا البعض ممن مارسوها سابقا في عهد الخلفاء ، كبني عباد وبني جهور . وما عدا هؤلاء ، كان بعض الملوك غفلا من كل معرفة ، فاستعانوا باداريين متفقهين في الادارة الاموية كي يشرفوا على تنظيم ادارتهم ، وهذا ما فعله العبد سابور حاكم بطليوس ، والعبدان مبارك والمظفر حاكما بلنسية ، وكانت هذه الادارة مرتبطة بالامير مباشرة ، الا في الدول التي سيطرت فيها قوة عشائرية غريبة على حواضر كبرى . فقد جعل بنو ذي النون ادارة طليطلة بيد فقهاء كبار منها كابن الحديدي

وابن الفرج وترك الفتيان الصقالبة ادارة مرسية لفقيهها ابن طاهر . اما غرناطة عاصمة بني زيري الصنهاجيين ، والتي كانت نسبة كبيرة من سكانها من اليهود ، فقد عهد بشؤونها خلال امد طويل لاب ثم لابنه من هؤلاء . وعندما ضم الزيريون لدولتهم الحاضرة الكبيرة ايضا مالقة ، جعلت رسميا تحت سيادة بلقين ابن ملك الدولة . لكنه قام بناء على توصية والده باسناد شؤونها الى فقيه منها هو محمد ابن الحسن النباهي ، الذي اعتبر وزيرا وقاضيا ، ومنح امتيازات مالية وردت في كتاب رسمي جاء فيه « هذا ما التزمه واعتقد العمل والوفاء به بلقين ابن باديس للوزير القاضي ابي عبد الله محمد بن الحسن واعتقد به اقراره على خطة القضاء والوزارة في جميع كورة رية (مالقة) وان يجري من الترفيع به ، والاكرام له ، الى اقصى غاية ، وان يجري على الحرية في جميع املاكه حاضرتها وباديتها الموروثة منه والمكتسبة ، القديمة الاكتساب والحديثة ، وما ابتاع منها من العالي (خليفة حمودي) وغيره لا يلزمها وظيف بوجه ولا يكلف عنها كلفة على حال ، وان يجري في قرابته وخوله وحاشيته وعامري ضياعه ، على المحافظة والبر والحرية »(٤) وصفوة القول ان سلطة ملوك الطوائف في الاندلس كانت تفتقد على الصعيد النظري الدعم الشرعي والمعنوي ، كما كانت تفتقر على الصعيد العملي الى اللحمة والتماسك ، ويزداد التمزق فيها والانحلال مع تقدم الزمن ، وكذلك عجزها عن كسب ولاء قطاع عريض من الناس او تثبيت ولاء القطاع الضيق ، بمن فيه ابناء الاسرة المالكة وكبار موظفيها ، كما يبدو ذلك واضحا في احوال دولتي بني عباد وبني زيري .

مصادر القوة البشرية والاقتصادية في مجتمع الطوائف

اعتمد ملوك الطوائف عند قيام دولتهم على دعم معين ، لامد قصير جدا ، وريثما تتمكن دولهم من الوقوف على قدميها ، وتباين هذا الدعم بتباين طبيعة الدولة ، وزعامتها ، فكان في بعضها مشيخة البلد ، واتباعهم فيها ، وفي بعضها الاخر عصبية العائلة او العشيرة ، وفي دول اخرى ، كدولة خيران العامري الاولى ، فلول متعددة من جند وصعاليك . لكن استبداد الملوك ، وحروبهم ضد بعضهم بعضا ، جعلهم يستبعدون هذه الدعائم ويستبدلون بها دعامة من الجند المرتزقة والعبيد .

وكان هؤلاء الجنود من عناصر متعددة ، يأتي في مقدمتها بنو برزال من زنانة ، ويكاد الاعتماد عليهم يكون عاما لدى كل الدويلات ، وخاصة في الجنوب . وقد وصف ابن حيان دورهم بقوله « فطال العجب عندنا بقرطبة وغيرها من صعاليك قليل عددهم منقطع مددهم اقتسموا قواعد الارض في وقت منا مضربين بين ملوكها ، راتعين في كلئها باقرين عن فلذتها ، حلوا محل الملح في الطعام ببأسهم الشديد ،

وقاموا مقام الفولاذ في الحديد ، فلا يقاتل الاعداء الا بهم ولا تعمر الارض الا في جوارهم : فطائفة عند ابن الافطس تقاوم اصحابها قبل ابن عباد ، وطائفة عندنا بقرطبة تحيز اهلها عن الاضداد ، فسبحان الذي اظهرهم ومكن لهم الى وقت وميعاد»(٥) ووصلت شهرتهم في الحرب والاقبال على استخدامهم ، لدرجة ان بني زيري الصنهاجيين ملوك غرناطة واصحاب الثارت مع زنانة عموما ، ومع بني برزال بوجه خاص ، في المغرب قبل الوصول الى الاندلس ، استعانوا بهم ايضا ، كما يقول الامير عبد الله الزيري « وزاد جاه النابة واستخص بني برزال واحسن اليهم وقربهم من نفسه ،وهم كانوا اولياءه وانصاره »(٦) . كما استخدم السودان من قبل الفتيان الصقالبة العامريين رغم انهم جنود ، ومن قبل الزيرين ايضا ، وكانوا اوفياء لهؤلاء الاخيرين . ففي الموقعة بين الفتى زهير صاحب المرية وبين الزيريين غدر سودان الصقلبي بسيدهم ، كما يورد صاحب الذخيرة القول : « سودان زهير غدوره اول وهلة وانقلبوا مع صنهاجة وليست بالبدع من افعالهم وكانوا قطعة خشنة يقاربون خمسمائة»(٧) وعندما هاجم العباديون مالقة ، انفرد السودان بالدفاع عن قضية سيدهم الزيري ، ولاذوا بالقصبة عند سقوط المدينة ، حيث استمروا في المقاومة ريثما وصلت امداد سيدهم(٨) . كما كان بين هؤلاء الجند مرتزقة من الاسبان او غيرهم من الاوروبيين ، وقد ورد في وصف ابن حيان لجيش ابن ذي النون الموجه لاحتلال قرطبة « اذ جمع الجيش ذا الالوف المختلفة الالسنة »(٩) وفي مكان اخر يصف اجناده بانهم « ذوو السنة شتى وبطارق اعزة يعرب عنهم التراجمة » اما الاندلسيون فقد بعد عهدهم بالجندية والجيش ، منذ ابعادهم التدريجي الذي بلغ ذروته في عهد العامريين ، ومع ذلك كانوا يحشدون في وقت الخطر الشديد وقد برز عجزهم واضحا جليا ، وقتل الالوف منهم في الحروب التي جرت بين ملوك الطوائف ، او بين بعضهم وبين الاسبان. ومن امثلة هذه الحالات ماقام به ابن الافطس بعد هزيمة له امام ابن عباد ، في صراعهما على مدينة يابرة اذ جمع لمواجهة خصمه فلول جيشه المهزوم ، واخرج معهم « كل من قدر على ركوب دابة من البياض ببلده وحشر رجال البوادي بعمله خلقا كثيرا » . لكن الهزيمة حلت بابن الافطس ثانية ولم يغن عنه هؤلاء شيئا ، وكانت الضحايا منهم كثيرة ، حتى ان راوية ثقة لابن حيان افاده بأن « بطليوس بقيت مدة خالية الدكاكين والاسواق من استئصال القتل لاهلها »(١٠) وربما نجمت كثرة القتل من كون اكثرهم غير فرسان ، وبالتالي عاجزين عن الفرار السريع ، كما فعل الجنود . وقد لقي عامة الاندلسيين مصيرا مشابها في الثغر الاعلى ، وكذلك في موقعة بطرنة على مقربة من بلنسيه ، عند مهاجمة فرناندو الاول لها .

اما اعداد هؤلاء الجند المعتمد عليهم فلا يمكن التعرف عليها بدقة في غياب

الاحصاءات ، وللتطورات التي كانت تطرأ عليها في كل دولـة ، انمـا يمكن التوصل لاستنتاجات عامة من خلال الارقام التي يوردها مؤرخون ثقات ، او رجال دولة لعدد جنود دولة ما ، وذلك في معرض الحديث عن احدى المعارك . فيذكر الامير عبد الله الزيري في معرض حديثه عن هجوم تحالف من الصقالبة والاندلسيين ضد بني قومه الزيريين ، بعدما جمعوا كل قواتهم فبلغت عدتها اربعة الاف ، وجابههم بنو زيري باقل من الف(١١) وعلى الرغم مما قد يكون في الارقام من مبالغة نحـو الاكثار من عدد الاعداء والتقليل من عدد ابناء القوم لتضخيم حجم الانتصار ، فان النتيجة بالنسبة لنا لاتتغير كثيرا ، وهي ان اكبر جيش جمع في الاندلس في الفترة الاولى لقيام دول الطوائف لايزيد عدده عن خمسة الاف . ومن الطبيعي ان يكـون عدد الجند في جيش كل طائفة من الطوائف أقل من ذلك بكثير ، حتى ان جيش ابن ذي النون الذي جهد في جمعه كي يظفر بقرطبة ، امنيته الغالية ، والذي وصفه المؤرخون المعاصرون بانه متعدد الالسنة ويحتاج الى تراجمة ليعربوا عن كلام البطارقة فيه ، هذا الجيش يمكننا تقدير عدده من ملاحظة عدد الجند المعادين الذين ما ان تكامل وصولهم للميدان ، حتى انسحب دون قتال ، وكان هؤلاء لايزيدون عن مائتي جندي من قرطبة ، رفدتهم نجدة من ابن عباد تتكون من مقدمة في ثلاثمائة فارس ، ثم جدد في اثرهم الـف فـارس(١٢) .

ويظهر ان اعداد الجند كانت تقل بمرور الزمن في عصـر الطوائف ، وخاصة لدى الدول المزقة ، كدولة بني زيري ، فالاخوان عبد الله صاحب غرناطة وافـي الحشد الاسلامي قبيل الزلاقة في ثلاثمائة فارس ، واخوه تميم مـن مالقة في نحـو مائتين(١٣) . وفي بعض الدول ذات الموارد الضعيفة ، كدولة بني جهور في قرطبة ، اضيف الى قلة العدد ، وهي مائتا جندي ، انهيار الهيكل التنظيمي للجيش ، لدرجة إن رواتبهم لم تكن مدفوعة ، ومؤنهم غير محفوظة أو مؤمنة ، كما يستفاد من ابن حيان وهو المؤرخ الثقة والشاهد العيان لذلك من داخل الدولة والذي يصف عملية حشدهم وتعبئتهم للمعركة بقوله : « فما ان تتامت عدتهم مائتي فـارس ، اكثرهم مسوقون ، حاقدون ، معوقون ، مستقصرون ، يشتري لهم القـوت من السوق مضيقا على رعيته ، ويزدلف بهم في غد ايامهم ، ويعدهم ثواب عاجل الطعن نسيئة على مستأخر النصـر » .

لذلك يمكن القول ان كثيرا مما يسمى بجيوش ملوك الطوائف كانت أقرب الى العصابات منها الى الجيوش المنظمة ، وربما كان الاستثناء الوحيد لذلك جنـد العباديين ، الذين يرتقون الى مرتبة جيش ، اذ ظهر لديهم الاختصاص فكان منهم مختصون باعمال الحصار ظهر عملهم عند احتلال شلب، فقد دخلوها عنوة بعـد

هدم سورها بالمجانيق من جهة ، ونقبه من جهة . كما كان لدى العباديين اسطولهم الحربي الذي شارك في الاعمال الحربية مثل دخول الجزيرة الخضراء وتهديد مالقة ، وفي اواخر ايام دولتهم لبوا دعوة يوسف بن تاشفين لمساعدته في احتلال سبتة بقواتهم البحرية وشاركوا بسفينة حربية ضخمة كان لها اثر كبير في اخضاع المدينة . وقد وصف ابن بسام هذه السفينة باسلوبه الادبي قائلا: « انشأ المعتمد سفينة ضاهى بها مصانع الملوك القاهرين بعد العهد بمثلها شدة اسر ، وسعة بطن وظهر ، كأنما بناها على الماء صرحا ممردا واخذ بها على الريح ميثاقا مؤكدا »(١٤) .

هذا الواقع ، للجيوش التي اعتمد عليها ملوك الطوائف في اقامة عروشهم ، اثر على الباحثين النظريين ، واخرج نظرياتهم منسجمة مع هذا الواقع . ومثال ذلك أبو بكر الطرطوش ، صاحب سراج الملوك الذي عاش في هذه الفترة ضمن دولة بني هود في الثغر الاعلى ، التي شابه حالها حال دول الطوائف الاخرى ، وتستعين بفارس اسباني هو السيد لدعم عرشها . ولابي بكر هذا نظرية في قيام الدولة وانتصارها مخالفة تماما لراي ابن خلدون ، الذي يجعلها العصبية في حين يجعل هو عامل قيام الدولة عدد الجند المسجلين في ديوانها ، ويعتبر سبب انتصارها توفر عدد من الشجعان داخل جيشها . وربما انتصر جيش بوجود ستة الى ثمانية ابطال لان كل واحد يقوم بجيش كامل(١٥) .

نتيجة لما مر ، يمكننا القول بان قوة كل دولة من دول الطوائف تتناسب مع قدرتها المالية ، لان هؤلاء المرتزقة ، كانوا يتقاضون اجورهم دنانير ذهبية ، كما يفهم مما يورده مؤرخ العصر ابن حيان في معرض حديثه على استخدام بني برزال كجند ، قائلا : « خلطوا الشر بين رؤسائها واستخرجوا ما اظهروه من دنانيرهم وخلعهم وجاحوا (استأصلوا) ذات ايديهم وعلموهم كيف تؤكل الكتف » . وربما يفسر ذلك غنى بني برزال بالذهب ، حتى انهم عندما انشأوا دولة لهم في قرمونة سكوا عملة ذهبية بوفرة ، مما جعل التعامل بها يشيع في الاندلس .

وقد توافر لكل دولة من دول الطوائف الكبيرة مورد مالي كان اساس بقائها حتى نهاية العصر . ويتمثل هذا الوارد بانتاج زراعي او معدني في الغالب ، يتحول الى مال عبر المتاجرة به ضمن دائرة اقتصاد شبه الجزيرة الايبيرية ، او بتصديره الى خارجها ، كما هو حال قطن اشبيلية وزئبق طليطلة ، وكتان غرناطة وحريرها .

وقد ادت الحروب بين هذه الدول الى اضعاف القوة الاقتصادية لبلاد

الاندلس ككل . فالحاصلات الزراعية كانت تدمر لعدة سنوات متتالية بسبب الغارات ، التي تمنع في الوقت نفسه الانتقال والمتاجرة بين المناطق ، مما اضعف الدورة التجارية داخل شبه الجزيرة ، وجعل الموانى ، التي تعتمد على التجارة الخارجية ، تشهد ازدهارا نسبيا ، بالمقارنة مع مدن الداخل . وتقدم بلنسية ودانية مثلا على ذلك ، والاوضح منه مدينة المرية ، فقد تزايد عدد سكانها الى حد جعل داخل اسواها يضيق بهم ، فتكون لها ربض واسع قام خيران العامري باحاطته بسور(١٦) ، وفي ذلك مايعكس نشاط الفعاليات الاقتصادية فيها ، والتي يرد وصفها في زمن المرابطين الذي تلا حكم الطوائف ويعتبر صادقا بالنسبة لهذه الفترة وفيه « كان بها من الصناعات كل غريبة ، وكان بها من طراز الحرير ثمانمائة طراز وتعمل بها الحلل والديباج والسقلاطون والاصبهاني والجرجاني والستور المكللة . وكانت فيما تقدم يصنع بها آلات النحاس والحديد ما لا يحد .. كما أن مراكب التجار تقصدها من الاسكندرية والشام وفيها الف فندق الا ثلاثين فندقا » .

وتوفر لدول اخرى ، كدولة بني عباد ، سبيل الاتصال التجاري ، مع السلامة النسبية للسهول الغنية ، اضافة لغناها في المواد التي تعتبر حربية . وهكذا كانت فيها منطقة الشرف التي تمتد من اشبيلية الى لبلة بطول اربعين وعرض اثني عشر ميلا ، ويجود فيها القطن الذي يعم بلاد الاندلس ويتجهز به التجار الى افريقيا وسجلماسة (بوابة تجارة الذهب) وما والاها . وكذلك الزيتون الذي يتجهز بزيته الى المغرب والمشرق برا وبحرا . وفي الدلتا التي تتشكل عند مصب نهرها تتكون جزر تربى فيها الدواب لان الكلا دائم والمكان امين من الغارات . وفي مواني اخرى ضمنها ، كمدينة شلب ، يتوفر في جبالها الخشب وفي ميناء آخر الحديد ، مما جعلها قادرة على صناعة سفن وصل عدد قطعها اخر الامر حوالي ثمانين قطعة(١٧) . وربما يكمن في هذا كله تفسير تطور هذه الدولة الى اقوى دول الطوائف ، حيث استطاعت ان تسيطر على منطقة واسعة ممتدة من الاطلسي غربا الى المتوسط شرقا .

عناصر مجتمع الطوائف وعصبياته :

تميزت في المجتمع الاندلسي ، منذ نهاية عصر الخلافة وبداية الفتنة ، ثلاثة عناصر رئيسية وهي : العنصر الاندلسي ، ويشكل الاغلبية وعامة الناس ، ثم المغاربة، أو البربر ، بفرعيهم صنهاجة وزناتة . أما العنصر الثالث فهو الصقالبة ، وعرف أفراده بالفتيان العامريين أو الفتيان الصقالبة . انقلب العنصران الاخيران في عهد الطوائف الى عنصرين حاكمين للعديد من المناطق ، وخاصة في الشرق والجنوب ، واقتصر حكم ابناء العنصر الاندلسي على بعض المناطق . وقد نشأ صدام بين هذه

العناصر منذ اواخر أيام الخلافة ، وادى إلى انهيارها في خضم الفتنة ، التي كانت مجابهة حربية فيما بينها ، ثم استمر قويا بعدها في عصر الطوائف لعدة عقود من السنين ، قبل ان يتفسخ تدريجيا داخل كل عصبية . وتكثر الشواهد والظواهر على اثر هذه العصبيات العنصرية في سلوك الجميع ، من ناحية تقارب أهلها وعملهم سويا في مواجهة العصبيات الاخرى . يبرز منها في شرق الاندلس عصبية الصقالبة المعادية للمغاربة وللعرب الاندلسيين . وقد ركز بعضهم ، قبل ان يلوا في الاندلس حكما ، على تبيان فضل عنصرهم وتفوقه ، فالف حبيب الصقلبي ، أحد فتيان الامويين ، كتابا يتعصب فيه لقومه وسماه (الاستظهار والمغالبة على من انكر فضل الصقالبة) . وتهيأ لهم خلال حكمهم او ممارستهم للسيادة ، أن يمارسوا على من حكموهم من الاندلسيين سياسة التمييز لعنصرهم ، واضطهاد الاخرين على الصعيد العملي . فكان الفتيان الصقلبيان مبارك والمظفر ، حاكما بلنسية ، حسب قول ابن حيان « يحثان الرعية بسلطانهما ، ولا يعبآن بما آذاها من كلفهما ، يقلدانها شرار العمال (الموظفين الماليين) ويستزيدان عليها في الوظائف (المغارم والضرائب) الثقال ، مع الايام والليال ، حتى لغدا كثير منهم يلبسون الجلود والحصر ويأكلون البقل والحشيش وفر اكثرهم عن قراهم ... وصارا يتخذان ما جلا عنه أهله من تلك القرى ضياعا مستخلصة ، فاذا وقع عليها اسم كبير منهم راجع أهلها راضين عنه بالاعتمال بالسهم راجين في دفاعه من الحدثان »(١٨) .

ولم يقتصر اذاهم على من وقع تحت حكمهم ، بل شجعوا هرب بني جنسهم من العبيد في المناطق الاخرى فقد « لحق بهم موالي المسلمين ومن اجناس الصقلب والافرنج والبشكنش عشيرتهم ... وانفتح على المسلمين ببلاد الأندلس أمر شديد في اباقة العبيد اذ نزع اليهم كل شريد طريد وكل عاق مشاق » .

وفي مدينة دانية وجزر الباليار ، حكم الصقلبي مجاهد العامري ، الذي اشتهر بتشجيعه للعلم والادب ، مما جمل صورته لدى بعض المؤرخين العرب المسلمين المتاخرين عن زمنه ، كالمراكشي صاحب المعجب . لكنه من ناحية التعامل مع العرب المسلمين لم يكن اخف وطأة من الحاكمين السابقين ، فقد كان ، حسب ما يقتبسه عنه ابن الخطيب : « شديد الوطأة على رعيته ، سام أهل الجزائر الخسف ، فسطا بوجوههم ورؤسائهم ، والزم قلوبهم الرهب ، لما خافهم على دولته ، بغريب من التعبد والسياسة ، حتى لقد حظر عليهم رماكهم السامية ، وكانت عمدة اموالهم ، فكتبها منعوتة ، فلا تكاد الرمكة تنبخ مهرا ، حتى يكتب على ربه بنعته ويلزمه تربيته والقيام عليه الى ان يصلح ، فيقبض منه عند ذلك ويعطى خمسة دنانير دراهم ، لا يزيد عليها في وقت ، ولا يبرأ منه ان نفق الا ببراءة من ثقته ، وقد قطع اذن رجل لقطعه اذن مهر طلب التشويه بخلقه »(١٩) .

ويزودنا الجغرافي ابن حوقل بمعلومات اضافية عن هذه الدواب التي تنبخ في الجزر ، وهي بغال من نوع خاص يختلف عن غيره لانها ، حسب قوله « تبدن وتصنع وتنجب » ، كما ان الطلب عليها كثير في مجتمع الاندلس اذ انه « قل سوق يصير اليه اهله الا على الفاره من المركوب ، ولا يعرف فيهم المشي الا اهل الصنائع والارذال » وقد يختص ركوبهم بالبغال الفره التي تجلب من جزيرة ميورقة وبها يتفاخرون ويتكاثرون . أما عن ثمنها : فيقول ابن حوقل : « ورأيت فيها غير بغل بيع بخمسمائة دينار فاما ما يبلغ المائة والمائتي دينار فأكثر من أن يحصى »(٢٠) .

وزاد مجاهد على من سبقه بتشجيع الهجوم على العرب فكريا ، اذ قرب اليه عددا من الشعوبيين . وقد عاش في بلاطة اللغوي المشهور ابن سيده ، صاحب معجم المخصص ، الذي رتبت فيه كلمات العربية على أساس الموضوعات ، وجاء عنه في سير النبلاء انه كان شعوبيا يفضل العجم على العرب . واذا كان هذا قد خدم العربية وهاجم العرب ، الا ان مجاهدا سبى صبيا صغيرا من البشكنش ، عرف بابن غرسية ، وقربه اليه واشرف على تربيته في جميع المجالات ، واعطت هذه التربية اشهر ثمرة لها ، متمثلة في رسالة له او مؤلف صغير ، عرف برسالة ابن غرسيه في الشعوبية ، التي تفتقر الى الابداع ، لانها تقتصر على ترديد أفكار الحركة الشعوبية في المشرق ، والتي ترتكز على ذكر عيوب حياة العرب في الجاهلية ، من حقارة ملبسهم وماكلهم ومسكنهم واختلاط انسابهم وافتقارهم لاي مجد سياسي أو فكري . لكن المهم فيها الدلالة على اتجاه صاحبها ، ونشر هذه الافكار بعد جمعها على نطاق واسع في الاندلس ، وقد زادت شهرة الرسالة لكثرة من رد عليها من الكتاب الاندلسيين المشهورين(٢١) .

أما الاندلسيون فكان كرههم للعصبيات الغريبة الحاكمة لهم يدفعهم للتطلع نحو سيادة حكام منهم . وأوضح مثل على ذلك مالقة ، التي خضعت للمغاربة الزيريين وابن عباد على مقربة منهم في الجزيرة ، ومع شهرته في مجال القسوة ، الا انهم كانوا ، حسب رواية الوراق « اذ جرى ذكر عباد المعتضد ارتجوا له ورفعوا أصواتهم بالثناء عليه ، هذا ما كانت اعينهم تقذى من قبح آثاره ويصك بسمعهم من هول اخباره ، ويلفح وجوههم من شرر ناره ، تشيعا لم يكن له أصل الا شؤم الحمية ولوم العصبية »(٢٢) ولم تكن عصبية باديس ضد الاندلسيين أقل من ذلك ، اذ عندما بلغه ما حصل للملك المغربي صاحب كورة تاكرنا ، من قيام احد أفراد رعيته الاندلسية عليه ، بالتواطؤ مع ابن عباد ، مما ادى الى مقتله سنة ٤٥٧ هـ ، أصبح باديس في حالة حداد من هجر شرابه والابتعاد عن ملاذه ، ودبر أمر الانتقام من الاندلسيين في بلده انتقاما وخشية من قيامهم بالشيء ذاته ، ودبر مذبحة لهم عند تجمعهم لصلاه

الجمعة(٢٣) . لكن الوزير ، الذي كان على يقين ان في العملية قصر نظر سيودي بالدولة ، دبر اتصالا سريا بالناس كي لا يأتوا في اليوم المحدد لصلاة الجمعة ، ليتجنبوا المذبحة ، ويمكن بعدها ان تهدأ ثائرة باديس ويعود الى رشده .

لكن تقدم الزمن بدويلات الطوائف وما حدث خلاله من مستجدات ، أدى الى حدوث تفسخ في كل عصبية من داخلها ودفعها للخلف في مجال الاهتمام .

وبدات بالتبلور صورة تناقض أخرى في المجتمع الاندلسي ، وهو التناقض بين الرعية والملوك ، ولعل ابرز هذه المستجدات توطد الدول ، وما يتعلق بذلك من ظروف داخلية وخارجية .

فعندما تشكلت للعصبية الواحدة دول عدة ، أصبحت مصلحة الدولة المنشأة لحساب اسرة او عشيرة او قبيلة ، تتقدم على غيرها . وهكذا لم تمنع العصبية المغربية او البربرية بني برزال من التحالف مع العباديين ، زعماء العصبية العربية ، كما ان العصبية العربية لم تمنع العباديين من الاجهاز على دويلات عرب اقحاح . واخذ تمزق العصبية يتعمق ليطال عصبية العشيرة الواحدة ، وهكذا كان المرتزقة البرزاليون عمدة جند عدة دول متصارعة متقاتلة ، اي انهم يقتلون بعضهم بعضا . وفي دولة العشيرة الزيرية بدأ الصراع بين صاحب الدولة ، الذي يريد الاستبدادبالحكم ، وبين وجوه عشيرته ، الذين يريدون البقاء شركاء له في الحكم والسلطة . ولعل المثل البارز على ضعف العصبية ، في العشيرة والاسرة ، لجوء ملوك الطوائف الى الاعتماد على أشخاص بعيدين عن سائر درجات عصبية الحاكم ، بحيث يكونون بعيدين اما دينيا ، أو موطنا . ويعبر عن هذا الاتجاه لدى ملوك الطوائف بشكل صريح الامير عبد الله ، في معرض شرحه لمبررات جده باديس في الاعتماد على ابن النغريلة اليهودي ، وذلك بقوله : « استعمله لذلك استيحاشا من غيره ، ولما كان يرى من طلب ابن عمه له (الحكم) ، ولان هذا يهودي ذمي لا تشره نفسه الى ولاية ، ولا هو اندلسي فيتقى منه ادخال داخله مع غير جنسه من السلاطين »(٢٤) . ونجد امثلة على السلوك نفسه لدى الملوك الاخرين الذين اعتمدوا على العبيد ، فقد عين ابن الافطس لثغر قلمرية الهام عبدا من عبيده يسمى (رانده) ، لم يجد بينه وبين البلد ما يصله به ويدفعه لتعريض حياته للخطر من أجله . فعندما هاجم الاسبان بلده ، اتفق معهم سرا على انتقاله اليهم مقابل الامان له ولاهله ، وانتقل الى معسكرهم ليلا، تاركا المدينة لمصيرها ولاهلها دون قائد(٢٥) .

من ناحية أخرى كان قائد جيش ابن عباد الداخل الى قرطبة يسمى محمد بن

مارتين . وكان احد قواده ، الذي تآمر مع ابنه للاطاحة به ، عبدا يسمى (النابة) هرب الى خصمه باديس عندكشف المعتضد العبادي للمؤامرة وقتل ابنه(٢٦) . وقد يكون هؤلاء المقربون من المستعربين ، المعروف ولاؤهم ، كفئة ، لملوك الاسبان ، مثل (شيشلاند Cisnando Davidez) ، الذي كان يعيش في أراضي ابن الافطس على مقربة من قلمرية ، واسره المعتضد بن عباد في احدى غاراته ، ولم يلبث ان اصبح من اقرب المقربين اليه سواء في شؤون السلم او الحرب ، الا انه لم يلبث ان هرب الى فرناندو الاول ملك ليون ،واصبح واحدا من الكونتات المحيطين به ، واستخدمه في سفاراته الى ملوك الطوائف(٢٧) .

ادى هذا التفسخ في العصبية الى بروز تناقض اجتماعي من نوع طبقي ، هو ذلك القائم بين الملوك والرعية ، وقد جمع بين عناصر كل فئة قواسم مشتركة ، كما ظهرت لديهم على التوالي مصالح مشتركة أيضا .

طبقة الملوك

طبع سلوك هذه الطبقة بطابع الانطلاق من المصلحة الذاتية دون اعتبار كبير لقيم اخرى ، من الانتماء لعصبية أو أوامر الدين ونواهيه ، بشكل دقيق . ومن هذا المنطلق دفعت الجزية لملوك الاسبان رغم التحريم الشرعي لذلك ، واهتمت باحاطة اشخاصها بهالة من التضخيم والتمجيد . ومن هنا جاء استقدامها للعلماء وسخاؤها على الشعراء .

وكذلك برز اهتمامها بالعمران ، وهو امر معروف لدى أمراء الاندلس وملوكها منذ قيام الدولة الاموية . لكن ملوك الطوائف اختلفوا عن هؤلاء في أنواع المباني ، اذ لم يعيروا اهتماما كبيرا للابنية الدينية ، كما فعل الامراء والخلفاء الذين كان من نتائج فعلهم بناء مسجد قرطبة وتوسيعه الدائم ، اضافة الى مساجد الاحياء الكثيرة. اما الان فقد حل مكان ذلك اهتمام يتناسب مع الحاجات ، وهي حماية الملك وتحقيق الترف له . وبذلك ازدهر العمران الحربي وعمران القصور . ويتمثل البناء الحربي ببناء اسوار المدن والحصون . وقد كان الاهتمام بتحصين المدن في السابق منصبا على مدن الثغور ، في حين ساد الاتجاه في عصر الخلافة نحو تهديم الموجود منها من الداخل حتى لا يحتمي به الثائرون . اما ملوك الطوائف فقام كل منهم باحاطة حاضرته باسوار ، وخاصة اذا كان ممن يتعرضون للهجوم .

كانت البداية بغرناطة ، عندما جعلها الزيريون قاعدتهم . وجدد بنوا الافطس

عام ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م سور بطليوس وجعلوه من الحجارة والكلس بعدما كان من التراب . واحاط العبدان مبارك والمظفر بلنسية بسور ، وكذلك فعل أصحاب قرمونة (٢٨) .

وبنيت ايضا الحصون باعداد كبيرة خارج المدن لاغراض الدفاع والهجوم ، ومنها ما يبنى في أماكن مناسبة لحماية طريق يؤدي الى الحاضرة ، ويزود بكميات من الغذاء ، تكفي محاربيه امدا طويلا ، كي يقاوموا الحصار الطويل ، فيقوم المهاجمون ردا على ذلك ببناء حصن في مقابل الحصن المحاصر ، كي يستطيع مقاتلتهم البقاء فيه شتاء وصيفا . وقد يبنى حصن المهاجمين كقاعدة انطلاق يشنون منها الغارات على سهول الخصم الغنية ، كما فعل العباديون عندما بنوا حصن بليش ، على بعد بريد من غرناطة . وقام الزيريون خلال مهاجمتهم لبني صمادح ببناء سبعة حصون . ومن ناحية ثانية ساد اتجاه اخر لبناء وتحسين القصبات ، التي تقام في مكان مرتفع داخل المدينة وبجوارها ، وفي هذه الفترة اشتهر العمل في قصبة المرية . ومن المعلوم أن القصبات مقر للحكم ، وبالتالي فقد أصبحت ضرورية للصمود في وجه ايه انتفاضة داخل المدينة .

أما بناء القصور ، فان الحديث عن نشاط ملوك الطوائف في هذا الميدان يحتل مساحات أوسع على صفحات كتب المؤرخين المعاصرين . فالقصر علامة من علامات السلطان والسيادة ، ومن البدهي ان يكون لكل ملك قصر على الاقل . لكن المؤرخين اهتموا بوصف ما بدا لهم من القصور رائعا ومتميزا ، ولذلك تتكرر في اوصافهم عبارات تنم عن ذلك ، مثل « تحار فيه الابصار » و « ما لا يقدر واصف على وصفه » . ومن الامثلة على ذلك ، ما بناه ابو يحي محمد بن معن بن صمادح ملك المرية ، اذ بنى في مدينته قصرا كبيرا ما بين الجبل والشاطىء ، احتوى على بستان فيه من جميع الثمار وغريبها ، وعدة دور يشرف الجالس في بعضها على الميناء ويشهد السفن غادية وآتية ، وكل منها يسمى مجلس أفخمها دار الحكم . أما العناصر المعمارية فيه فالارض من الرخام ، والاقواس مقرنصة والنقوش والزخرفة استخدمت فيها المواد الثمينة ، ومن ضمنها الذهب الخالص(٢٩) . ولعل أكمل الصور التي يوردها المؤرخون دلالة على البذخ في التزيينات المعمارية لدى ملوك الطوائف ، صورة المجلس المكرم في قصر المأمون بن ذي النون ، الذي يقدمها لنا ابن حيان نقلا عن أحد اصدقائه من الادباء ، الذين حضروا حفلا في القصر ، ثم استقبلهم الملك في هذا المجلس . ومما يقوله هذا الاديب ، ان لهذا المجلس ازار من المرمر خرمت في جثمانه صور البهائم واطيار واشجار ذات ثمار ، ثم يلي هذا الازار نحو الاعلى ازار اخر من التزيينات

الكتابية ، وهي عبارة عن اشعار في مدح المأمون . أما الازار الاعلى فكان من نفيس الزجاج الملون ، وقد وضعت عليه أشكال حيوان واطيار واشجار فوق أرضية من الذهب . وبهذه الدار بحيرتان نصبت على أركانهما تماثيل أسود مصنوعة من الذهب ، ينساب الماء من افواهها الى حوض رخام محفور عليه صور احياء ، من حيوان واشجار ، وغرست في كل حوض شجرة فضة يترقى الماء فيها ثم ينصب من رؤوس الاغصان الصغرى على شكل رذاذ المطر او رشاش التندية ، أما بقيته فتتدفق من ذروة الشجرة على شكل شلال(٣٠) .

واحتوت هذه القصور المترفة في تزييناتها ، على تحف ونفائس لا علاقة لها بالبناء ، واهمها تلك النفائس المصنوعة من المعادن والمواد الثمينة ، ومنها الانية الثمينة ، وتكثر الامثلة على النوع الاول عند المعتمد بن عباد ، عند الحديث عن وصف الشعراء لهذه الطرائف الملوكية ، مثل وصف فيل الفضة الذي يقذف الماء على البركة ، وتمثال لحجل من البلور ، عيناه ياقوتتان ، وقد ملىء بنفائس الدر(٣١) .

وكانت الانية من المعدن الثمين مبثوثة في القصور ، وقد سخر المأمون بن يحي ابن ذي النون من ترك والده لاكوام الفضة التي كان يملكها ، والتي ملأت مجلسا بكامله ، على شكل نقر (قطع) . وعندما عرض الفقهاء حوله صواب رأي أبيه من انه اتخذها كذلك للاستعانة بها عند الحاجة ، وانها ان صيغت واصبحت تحفا يراها الجميع ويزيد الملك الاسباني طمعا بها ، لم يقتنع برايهم ، ونفذ ما يريد ، فجعلها صنوفا كثيرة « من الحلية الرائعة والآنية الفائقة ، اذ لا معنى في ابقائها نقر ، لانها تكون بالحجارة أشبه منها بآلات الامارة »(٣٢) .

شابه هذا البذخ في زخرفة البناء واتخاذ التحف النفيسة ، البذخ في النفقة داخل القصور أيضا . وقد اشتهر تحقيق المعتمد بن عباد للرميكية نزوتها بأن تحيا مرة ثانية ، ولأمد ، شيئا من حياتها السابقة ، فتسيخ قدماها في الطين عندما تملأ جرتها ، فأعاد خلق الجو لها ، لكنه جعل الطين من معجون الكافور والعنبر . ولم يكن ابن ذى النون بأقل منه بذخا في الحفلات ، ويكفي وصف مراحل غسل اليدين بعد الاكل ، في الحفل الذي أقامه بمناسبة اعذار حفيده ، « ولما فرغت تلك الطائفة ، جيء بهم الى المجلس المرسوم لوضوئهم ، وقد فرش ايضا بوطاء الوشي المرقوم بالذهب وعلقت فيه ستور مثقلة متماثلة ، فأخذوا مجلسهم فيه ، وناولهم الوصفاء الطائفون بهم رفيع النقاوات والذرائر المطيبات في الاقداح والاشناندانات الفضيات المحكمة الصناعات ، ثم ادني اليهم اثر ذلك الوضوء في اباريق الفضة المحكمة الصنعة ، يصبون على ايديهم في طسوس الفضة المماثلة .. فاستوعبوا الوضوء ،

وادنيت من ايديهم مناديل تتضاءل لها ما عليهم من سني الكسوة . ثم نقلوا الى مجلس التطييب ، فشرع في تطييبهم من مجاهر الفضة البديعة بفلق العود الهندي ، المشوبة بقطع العنبر الفستقي ، بعد ان نديت اعراض ثيابهم بشآبيب الورد الجوري ، يصب فوق رؤوسهم من اواني الزجاج المجدود وفياشات البلور المحفورة ، ثم ادني اليهم قوارير المها المحكمة الصنعة ، الرائقة الهيئة ، قد اترعت بالغوالي الذاكية ، النامة بسرها قبل الخبرة ، المتخذة من خالص المسك التبتي ، ومحض العنبر المغربي ، لاءم بينهما رشح البان البرمكي »(٣٣) .

هذا البذخ والترف ، اضافة لسد الضرورات في البناء الحربي ، وتهيئة المال لشراء العبيد واستئجار الجند ودفع الجزية للامراء الاسبان ، احتاج الى مبالغ كبيرة من المال فرضت على الرعية ، التي كانت تنكب بين الحين والحين بالغارات ، وما يتبعها من انتساف زروع ونهب مواش . وكان ما يفرض على الرعية يتخذ أشكالا شتى من الضرائب والمغارم يعددها ابن حزم بعد مقارنتها بما كان الناس يدفعونه سابقا بقوله « والمغارم التي كان يقبضها السلاطين ، فانما كانت على الارضين خاصة فكانت تقرب مما فرض عمر على الارض . وأما اليوم فانما هي جزية على رؤوس المسلمين يسمونها بالقطيعة ، ويؤدونها مشاهرة ، وضريبة على اموالهم من الغنم والبقر والدواب والنحل ، يرسم على كل رأس ، وعلى كل خلية شيء ما . وقبالات ما يؤدى على كل ما يباع في الاسواق » . واضاف ملوك الطوائف شيئا اخر ، وهو احتكارهم للبضائع الثمينة في كل بلد ، كقيام زيري غرناطة باحتكار نسبة من انتاج الكتان ، المادة الثمينة ، وقيام الصقالبة في دولة دانية والجزر باحتكار انواع من الدواب .

ويبدو وكأن الاحتكار قد شمل كل ما هو ثمين ولدى الدول كلها ، ففي مدينة شنترين الخاضعة لابن الافطس تنسج حلل غالية الثمن ونادرة ، وقد أحاطها الاهالي بأسطورة تقول : « ان دابة تخرج من البحر هناك وتحتك بحجارة على ساحل البحر ، فيسقط منها وبرة على لون الذهب وليس الخز ، وهي قليلة عزيزة جدا ، فيجمعها الناس وتنسج منها الثياب وتزيد قيمة الثوب منها على الف دينار لحسنه وعزته » لكن الملوك يحجرون عليها ولا تنقل من بلادهم الا بالخفية(٣٤) .

الرعيــة :

يعتبر الجميع بعد الملوك رعية ، لان استبداد الملوك ابعد اخر الامر حتى الاقربين . وتباين وضع هذه الرعية بالنسبة للملوك ، اذ قربوا منها من تدعو الحاجة اليه ،

وارتبطت بالتالي مصلحته بمصلحتهم . ويأتي في مقدمة هؤلاء الشعراء والعلماء والمهرة في صناعات العمران والتحف والحلي . فقد عرف عن المأمون بن ذى النون البطش ، لكنه كان يقف من عريف البناء عنده موقفا أقرب الى موقف المستعطف ، فقد اظهر غيظه عندما اخلف هذا وعده بالانجاز ، ولما احضر بين يديه كتم غيظه واظهر المداراة له ، حتى قبل هذا ان ينجز المجلس المطلوب في عيد تال يجري فيه المأمون استقباله(٣٥) . وطلب العبدان مبارك والمظفر ، حسب قول ابن حيان « فاخر الاسلحة والالات ونفائس الحلي فطار اليهم عريف كل صناعة ورئيس »(٣٦) .

وكانت عطايا الملوك تساعد البعض على الخلاص من العسر ، بينما تؤمن لاخرين حياة رافهة ، فمن قدموا على العبدين السابقين مبارك والمظفر وخدموهما ، شاركوهما في الترف أيضا . واشتمل « هذا الترف على جميع اصحابهما ومن تعلق بهما من وزرائهما وكتابهما . فاحتذوا فعلهما ، في تفخيم البناء وتهافتوا منه في ترهات مضلة، وتكشفوا في اشغال متصلة ، لاهين عما كانت فيه الامة يومئذ . واتسع الخرق في عظيم ذلك الانفاق ، فمنهم من قدرت نفقته على منزله مائة الف دينار واقل منها وفوقها » . ويمثل هذا تناقضا صارخا مع وضع رعية البلد التي اصبح الحشيش والبقل مأكولا لها ، والجلود والحصر ملبسا . ولم يكن هذا الوضع قاصرا على بلنسية بل كان عاما على ما يبدو ، اذ يورد الجغرافي العذري ، وهو معاصر ، عن بلده المرية التي شهدت ازدهارا كبيرا في هذه الفترة ، انه « أحصى بمدينة المرية في تفرقة بعض الصدقات من الضعفاء وعلى يد قاضيها موسى بن أحمد المرسي ، فوجد فيها وفي أرباضها عشرون الف ضعيف »(٣٧) ، وهو رقم كبير اذا تذكرنا ان عدد سكان الاندلس وفيها عشرات المدن مثل المرية لا يزيد على خمسة الى ستة ملايين نسمة.

وتزعم سواد الناس ، أو ما تبقى من الرعية ، الفقهاء . وزعامتهم في المدن تقليدية تعود الى الفترة الاولى لقيام الدولة ، وقد كونوا الان مركز ثقل لهيمنتهم على كتل بشرية ضخمة ، خاصة وان عامة المدن قد تكاثرت بفعل الهجرة من الارياف خشية الهجمات والغارات . لذلك سعى الملوك لتقريب كبار الفقهاء ، اما بترك حكم المدينة بيدهم ، أو باعفائهم من المغارم كما مر معنا . وهذه الوسيلة في التقريب ليست فقط اتقاء لشرهم ، بل لجعل قياد العامة سلسا لينا ، وتسهيل قبولها لما يفرض عليها من مغارم ، عن طريق ايجاد المبرر الشرعي ، كما قال أحد الفقهاء للامير عبد الله « فانك لو شئت ان تأخذ من أحد درهما بغير الناموس لسمج عند الناس ، واذا اخذت الفا على وجه الحق حل لك اخذه ولم يستبشعه أحد »(٣٨) .

لكن استجلاب الجميع كان غير ممكن ، اما بسبب المنافسة بين الفقهاء ، كما حصل في طليطلة ، حيث قرب ابن الحديدي وابن الفرج ، فنفر الفقهاء من بني مغيث

وبني اللورانكي . كما ان بعض الفقهاء ، كانوا من التقى بحيث لا يسكتون على باطل ، ففي اشبيلية كان الفقيه أبو حفص عمر بن الحسن الهوزني ، أحد رجال المشيخة ، وغادر بلده بعد ذلك خشية بطش المعتضد به ، لمكانته بين الناس . فزار المشرق واخذ العلم ، واستأذن المعتضد بعد ذلك بنزول مرسية . وعندما حصلت حادثة بشتر واهتزت لها الاندلس بعث اليه برسالة يحثه على الجهاد ، فأظهر المعتضد الموافقة واستدرجه الى البلد أولا ، ثم الى القصر بعد ذلك ، حيث قتله بيديه(٣٩) . وفي سرقسطة وعظ فقيه اخر المقتدر ، بعدم جواز دفع الجزية للاسبان اعداء الدين ، فكان جزاؤه القتل ، كي يكون عبرة لغيره فلا يتطاول احد على سياسة الملوك(٤٠) . وكان جزاء البعض ممن لم يجابه مجابهة صريحة النفي ، كما فعل باديس بابن القليعي، الفقيه الغرناطي . وكذلك كان حال ابن حزم الذي سجن في عدة بلاطات ثم ابعد منها ، الا انه لم يقتل رغم هجومه الصارخ على ملوك الطوائف ، حتى انه جعل منهم كفرة ، اذ انه ، بعد عرضه للمغارم التي يفرضونها ، يقول : يقدمون ايضا « على اباحة بيع الخمر من المسلمين في بعض البلاد ، وهذا كله ما يقبض المتغلبون اليوم ، وهذا هو هتك الاستار ونقض شرائع الاسلام وحل عراه عروة عروة ، واحداث دين جديد والنحل من الله عز وجل » . وفي مكان آخر يأتي تكفيره لهم علنا « ان كل مدبر مدينة ، او حصن في شيء من اندلسنا هذه اولها عن آخرها ، يحارب الله تعالى ورسوله وساع في الارض بفساد ، والذي ترونه عيانا من شنهم الغارات على اموال المسلمين من الرعية التي تكون في ملك من ضارهم واباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التي يعصون على أهلها ، ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين يسلطون اليهود على قوارع طرق المسلمين في اخذ الجزية والضريبة من اهل الاسلام معتذرون بضرورة لا تبيح ما حرمه الله ، غرضهم فيها استدامة نفاذ امرهم ونهيهم » . ويمكن للمرء ان يفترض ان نجاته من القتل كانت بسبب عدم تعرضه لملك من الملوك بالذات ، أو ربما لكونه ظاهري المذهب مخالف للاكثرية ، مما يحد من تأثير أقواله وتحريضاته . أو قد يكون لتعرض جميع الفقهاء له ومحاربتهم اياه بالكلمة لانه كفرهم ايضا ولم يكتف بتكفير الملوك ، وذلك بقوله : « فلا تغالطوا انفسكم ، ولا يغرنكم الفساق والمنتسبون الى الفقه ، اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع المزيفون لاهل الشر شرهم الناصرون لهم على فسقهم »(٤١) .

وقد يجمع هذه الاصناف من الفقهاء كونهم من وجوه الناس ، اما من كانوا من الضعفاء فمنهم من غادر الى المغرب حيث قويت دولة المرابطين ، وهي دولة فقهاء تساس امورها حسب الشرع ، مثل عبد الرحمن بن اسباط وكان فقيرا « يتحرف بالنسخ ولم يكن حسن الخط ولا فصيحا ، وعندما ارتقت حاله قليلا أصبح أحد الكتاب في باب الديوان بالمرية ومن هذا العمل انتقل الى المغرب ودخل في خدمة المرابطين»(٤٢).

ومنهم من كان طامحا للشهرة والمال فسلك درب الموالاة للملوك انما في ثوب واعظ ، والمثل الكبير على هذا الطراز من الفقهاء هو سليمان بن خلف الباجي ، الذي كان فقيرا لكنه سافر للمشرق طلبا للعلم ، حيث عمل ببغداد حارس درب ، وكان يستفيد باجارته على نفقته وبضوئه على مطالعته ، ثم ورد الاندلس وهو في عسر مادي فصار يتولى ضرب ورق الذهب للغزل ، حتى انه كان يخرج لتلاميذه وفي يديه اثر المطرقة وصدأ العمل . وربما قربه الملوك بعدما ثبت لهم نفعه من خلال تصديه لابن حزم ، اذ كان عنده من الاتقان والتحقيق والمعرفة بطرق الجدل والمناظرة ما مكنه من احراج ابن حزم وفضحه في نظر المالكيين ، فقدمت له الوظائف والعطايا وتنقل بين البلاطات ، بحجة اصلاح ذات البين بين الملوك وتوحيد كلمتهم . لكن اتهام الناس له وتركيزهم على كيفية اتساع وتوفر كسبه وقبول جوائز الملوك ، يدل على اعتبار الناس له من الفقهاء الذين ضمهم الملوك الى جانبهم(٤٣) .

وبدا الامر ميئوسا منه ، وزعامة الرعية بين خاضع ومقتول او منفي أو خائف. وقد عبر المؤرخ المعاصر للاحداث ، وهو ابن حيان ، عن الوضع بما يدل على قدرته على تحليل القوى الفاعلة في الاندلس ، وشعوره باليأس ، وذلك من خلال تعليقه على سقوط بشتر « وطرق الناعى بها قرطبة في شهر رمضان فصك الاسماع واطار الافئدة ، وزلزل أرض الاندلس قاطبة ، وصار للناس شغلا تسكعوا في التحدث به والسؤال عنه والتصور لحلول مثله اياما ، ولم يفارقوا ذلك عادتهم من استبعاد الوجل ، والاغترار بالاجل والاستناد الى امراء الفرقة الهمل ، الذين هم بين فشل ووكل ، فيصدوهم عن سواء السبيل ويلبسون عليهم واضح الدليل . ولم تزل آفة الناس منذ خلقوا في صنفين منهم ، هم كالملح فيهم : الامراء والفقهاء ... بصلاحهم يصلحون وبفسادهم يردون ، فقد خص الله سبحانه هذا القرن الذي نحن فيه من اعوجاج هذين الصنفين لدينا بما لا كفاء له ولا مخلص منه . فالامراء القاسطون قد نكبوا عن نهج الطريق زيادا عن الجماعة وجريا الى الفرقة . والفقهاء ائمتهم صموت عنهم ، صدف عما أكده الله عليهم من التبيين لهم ، قد أصبحوا بين آكل من حلوائهم وخابط في أهوائهم وبين مستشعر مخافتهم اخذ بالتقية في صدقهم . فما القول في أرض فسد ملحها الذي هو المصلح لجميع اغذيتها . هل هي الا مشفية على بوارها واستئصالها »(٤٤) .

ضعف الحمية الدينية لدى قطاع واسع من الاندلسيين

رغم كون الدين رابطة تربط الجميع ، وتتجاوز انقساماتهم العرقية والاجتماعية ، الا أن ضعف الحمية الدينية لدى قطاع واسع من الاندلسيين ، اضافة لملوكهم ،

افقد هذا العامل الموحد الكثير من تأثيره وفعاليته ، وكان لهذا الوضع جذوره البعيدة ، اذ أن المجتمع الأندلسي متعدد الاديان ، وكانت اعداد من بقي على دينه من الاسبان كبيرة ، لفتت نظر الرحالة ابن حوقل في الجنوب ، كما جذب انتباهه قوة شوكتهم « وبالاندلس غير ضيعة فيها الالوف من الناس لم تمدن ، وهم على دين النصرانية روم وربما عصوا في بعض الاوقات ولجأ بعضهم الى حصن فطال جهادهم ، لانهم في غاية العتو والتمرد. واذا خلعوا ربقة الطاعة صعب ردهم الا باستئصالهم »(٤٥) ومن المعروف ان لهم استقلالا داخليا ويرأسهم قوامستهم ، ومتى عصى أحد قادتهم كان يعطي شروطا متسامحة كي يعود الى ربقة الطاعة . وقد اعطي لاحدهم عهد بأن يحتفظ بكل ما لديه من مال ونساء ، وصادف أن احدى امائه كانت مسلمة وشكت الى القاضي الذي حاول ان يحكم بما يوجبه الشرع ، لكن حاجب الخليفة تدخل وطلب الحفاظ على عهد الخليفة(٤٦) .

من ناحية اخرى ، كان التسامح في التعايش واضحا في كل المجالات ، خاصة بعد ما تم الامتزاج بين الطرفين ، وبدا وكأن جزءا كبيرا من التناقض بينهما قد حل ، واصبحت تجمع بينهما لغتان مشتركتان ، العربية لغة الثقافة للجميع ، والرومانس لغة الشارع . والسيادة للامراء أو الخلفاء العرب المسلمين . كذلك كان الاختلاط في البيت كبيرا ، بسبب الزواج من الاسبانيات منذ البداية واستمرار تفضيل الجواري منهن على غيرهن من سائر أصناف الجواري . وهذا ما جعل عادات الاسبان الاجتماعية تسيطر لحد ما ، فقد كان الجميع يحتفلون بالفصح وبراس السنة الميلادية رغم مواعظ وتحذيرات الفقهاء ، كما ان التزاوج ادى ، بعد اجيال ، الى فقدان التمايز في الملامح الجسدية ، حتى ان ابن حزم يلاحظ ان الاسرة الاموية الحاكمة يغلب عليها لون الشقرة(٤٧) . ومن الطبيعي في ظل هذه الاوضاع كلها الا يتولد عند العرب الاندلسيين ، خاصة وانهم السادة ، نوع من الحمية ضد الاسبان تقوم بدور العصبية الجامعة .

وعندما انقلب ميزان القوى لم تتكون هذه العصبية ايضا ، لان الامراء الاسبان لم يدخلوا كغزاة أول الامر بل كمساعدين لفريق ضد آخر . وكان من الممكن ان يؤدي الاختلاط بالجنود الاسبان ، وما قد يقومون به من أعمال تؤذي مشاعر المسلمين ، الى اثارة حميتهم . الا ان هذا حصل في وقت كانت فيه العصبية بين اندلسيين ومغاربة تهيمن على المشاعر ، الى حد بدت معها الحمية الدينية في منتهى الضعف ، رغم استفزازها . فقد قام أحد الجند الذين قدموا لمساعدة القرطبيين ضد المغاربة بالتعرض للمقدسات الاسلامية بالشتم والاهانة فلم يكلمه أحد ، فقام رجل من المسلمين غيرة للنبي الا تنكرون ما تسمعون ، اما انتم مسلمون ؟ فقال له جماعة منهم : امض لشغلك(٤٨) .

وعندما ظهر الخطر الاسباني مهددا ، وبدأت المدن بالسقوط ، كان رد الفعل وظهور الحمية الدينية مقتصرا على صيحات البعض . وبقي الملوك لا مبالين ، وكل ما في سلوكهم لا يشير لحمية دينية أو محاولة الظهور بمظهر الخاضع لاوامر الدين ونواهيه ، وبقوا منهمكين في الملذات التي يتطرفون في بعضها باستخدام رخص الدين ويخالفونه في بعضها .

فقد استكثروا من الجواري ، وتباروا فيما بينهم بالحصول على ارقاهن حتى اشتهرت اسماء بعضهن ، واصبحت اعلاما تتردد في كتابات المؤرخين . ففي ٤٤٢ هـ ورد رسول للمظفر بن الافطس الى قرطبة يلتمس شراء وصائف ملهيات لسيده ، وكن قد عدمن بقرطبة يومئذ ، فوجد له صبيتين ملهيتين عند بعض التجار لا طائل فيهما فما اشتراهما . وكان خصمه المعتضد اكثر توفيقا منه ، اذ سعى لاجتلاب قينة الرميحي ، الوزير في قرطبة بعد وفاته . وقد استدعاها لما وصفت له بالخدمة (٤٩) .

واشتهر أحد ملوك الطوائف الصغار ، وهو أحد ملوك بني زين أصحاب شنتمرية الشرق ، « بأنه ارفع الملوك همة في اكتساب الالات واقتناء القينات ، اشترى جارية الطبيب الكناني بثلاثة الاف دينار . وطبقت شهرة هذه الجارية الاندلس ، لان ابن حيان يخصها بما يشبه الترجمة عن محاسنها النفسية والجسدية ، ومهارتها في العاب الفروسية ، اضافة الى معارفها الواسعة في اللغة والخط والنحو والطب والتشريع(٥٠) .

ولكن أهم مظاهر مخالفة اوامر الدين هي شرب الخمر علنا ، وحتى اعتبار البعض له شيئا عاديا ، من ذلك ان الامير عبد الله الزيري ، الذي يبدو عليه التدين اكثر من غيره لا يتحرج من ذكر اقبال جده باديس على الشراب ضمن جملة اعمال ، ويتحدث عن دعوة والده الى شراب بنفس الصيغة التي يتحدث بها عن دعوته الى طعام . كما أن المأمون بن ذى النون ، المعروف بوقاره ، خصص مائدة خاصة للشاربين في حفل اعذار حفيده ، قدمت عليها أصناف طعام من نوع ملائم للشراب ، بترتيب في التقديم مناسب له أيضا ، ثم شاركهم في الجلوس لسماع غناء مغن يهودي لابيات حث فيها على طلب الشراب ،كمقدمة لمديحه ، وفيها بعض الفاظ لا تتناسب مع المعتقد الاسلامي السليم ومنها :

باكر لبكر الدنان ان ... هداء العروس في السحر
واشرب عقارا تخال حمرتها ... تحرق أيدي السقاة بالشرر
فان يحيى احيا بدولته ... ما قد محاه تصرف القدر
ملك هو الدهر في عزيمته ... يطلع فينا بطلعة القمر(٥١)

ويبدو من الناحية الاخرى ان الخلاعة قد انتشرت في صفوف نساء هذه الطبقة ايضا ، قياسا على ما كان يصدر عن السنة بعض بنات ملوكهم . فولادة المشهورة ابنة الخليفة المستكفي ، وهو من خلفاء الفتنة اشتهر بالتخنث في المقام الاول ، نسب اليها من الاشعار الغزلية ، واشعار الهجاء لابن زيدون وغيره ، ما يعتبر بذيئا بجميع المقاييس . ويعتبر مما قالته في الغزل المكشوف :

امكن عاشقي من صحن خدي — واعطي قبلتي من يشتهيها

شيئا مهذبا لما ورد عنها في الهجاء .

وربما كانت أم الكرام ، ابنة صاحب المرية ، اكثر تهذيبا من ولادة قياسا لما حفظ عنها ، ويتعلق بغزل صريح للفتى المرسي مسمار ، كقولها(٥٢) :

يا معشر الناس الا فاعجبوا — مما جنته لوعة الحب
لولاه ، لم ينزل ببدر الدجا — من أفقه العلوي للترب
حبي بمن اهواه لو انه — فارقني تابعه قلبي

* * *

المجتمع الاسباني

يقدم المجتمع الاسباني صورة مناقضة لصورة مجتمع الطوائف في جميع النواحي وعلى مختلف الصعد .

السير باتجاه توحيد السلطة :

كان عصر الطوائف عصر تجزئة السلطة في الواقع الفعلي ، وانعدام وجود أي رابط بين السلطات حتى ولو كان نظريا ، في حين قام في الشمال الاسباني اربع دول هي : ليون في الزاوية الشمالية الغربية ، وقشتالة الى الشرق والجنوب منها أي في المنطقة المحاذية لوسط الاندلس ، وما بين أعالي الضفة اليسرى لنهر ايبرو والبيرينيه وخليج غاسقونيا قامت دولة نافارا . أما في أقصى الشمال الشرقي من شبه الجزيرة فقد قامت كونتية برشلونة . ويتجلى السير نحو التوحيد ضمن هذه الممالك في هذه الفترة على مستويين ، في المجال النظري كان ملوك ليون يعتبرون انفسهم امتدادا للاسرة المالكة القوطية قبل الفتح الاسلامي . وفي مضمون هذا

الاعتبار ما يشير الى حقهم في حكم شبه الجزيرة الايبيرية كلها ، كما كان ملوك القوط . وازاء تعدد الدويلات الاسبانية اتخذ ملوك ليون لقب امبراطور ، وحتى باسيليوس ، سواء في وثائقهم الرسمية ، او تجاه رعاياهم ، أو لدى ملوك الدويلات الاسبانية الاخرى .

اما على المستوى الفعلي والعملي ، فقد كانت الوراثة ، في هذه الفترة ، تؤدي في غالب الاحيان الى ضم التاج الواحد لاكثر من دولة ، وهكذا حكم كل من فرديناندو اولا وابنه الفونسو السادس ، كلا من دولتي ليون وقشتالة منذ ١٠٣٨ م/٤٣٠ هـ - ١١٠٩ م/٥٠٣ هـ .(٥٣)

القوى البشرية والاقتصادية

معروف ومشهور ان مهد الريكونيكيستا (حرب الاسترداد) ، أو المنطقة التي بقي الاسبان يسيطرون عليها منذ أيام الفتح العربي الاسلامي ، كانت تلك الاوعار الجبلية ، الواقعة في الشمال الغربي من شبه الجزيرة الايبيرية . وكانت السهول التي تليها ، والتي تحجز بينهم وبين العرب المسلمين ، أرضا مهجورة . وعندما انحدروا من الجبال وانتشروا في هذه السهول تدريجيا ، مستفيدين من فترات الضعف التي تمر بها الامارة الاموية ، استطاعوا آخر الامر وخلال الحرب الاهليةالتي عصفت بالاندلس أواخر عصر الامارة ان يصلوا الى حوض نهر دويرة وقامت لهم عاصمة اصبحت مقر ملوكهم هي مدينة ليون . وقد اعمرت هذه الاراضي الواسعة باسبان ليسوا من النبلاء ، وانما من احرار بسطاء ، مهاجرين من المنطقة الجبلية ، او مستعربين فروا من الجنوب ، اما انفة من الخضوع للمسلمين ، او هربا من الحروب الاهلية التي حدثت أواخر عصر الامارة . وقد كان لهؤلاء نمط حياة ريفي ، وعاشوا ضمن تجمعات ريفية بسيطة ، تقوم حصون على اطراف بعضها وفي أمكنة مناسبة لحماية التجمعات . وفي ظل بعضها كان العمران يمتد والتجمع يكبر ليصبح نواة لمدن صغيرة مثل لوغو ، وبرغشر وسمورة .

كان اقتصاد هذه التجمعات اقتصادا ريفيا ، قائما على الزراعة وتربية المواشي ومطبوعا بطابع الفقر الشديد ، اذ افتقرت الى مراكز اقطاعية كبيرة ، يمكن ان تكون بلاطات صغيرة بكل ما يتولد عنها من حاجات تدفع الى قيام اقتصاد متنوع الفعاليات ، من صناعة وتجارة . لهذا كانت صناعاتها محدودة جدا ، وقاصرة على توفير ضرورات الحياة ، عبر الصناعات المنزلية . كما ان دور التجارة فيها بلغ من الضآلة حدا لم يستدع فيه سك عملة ، فاستخدموا ، كوحدة للتعامل ، مد

القمح أو راس الغنم او قطعا من الفضة . وبما ان بلادهم تقع بين منطقتين نشيطتين ضمن دائرة التجارة العالمية ، لذلك قام أفراد من المنطقتين ، اي من الاندلس ، أو من غاليا الكارولنجية ، بزيارات للمنطقة ، واوجدوا لها بالتالي هذا الرباط الدقيق والواهي بالتجارة العالمية ، والذي كان عبارة عن افراد من التجار اليهود او المستعربين . وقد بدا ملمح وحيد تقريبا للتطور ضمن هذه المنطقة التي تمتد من نهر دويرة جنوبا حتى قمم الكانتوبريك شمالا ، ومن المحيط الاطلسي غربا الى أراضي نافارا شرقا ، وهذا الملمح هو مدينة ليون ، السدة الملكية ، واجتذب هذا الموقع السياسي ، بتجمعه السكاني الكبير نسبيا ، والذي يتغذى من منتجات سهل فسيح حول المدينة ، بعض العناصر التي تمتهن التجارة ، كالمستعربين ، الذين افتتح أحدهم حانوتا ، وبعض اليهود الذين يتعاطون الربا ، وقام في ليون سوق اسبوعي عند قوس الملك حيث كان يتم التبادل بين الاغذية والموارد الطبيعية الاخرى ، والادوات المصنوعة . ودشن هذا النظام ما يسمى باقتصاد المدينة ، حيث تكون المدينة مع اطرافها دورة اقتصادية ، او وحدة اقتصادية مغلقة ، يتم ضمن اطارها انتاج الخيرات ، وتوزيعها ، او تبادلها واستهلاكها ، وربما بدأ بالظهور في الفترة نفسها ، نمو مدينة اخرى في أقصى الشمال الغربي حيث ضريح شنت ياقب بسبب توافد الحجاج على زيارته من بقاع شتى ، الامر الذي يخلق تطورا في الفعاليات ، ومع ذلك لم يصل الى مستوى نمو مدينة ليون وتطورها . لكن مقارنة اكبر مركز حضاري في الدولة الاسبانية مع مراكز الحضارة في الاندلس يعكس لنا مقدار تدنيه . ويكفي لاجلاء صورة هذا التدني مقارنته بمدينة المرية الاحدث منه نشأة ، والتي يصف الجغرافي العذري المعاصر الطابع العام لها باستقبالها السفن من البلاد الاسلامية والاوربية ، وبدار صناعتها القديمة التي قسمت الى قسمين : القسم الاول وفيه المراكب الحربية والالة والعدة ، والقسم الثاني وفيه القيسارية ، قد رتب كل صناعة منها حسب ما يشكل لها . قد أمن فيها التجار بأموالهم وقصد اليها الناس من أقطارهم(٥٤) .

تلا ذلك توسيع الحدود بعد دويرة نحو الجنوب باتجاه نهر التاجه ، بعد سقوط الخلافة الاموية وخلال فترة الفتنة . ونشأت في الارض الجديدة ، وبحذاء أراضي دول الطوائف ، تجمعات بشرية ، وبينها مجموعات عمرانية دفاعية على قمم المرتفعات أو مداخل الاودية لحماية السهول والسيطرة على الطرق المؤدية لها . واضافة لهـا انتشرت عدة كنائس متواضعة واديرة . أما نمط الحياة هنا ، فكان أكثر بدائية من وضع المجتمع وراء دويرة ، فالسكان هنا لا يستطيعون ان يكونوا زراعا ، بسبب سعة الارض التي وقعت بين ايديهم ، والتي تحتاج زراعتها الى أيد عاملة كثيرة ،

لذلك امتهنوا الرعي والحرب ، مما نمى الروح الحربية بين صفوفهم ، وهي ليست بالامر الجديد عليهم ، لانه لو كانت لهم صفات مناقضة لظلوا في جبالهم ومناطقهم البعيدة عن الحدود آمنين(٥٥) .

التنظيم الاجتماعي ـ السياسي :

كانت السيادة في هذا المجتمع مجزاة وفق النظام الاقطاعي ، ففي كل منطقة كانت السيادة لاحد الكونتات (conde) . ويمثل هؤلاء النبالة العليا ويتوارثون السيادة في اسرهم . وبذلك كانت سيادة الملك خارج قطاعه غير مباشرة ، وقاصرة على تبعية الكونتات له . وقد ادخل فرناندو الاول اصلاحا جديدا ، الغى بموجبه التوريث في ملكية الاقطاعات وادارتها ، فبدلا من ان تكون هذه موروثة ، اصبحت منحة ملكية يكون للممنوح له حق الانتفاع بها ، وممارسة السلطات الادارية والقضائية بها ، نيابة عن الملك . وقد اعتمد هذا الاصلاح على النبلاء من طبقة ادنى او الفرسان (Infanzones) بينما كان الكونتات ينتمون الى النبالة العليا (**Hidalgos**) . وقد تغيرت الالقاب للممنوح لهم فلم يعد كونت (Conde) وانما (Tenienté) او (Merino) بمعنى الوكيل او الممسك او الخولي او الحاجب . ولم يقتصر هذا العمل على منح الاراضي الجديدة المكتسبة ، وانما اصاب القديمة ايضا ، وازيح بعض النبلاء من اقطاعاتهم ومنح النبلاء الصغار مناطق شاسعة(٥٦) .

وقد حصل في قشتالة اكبر تطوير لهذا النظام ، اذ زيد في عدد النبلاء الجدد او الفرسان هؤلاء ، ورفع عددهم فيها من ٣٠٠ الى ٦٠٠(٥٧) .

ويتمخض هذا النظام عن نتيجتين ، اولاهما تقوية السلطة الملكية ، والثانية زيادة المحاربين باعداد كبيرة ، لان الفارس أو النبيل الصغير ليس جنديا فردا ، وانما يهرع للحرب مع اتباعه ، فهو بمثابة قائد لمجموعة من الجند . ومما لا ريب فيه ان هذا يخلق في وجه مجتمع الطوائف مجتمعا محاربا ومتماسكا ، مؤلفا من محاربين يرتبطون بسيدهم الملك ارتباطا وثيقا بفعل الاصلاح الجديد ، وبفعل الاعراف في النظام الاقطاعي التي تنظم العلاقة بين السيد والتابع ، في اطار واجبات متبادلة ذلك ان من واجبات التابع أن يخدم سيده ضد كل الناس سواء في الحرب ، أو عندما يدعوه الى مجلس الملك (El Corte) او في المهمات التي يكلف بادائها .

ويمكن تجميد أو وقف القيام بهذه الواجبات باذن يمنحه السيد ، ضمن طقوس معينة ، منها قيام التابع بتقبيل يده والاستئذان بالمغادرة ، واذا انقطع

التابع دون اذن ووداع يعتبر خائنا . ومن واجبات السيد اكرام التابع وحمايته من الاذى والاعتداء والاهانة ، وان يحيطه بضمانات امتيازاته القضائية ، كما عليه ان يسعى له بزواج نافع ماديا ، وان يعطيه مرتبا عند مرافقته للحرب ، وعند نهايتها عليه ان يقسم بين اتباعه اربعة اخماس الغنيمة(٥٨) . وفي هذا الواجب الاخير تأثير عربي واضح .

بساطة الحياة المادية والثقافية في البلاط وما حوله :

يمكن اكمال صورة الحياة في المجتمع الاسباني المعاصر لملوك الطوائف اذا اضفنا لما ذكرناه عن نمط حياة هذا المجتمع ، صورة الحياة في طبقته العليا . فمن المعروف ان المعاصرين من الملوك الاسبان هما فرناندو الاول ، وبعده ابنه الفونسو السادس (الفنش) . وكان هذا هو الابن الثاني لابيه ، الا انه الاثير ، لذا عهد اليه عندقسمة املاكه بمملكة ليون . وهذا ما اثار عليه اخاه الثاني سانشو (شانجة) فوقعت عدة وقائع بين الاخوين انتهت باسر الفونسو ، ونفيه بتوسط اخته اوراكا التي تحبه ، الى مدينة طليطلة ، حيث قضى تسعة شهور من كانون الثاني الى تشرين الاول من عام ١٠٧٢ م ، حتى اغتيل اخوه وهو على حصار مدينة ليون الثائرة (٥٩) . فعاد الفونسو ليبسط سلطانه على كامل مملكة ابيه ويتابع سياسته .

كانت حياة بلاط هؤلاء ، بمقارنتها مع بلاطات ملوك الطوائف ، حياة تقشف اذ لم يكن لهم على ما يبدو ملابس متميزة ، لذلك جرت العادة ، منذ زمن ابيهما ، ان يرتدي الامير منهم ملابس المسلمين . وقد عاين ذلك أحد الكتاب من اصدقاء ابن حيان ، الذين خرجوا للتفاوض معه اثناء مروره بأراضي سرقسطة(٦٠) . أما الفونسو السادس غازي طليطلة فيقدم له ابن بسام وصفا في معرض ذكره لمقابلة وفد من طليطلة له فيقول : « وجعلوا ينظرون اليه وهو يضفث ثقامة راسه ، فما نسوا ذفر اطماره ودرن اظفاره »(٦١) . ورغم ان الصيغة ادبية قد يكون فيها مبالغة على حساب المعنى ، الا انها تدل على انطباعهم بقذارته ، خاصة اذا تذكرنا مفهوم النظافة والتنظيف لديهم وكما يظهر لنا من مراحل غسل الناس لايديهم بعد الطعام ، في حفلة اعذار حفيد ابن ذى النون .

وفي مجال الحياة الثقافية ، يذكر مينيندث بيدال ان اكبر المكتبات لديهم كان فيها قرابة مائتي كتاب ، وهو امر يستدعي للذاكرة مكتبة الحكم ذات الاربعمائةالف مجلد وكون اكبر مكتبة لهم تحوي كتبا تعادل نصف ما كتبه ابن حزم ، المعاصر لهم . ويصبح التناقض صارخا اكثر ، اذا انتقلنا للمضمون ، فبينما حفلت مكتبات القصور

والافراد العرب المسلمين بالعلوم في شتى نواحي المعرفة ، نجد اكثر كتب هذه المكتبة دينيا ، ومن نوع كتب الطقوس والمواعظ ، لا من كتب فلسفة العقيدة ومناقشتها . اما محتوياتها من مؤلفات الثقافة القديمة ، فقاصرة على كتب بعض الشعراء دون كتب الفلسفة ، وحتى هذه حوربت من الطريقة الديرية الكلونية ، التي بدا تأثيرها يتعاظم في البلاط ، حتى ان احد كبار المصلحين فيها انتهى من تأملاته حول الشاعر فيرجيل الى نتيجة مفادها ان شعره جميل لكنه مثل كأس جميل يحتوي حشرات . لهذا استبعدت مؤلفات الكتاب غير الكنسيين من المكتبات الجديدة التي انشئت . واذا انتقلنا الى انتاج الفترة من مؤلفات تتشابه نوعا بين البلاطين ، نرى ان كل ما انتج في بلاط مملكة ليون في هذه الفترة في ميدان التأريخ لا يتعدى خمس عشرة صفحة ، كتبها سامبيرو ، كاتب الفونسو الخامس ، لتسجيل تاريخ (١١٦) سنة سابقة ، تميزت ، عدا عن ضآلة الحجم ، بفقر شديد في المضمون ، اذ لم تحو الا معلومات عامة بصيغة ضبابية تذكر فيها احداثا مجردة من اطاري الزمان والمكان . بينما ارخ المؤرخ المعاصر ابن حيان لعصره الاقصر زمنا بكثير ، في ستين مجلدة ، يبدو فيها ، اضافة للصياغة الراقية الدقيقة ، توافر اكثر العناصر التي يتطلبها البحث التاريخي الحديث ، من تأمين المصدر المناسب ، حتى التفسير والتعليل .

يظهر الفارق نفسه ، اذا انتقلنا للعمارة والمجال الفني ، فأهم ما بناه هؤلاء في عاصمتهم ليون كان كاتدرائية سان خوان ، بناها الفونسو الخامس بالطين والاجر ، ثم جدد فرناندو الاول البناء وجعله من حجر . ومع ذلك فقد بقيت عبارة عن مبنى فقير جدا ، اذا ما قورن بالمسجد الجامع في قرطبة ، أو بما بناه ملوك الطوائف من قصبات وقصور(٦٢) . في هذا الجو الذي يسوده التقشف والبساطة ، يبدو الحديث عن بلاط عامر بالترف واللهو غير ممكن ، فساد لديهم الاهتمام بالحرب ، وكان فراغ فرناندو الاول يسد بمعاشرة الرهبان ، الذين كانت عشرتهم مبعثا لسروره ، وكذلك تلاوة الاناشيد الدينية معهم .

الريكونيكيستا (حرب الاسترداد) وتطبيقها .

انقلب البحر الابيض المتوسط لميدان صراع ، بعدما أتم العرب المسلمون فتوحاتهم أواخر القرن الاول للهجرة / أوائل القرن الثامن للميلاد ، وذلك بين العرب من جهة ، واوربا المسيحية من جهة اخرى ، وقادته قوتان : الدول الجرمانية كقوة عسكرية ودنيوية ، والبابوية كقوة روحية وثقافية . وقدر لاسبانيا أن تكون ميدانا لتواجد ممثلي الطرفين واحتكاكهما(٦٣) .

وكان على العرب المسلمين في عصر الطوائف ان يجابهوا هجوما من الطرفين ، المحلي والاوربي . فالبابوية كانت تنظر للصراع ضمن ميدانه الواسع ، الذي تدخل فيه اسبانيا . وهكذا قام البابا الكساندر الثاني عام ١٠٦٣ م/٤٥٦ هـ ، اي قبل ثلاثين عاما من توجه أول حملة صليبية الى فلسطين ، بتقديم وعد بالخلاص من الخطايا والبراءة من الذنوب لكل من يشارك في حرب صليبية ضد العرب المسلمين في الاندلس . وتجمع جيش أغلبه من الفرنسيين والنورمانديين ، وانضم اليهم فرسان ايطاليون ، وبعض المحاربين الاسبان من مناطق الشمال(٦٤) ، وهاجم بربشتر فقاومت وحاربت المهاجمين في خارجها ، لكن تعرف هؤلاء على السرب الذي يدخل منه ماء النهر الى المدينة ، وسده ، جعل المدينة تعرض الاستسلام مقابل الامان للانفس ، فرفض الطلب . ثم دخل المهاجمون البلد عنوة وقتلوا من أهلها الافا ثم أمروا الباقين بالخروج من المدينة ، وبعد ذلك تغير الامر ليصبح عودة كل واحد الى بيته ، فقسمت البيوت ومن فيها على المحاربين وتركت لكل منهم الحرية بأن يفعل ما يشاء بمن وقعوا في حوزته . لم يكن هذا اول احتلال لبلد اندلسي . لكن كل ما حدث سابقا كان من قبل اسبان ينالون ما ينالون باتفاق مع صاحبه كثمن لمساعدة ، او انهم كانوا يتفقون مع طرف من أهله ، لكن هذا كان أول احتلال بهجوم من أغراب ، كما ان ما حصل فيه من اعمال شنيعة أحدث ردة فعل عارمة في الاندلس كلها . وهذا ما يفسر تقاطر النجدات على المقتدر بن هود ، فاجتمع لديه جيش لم يعرف عصر الطوائف له مثيلا من قبل في العدة والعدد ، حتى قيل ان فيه ستة آلاف من الرماة العقارة . وتمثلت خطة الهجوم عليه بقيام الرماة بالرمي على السور تغطية لعمل النقابين تحته ، والذين توصلوا لفتح الثغرة فيه ودخلوا منها وابادوا الحامية كلها تقريبا ، وكانت مكونة ، حسب قول ابن حيان ، من الف فارس واربعة آلاف راجل ، بعد ان بقي بايدي الروم قرابة سنة كاملة ، بدءا من جمادى الاولى ٤٥٧ هـ/اب ١٠٦٤ م(٦٥) .

اختلف التوسع الاسباني على حساب العرب المسلمين فيما يسمى بحرب الاسترداد ، عن التوسع الاوربي ، اذ لم يكونوا على وعي ظاهر بالبعد العالمي لصراعهم مع العرب المسلمين ، وانما كان البارز لديهم البعد الوطني او القومي ، المتمثل بايمانهم بأن اسبانيا واحدة ، وتشمل شبه الجزيرة الايبيرية ، وانها كانت مسيحية كاثوليكية يحكمها القوط ، ويجب ان تعود الان لحكم ملوك ليون الذين اصبحوا منذ زمن يعتبرون انفسهم خلفاء للملوك القوط ، وفي اتخاذهم لقب امبراطور ، أي رئيس ملوك شبه الجزيرة ، تعبير عن ذلك . وقد ظلوا يكررون الفكرة ذاتها سواء زمن فرناندو الاول او ابنه الفونسو السادس ، فقال الاول لوفد من أهل طليطلة « انما

نطلب بلادنا التي غلبتمونا عليها قديما في أول امركم ، فقد سكنتموها ما قضي لكم وقد نصرنا الان عليكم برداءتكم فارحلوا الى عدوتكم ، واتركوا لنا بلادنا ، فلا خير لكم في سكناكم معنا بعد اليوم » وقال مبعوث الفونسو كلاما في نفس المعنى للامير عبد الله « انما كانت الاندلس للروم في أول الامر حتى غلبهم العرب »(٦٦) .

ولم يكن الاسترداد في نظرهم هدفا مثاليا بل هدفا يحقق لهم غنى ماديا ، لان ما بيدهم من الجزيرة حسب قول سفير الفونسو السادس هو ان (العرب الحقوهم بأبخس البقاع جليقية) . كما ان نفوسهم شرهت للذهب والمعدن الثمين والنفائس . وكان العرب يدركون ذلك ، بدليل نصح بعضهم للمأمون بن ذى النون بالا يحول نقر الفضة لديه الى آنية ثمينة خشية رؤية الجليقيين لها واثارة طمعهم .

اما من الطرف الاخر ، فقد كشف ذلك حتى لعامتهم ، اذ ان القرطبيين اول الفتنة استأجروا اسبانا لمساعدتهم ضد المغاربة مقابل ذهب ، فكان الفارس ينال ، عدا شرابه وطعامه ، دينارين في اليوم . وينال القومس او القائد مائة دينار . وعندما شكا أهل طليطلة لفرناندو عجزهم عن تقديم ما يطلبه من مال ، كان جوابه « لو كشفت سقوف بيوتكم لبرقت ذهبا » .

من ناحية ثانية كانوا يرون ان الساعة لتحقيق مطمحهم قد ازفت ، اذ زالت هالة المجد والقوة والتقدم ، التي كانت تحيط بالعرب المسلمين في اذهانهم ، بعدما اختلطوا بهم . وقد قال أحد رؤساء الجند لدى أهل قرطبة « كنا نظن ان الدين والشجاعة والحق عند أهل قرطبة واذ القوم لا دين لهم ولا شجاعة فيهم ولا عقول معهم ، وان ما اتفق لهم من الظهور والنصر كان بفضل ملوكهم ، فلما ذهبوا انكشف أمرهم »(٦٧) . كما ان الحالة الحربية لجند الطوائف كما رأينا كانت معروفة لهم وللعرب المسلمين ايضا ، حتى قال ابن حيان « وصب الله تعالى على أهل الثغور من الجبن عن العدو ما لا كفاء له ، فلا يكاد احد منهم يلقى نصرانيا في قرار من الارض الا ويوليه الدبر ، غير مستحي من الله من الفرار امامه ، حتى تعود أعداء الله ذلك منهم »(٦٨) .

رغم ذلك لم ير الملك الاسباني الاكتساح المباشر والاجهاز على حكم الملوك العرب المسلمين كما فعلت الغزوة الصليبية ، بل كان أعمق من اولئك بكثير لمعرفته باوضاع شبه الجزيرة ، ولمعرفته بأحوال العرب المسلمين من الداخل ، بفضل ما توافر له من معارف عبر مداخلات بني قومه معهم ، وعبر الاشخاص الذين انتقلوا لخدمته من بلاطات ملوك الطوائف ، مثل شيشلاند . لذلك كانت له خطة عامة لتحقيق الهدف ، او خطة استراتيجية كما نقول في عصرنا الحديث ، وخطط مرحلية ،

تقوم الاولى على أساس أنه من غير المجدي الاكتساح ، بسبب الفقر السكاني في المناطق الاسبانية ، اذ ان الهجوم المباشر يفني الرجال والاموال ، واذا احتل البلاد وابقى سكانها فهو لا يأمن خضوعهم ، واذا طردهم لم يجد من يعمر الارض . لذلك كانت خطته العامة ان يخضعهم للجزية ويضرب بعضهم ببعض فيفتقرون ويضعفون ، ويغنى هو ويقوى . وما بين الحين والاخر ينهك جزء من بلادهم فيلقي بنفسه دون قتال أو تعب ، ويكون قادرا على هضمه وابتلاعه .

ليست لخطة المذكورة ، العامة أو المرحلية ، من استنتاج مؤرخ حديث ، بعد استقراء الحوادث وسلوك الفونسو السادس ، وانما ذكرها الامير عبد الله المشارك في الاحداث ، الذي يؤكد بدوره ان هذا ليس استنتاجا منه ، وانما كانت سياسة مقررة في بلاط الملك الاسباني ، بعد مداولات مع رجاله ، لذلك يقول الامير « كنا نعلم هذا من مذهبه على ما كان يخبر به وزراءه . ولقد قال شيشلاند في حال هذه السفرة وشافهنا بذلك ، وقال : هم الان عند التمكن طامعين بأخذ ظلاماتهم ، فلا يصح ذلك الا بضعف الحال والمطاولة ، حتى اذا لم يبق مال ولا رجال أخذناها بلا تكلف »(٦٩) .

تجاه ذلك الذي انكشف لملوك الطوائف من خطط اعدائهم ، لم يستطيعوا ابداع تصور ، او وضع خطة مقابلة يلتزمون بها ، بل كانوا يمارسون سياسة يومية دون آفاق بعيدة ، ويجدون ملجأ بالتوكل على فرج يأتي من الله عز وجل ، حسب قول الملك المذكور « فكان الجميع يساير الامور ويدافع الايام ويقول : من هنا الى ان تتم الاموال وتهلك الرعايا بزعمهم يأتي الله بالفرج وبنصر المسلمين » .

تطبيق خطة اخذ الجزية :

كانت طوائف الثغور قد خضعت لدفع الجزية منذ أيام فرناندو الاول . وعمم ابنه هذا النظام على شبه الجزيرة كلها ، فخضع لها بنو ذي النون في طليطلة ، وبنو عباد في اشبيلية ، واخيرا الزيريون في غرناطة وعلى المضيق . وكانت عبارة عن دفعة اولى كبيرة ، نعرف منها الذي فرض على غرناطة وقدره ثلاثون الف دينار ، ثم جزية سنوية قدرها عشرة آلاف . وكان الملك الغرناطي خلال المساومة على المبلغ ، يقدم اعترافا بان كل ما يملك مرده لالفونسو « فخذ ما تقدر عليه واترك رمقا لا نستأصل من أجله ، وما تركت تجده عندنا ما طلبت » .

اما على المستوى السياسي ، فكان دفع الجزية مرفقا بحماية الفونسو لمن

يدفع « ووعدنا انه يحامي عنا كمايحامي عن بلده » ، وكذلك الاعتراف به كحكم ، فعند عقد اتفاق بين غرناطة واشبيلية تم بوساطة منه وبضمانته « ثم انه عقد العقد بين يديه على ذلك وانه لا يتعدى منا أحد على صاحبه » .

عندما أصبح الملك الاسباني في هذا الموضع تسابق الجميع لنيل الحظوة لديه عن طريق تقديم الهدايا له وتقديم ما يحتاجه في الازمات . فعندما حاصر طليطلة لاعادة يحيى بن ذى النون اليها ، هاجمه الشتاء ، وانعدمت الاقوات في معسكره ، فهب ملوك الطوائف الاخرون لتزويده بالمؤن(٧٠) . ويظهر ان هذا التقديم كان يتم سرا ، بينما يظهر الجميع علنا تعاطفهم مع اخوانهم في الدين اهل طليطلة ، مما جعل هؤلاء يطمعون في عونهم . لكن الفونسو اضطر لفضح هذا الامر كي لا يطول الحصار. وكان ذلك عندما طلب أهل طليطلة الذين عضهم الحصار من محاصرهم ، حسب عادة مرعية في تلك العصور ، ان يسمح لهم بهدنة يطلبون خلالها من الطوائف الاخرى عونها ، فان لم تفعل سلموا له المدينة . فصار يسألهم عمن سيطلبون عونه ، وكلما ذكروا له ملكا من الملوك استدعى رسله ، حاملي المؤن اليه . فاسقط في يد مبعوثي اهل طليطلة واخبروا اهل مدينتهم بذلك ، فاستسلمت المدينة . وزاد تهافت ملوك الطوائف على نيل رضاه ، وصار يفخرون باي اشارة دالة على ذلك . والحادثة المشهورة لديهم في هذا المجال هي ان حسام الدولة ملك شنتمرية الشرق (السهلة) تلقى من الفونسو السادس ، مقابل هديته الثمينة له ، قردا ، فكان يفخر بذلك ويعتقد انه دليل أمن .

من ناحية اخرى كان الفونسوا السادس حريصا ، عند تطبيق اي خطة مرحلية ، ان تتم بشكل لا يمس بسلامة الخطة العامة ، أو يعرقل تنفيذها . فعند طلبه من أمير غرناطة الجزية ، وامتناع هذا الاخير عن تقديمها اول الامر ، عرض عليه ابن عمار ، وزير المعتمد ابن عباد ، أن يساعده على أخذها ويكون له ما بها من اموالويدفع عنها خمسين الف دينار . لكن الفونسو استخدم العرض للتهديد والمساومة وتظاهر بقبوله ، ثم قبل من امير غرناطة ثلاثين ألفا كدفعة اولى وعشرة الاف كل سنة ، وعلل الامير عبد الله ذلك بانه لا يريد ان يعطيها للمعتمد بن عباد ، اذ سيتقوى بها ويصبح اخضاعه اكثر عسرا عليه .

ضمن هذه السياسة ، وبعد دخول ابن ذى النون طليطلة بمساعدته لعجزه عن كبح جماح الثورات ضده ، وجد الفونسو الفرصة حانت لقضم مملكته ، وكان رأي الوزير شيشلاند ، ان في هذا تسرعا سيجد فيه ملوك الجزيرة تهديدا ، وذلك بقوله

على لسان ابن بسام « ولا تلح على ملوك الجزيرة فلست تستغني عنهم ، ولا تجد عمالا اطوع منهم ، فانك ان ابيت الا الالحاح عليهم والتسرع بالمكروه اليهم نفرتهم عن ذراك واحوجتهم الى مداخلة سواك » وهذا ما حصل ، اذ ان احتلال طليطلة وما حولها جعل ملوك الطوائف يرون في ذلك تحولا من الحماية الى ثل العروش واحتلال البلاد ، في وقت كان الغليان سائدا بين الناس ، والانظار متوجهة الى ما وراء المضيق لطلب العون من المرابطين ، فتم ذلك ونزل المرابطون ليوقفوا المد الاسباني ، ثم ليقضوا على ملوك الطوائف ويجعلوا الاندلس جزءا من دولتهم المغربية .

* * *

الحواشـي :

(١) ابن بسام ، الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، (القاهرة ١٩٤٥) ، ق ٤ ، م١ ، ص١٠٩-١١٠ .

(٢) ابن عذاري ، البيان المغرب ، تحقيق بروفنصال ، ج ٣ ، ص ٢٦٦ .

(٣) ابن حزم ، نقط العروس ، ص ٥٠ .

(٤) ابو الحسن النباهي ، المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، ص ٩١ - ٩٢ .

(٥) الذخيرة ، ق ٢ ، م١ ، ص ١٢ - ١٣ .

(٦) الامير عبد الله الزيري ، التبيان في الحادثة الكائنة على بني زيري ، تح.بروفنصال ، ص ٦٢-٦٣

(٧) الذخيرة ، ق ١ ، م ٢ ، ص ١٦٩ .

(٨) ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٢٤٧ .

(٩) الذخيرة ، ق ٢ ، م١ ، ص ١٢٢ - ١٢٣ و ١١٨ .

(١٠) المصدر السابق ، ق ١ ، م ١ ، ص ٣٦٢ - ٣٦٣ .

(١١) التبيان ، ص ٢٢ .

(١٢) ابن عذاري ، ج٣ ، ص ٢٦٠ .

(١٣) ابن الابار ، الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ١٠٠ .

(١٤) ذخيرة ، ق١ ، م٢ ، ص ١٢٧ .

J.V. Bermejo, Saqut al Barguati Al-Andalus, Vol. XXIII, (1963),p.201

(١٥) R. Menendez pidal, Espana del cid, Vol. 1, P. 284-285.

(١٦) الحميري ، الروض المعطار ، تحقيق احسان عباس ، ص ٥٣٨ .

(١٧) المصدر السابق ص ٥٩ و ٣٤٢ - ٣٤٤ .

(١٨) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج٣ ، ص ١٦٢ .

(١٩) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٢١٨ .

(٢٠) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ١١٠ .

(٢١) M. Al-Abbadi, Los eslavos en Espana, Madrid, 1953.

(٢٢) رواية الوراق عند ابن عذاري ، ج٣ ، ص ٢٧٤ .

(٢٣) رواية ابن حيان عند ابن الخطيب ، الاحاطة في اخبار غرناطة ، تحقيق عنان ، ص ٤٣٦ - ٤٣٧ .

(٢٤) التبيان ، ص ٢١ .

(٢٥) ابن عذاري ، ج٣ ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

(٢٦) التبيان ص٣ .

(٢٧) R. Menendez pidal, op. cit, p. 92

(٢٨) الروض المعطار ، ص ٩٢ و ٤٦٤ .

(٢٩) العذري ، ترصيع الاخبار ، ص ٨٤ - ٨٥ .

(٣٠) الذخيرة ، ق ٤ ، م١ ، ص ١٠٢ - ١٠٤ .

(٣١) المقري ، النفح ، ج ٥ ، ص ٣٩٣ - ٣٩٦ .

(٣٢) الذخيرة ، ق ٤ ، م١ ، ص ١١٢ - ١١٣ .

(٣٣) الذخيرة ، ق ٤ ، م١ ، ص ١٠١ - ١٠٢ .

(٣٤) القزويني : اثار البلاد واخبار العباد ، ص ٥٤٢ .

(٣٥) الذخيرة ، ق ٤ ، م ١ ، ص ١١٤ - ١١٥ .

(٣٦) رواية ابن حيان عند ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٦٠ - ١٦١ .

(٣٧) العذري ، ترصيع الاخبار ، ص ٨٦ .

(٣٨) التبيان ، ص ١١٦ .

(٣٩) ابن بشكوال ، الصلة ، ت ٨٦٥ . الذخيرة ، ق ٢ ، م ١ ص ٦٨ - ٦٩ .

(٤٠) ابن عذاري ، ج٣ ، ص ٢٢٩ .

(٤١) M, Asin, palacios, un codico inexplorada Cordobés ibn Hazm, Al-Andalus, Vol. II, 1934, pp. 1-56.

(٤٢) ابن الخطيب ، الاحاطة ، تحقيق عنان ، ج٣ ، ص ٢٣ .

(٤٣) القاضي عياض ، ترتيب المدارك ، ج ٣ - ٤ ، ص ٨٠٢ - ٨٠٨ .

(٤٤) رواية ابن حيان عند ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٢٥٤ .

(٤٥) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ١٠٦ .

(٤٦) الخشني ، قضاة قرطبة ، ص ١٥٦ – ١٥٧ .

(٤٧) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص ٤٤ .

(٤٨) ابن عذارى ، ج٣ ، ص ٩٧ – ٩٨ .

(٤٩) المصدر السابق ، ص ٢١٢ .

(٥٠) ابن عذاري ، ص ٢٠٨ .

(٥١) الذخيرة ، ق٤ ، م١ ، ص ١٠٥ .

(٥٢) المقري ، النفح ، ج٥ ، ص ٣٠٢ و ٢٣٦ – ٢٣٧

(٥٣) Diccionaria Histórica Espanol, Arts, Alfonso VI, Y Fernando I.

(٥٤) العذري ، توضيح الاخبار ، ص ٨٦

(٥٥) Sanchez Albornoz-Espana, un Enigma Historico, Vol. I, pp. 114-117.

(٥٨) Diccionario Historico Espanol, Vol. II Arts, Fernando I.

(٥٧) R. Menendez pidal, op. cit.

(٥٦) Mayer, Historia de las instituciones Espanoles, p. 106.

(٥٩) Alfonso VI, Y su hermano la infanta urroca, Al-Andalus, Vol. XIII, (1948), pp. 150 - 681.

(٦٠) الذخيرة ، ق١ ، م١ ، ص ١٥٥ .

(٦١) المصدر السابق ، ق ٤ ، م١ ص ١٢٩ .

(٦٢) R. Menendez piad, op. cit, p. 83

(٦٣) المصدر السابق ، ص ٦٢ – ٦٣ .

(٦٤) J. Read, the Moors in Spain and portugal, p. 103 - 104.

(٦٥) ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٢٨٢ .

(٦٦) التبيان ، ص ٧٢ .

(٦٧) ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٨٤ .

(٦٨) المصدر السابق ، ص ٢٨٠ .

(٦٩) التبيان ، ص ٧٣ .

(٧٠) الذخيرة ، ق ٤ ، م١ ص ١٢٨ .

لمحات من تاريخ أيلة « العقبة »
في العصر الإسلامي

د. صالح درادكة

الجامعة الاردنية

تذكر المصادر العربية ايلة كثيرا عند الحديث عن الامور التجارية والسياسية لمنطقة جنوب الاردن ، والحجاز ، وشمال البحر الاحمر ، ففيها تلاقت قديما السلع المختلفة من الصين والهند وبلاد العرب وافريقيا واوروبا . وهذه الاهمية لايلة اكتسبتها من موقعها الهام كحلقة وصل في العالم القديم ، ولذلك استفادت الامم التي سيطرت على هذه المنطقة من أيلة واستخدمتها في الاغراض الاقتصادية والعسكرية .

وعلى الرغم من هذه الاهمية لم تحظ ايلة بدراسة شاملة وجادة تتناسب وتاريخ هذا الثغر عبر العصور .

وقد قامت بعثة المدارس الامريكية للدراسات الشرقية في الاعوام ١٩٣٨ ــ ١٩٣٩ بحفريات في موقع ، تل الخليفة ، القريب من العقبة الحالية (١) ونشر جلدن (٢) وموسل (٣) بعض الدراسات حول « أيلة » . غير أن ما نشروه جزئي ولا يعالج الا نواحي خاصة من أيلة في فترات تاريخية قصيرة ومحددة . ولذلك بقي تاريخ ايلة بحاجة الى دراسة شاملة .

تحتل العقبة اليوم مكانة هامة في الاقتصاد الاردني واقتصاد الاقطار المجاورة ، الامر الذي حفزني على محاولة القيام بالدراسة التاريخية المطلوبة لهذا الثغر ذي التاريخ الطويل ، آملا أن استطيع قضاء بعض حق لهذه المدينة او ان الفت نظر الباحثين نحوها ، وفي كلتا الحالتين خدمة للمكتبة التاريخية العربية . والله من وراء القصد .

★ ★ ★

١ ـ ذكر الجغرافيون العرب « أياة » وضبطوا اسمها فجعلوه على وزن فعلة ، وحددوا موقعها على ساحل بحر القلزم ، وقالوا هي آخر الشام وأول الحجاز ، وآخر الحجاز وأول الشام ، يجتمع فيها الحجاج ، وذكروا أن فيها زروعا وتجارة وسمكا (٤) .

اما المقدسي فسماها ويلة وقال : هي مدينة على طرف شعبة بحر الصين عامرة جليلة (٥) واعتبرها فرضة فلسطين وخزانة الحجاز ، وقال : « العوام يسمونها أيلة ، وأيلة قد خربت على قرب منها (٦) وذهب الى أنها هي التي قال الله فيها : « واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر »(٧) .

وقد اختلف المفسرون في تعيين هذه القرية الوارد ذكرها في الآية السابقة ، فقيل هي أيلة وقيل مدينة بين أيلة والطور وقيل طبرية ، وذهب بعضهم الى انها ساحل من سواحل الشام بين مدين وعينونة يقال لها « معناة »(٨) .

ووصف المقدسي مجتمع ويلة قائلا : « وفي ويلة تنازع بين الشاميين والحجازيين والمصريين كما في عبادأن ، واضافتها الى الشام اصوب لان رسومهم وارطالهم شامية وهي فرضة فلسطين ومنها يقع جلابهم »(٩) .

وهذا يشير الى أن سكان أيلة في القرن الرابع الهجري كانوا خليطا من الشاميين والحجازيين والمصريين ، وقد يكون التنازع نتيجة التنافس التجاري . ويبدو من كلام المقدسي ان الايليين تأثروا بأهل الشام أكثر من غيرهم ، ويعود ذلك الى أن أيلة كانت تتبع فلسطين في أغلب العصور .

وقد اختلف في سبب تسميتها بهذا الاسم ، ففريق ذهب الى أن « أيلة » اسم لجبل برضوى ، وهو غير المدينة المذكورة ، اي جبل ينبع بين مكة والمدينة واستشهد بشعر القائل :

من وحش أيلة موشي اكارعه

والوحش لا ينسب الى المدن ، وفي هذا المعنى ايضا قال كثير عزة :

رايت واصحابي بأيلة موهنا ... وقد غار نجم الفرقد المتصوب
لعزة نارا ما تبوخ كأنها ... اذا ما رمقناها من البعد كوكب
تعجب اصحابي لها حين اوقدت ... وللمصطليها آخر الليل اعجب
اذا ما خبت من اخر الليل خبوة ... أعيد لها بالمندلي فتثقب (١٠)

وفي مكان آخر من شعر كثير نجد انه استعمل لفظ ، أيلة ، للدلالة على جبل ، فقد قال :

ولو بذلت ام الوليد حديثها   لعصم برضوى اصبحت تتقرب
تهبطن من اركان ضاس وايله   اليها ولو اغرى بهن المكلب (١١)

وهناك من يرى انها سميت بهذا الاسم نسبة الى « أيلة » بنت مدين بنت ابراهيم الخليل عليه السلام (١٢) .

وفي لسان العرب لابن منظور : « ايّل » اسم جبل ، واستشهد بقول الشماخ :

تربع اكناف القنان فصارة   فايّل فالماوان فهو زهوم (١٣)

واما ما يدل على انها اسم بلدة فقول ابن الاعرابي :

فانكم والملك يا أهل أيلة   لكالمتأبي وهو ليس له أب (١٤)

والايل هي ذكر الاوعال من الغزلان . ولا شك ان منطقة ايلة كانت من الاماكن التي تكاثرت بها الوعول والغزلان . وذهب البيهقي الى ان الأيكة اسم جامع للارض التي فيها مدينة أيلة ومدين(١٥) .

وفي النص العبري للتوراة جاء اسمها « ايلوت » . وفي الترجمة العربية للتوراة «أيلة» ولا نعلم مدى العلاقة اللغوية بين الفاظ «أيلة» و «أيلوت» و «ايلات» . غير اننا نرى أن « أيلة » لفظة عربية . ويرى بعض الباحثين المحدثين ان لفظة ايلات معروفة أيضا عند الشعوب السامية ، فزوجة الاله بعل عند الفينيقيين تسمى «ايلات» وهي المعروفة كذلك بـ « عشيرة البحر » والتي يطلق عليها لقب الآم الالهة (١٦) وتعني (ايلات) بالعبرية « بيت الالهة » . وجاء في التوراة ان سليمان بن داود ١٠٠٤ — ٩٦٨ ق.م) بنى عصيون جابر قرب أيلة على شاطىء بحر سوف في أرض أدوم (١٧) . كما ذكرت التوراة ان عزيا ملك يهوذا بنى أيلة وردها ليهوذا (١٨) . ويستفاد من التوراة ان العرب وبعض الاقوام الساكنة قرب أيلة كانت تهاجم مملكة يهوذا ، كما ان الصراع مع الايدوميين كان مستمرا (١٩) .

٢ — واطلق اليونان على أيله اسم «Elana» ايليانا وكانوا يسمون خليج العقبة الحالي «Aleantic Gulf» (٢٠)

وعندما استولى البطالمه على مصر ، دخلت منطقة جنوب فلسطين والاردن في الصراع بين البطالمة والسلوقيين ، ووقعت أيلة بيد البطالمة الذين اتخذوا منهـا ميناء لنقل تجارة فلسطين الى موانىء البحر الاحمر وافريقية كمـا كان يستقبل السفن القادمة من افريقية والمحيط الهندي ، وقد ادرك الانباط مدى الخطر الذي يتهددهم من جراء النشاط التجاري البحري للبطالمة ، فتحرشوا بهـم وتعرضوا لسفنهم في البحر مما جعل البطالمة يفكرون جديا بوسائل تمنع الانباط من مهاجمة السفـن ونهـب حمولاتهـا ، فبنى فيلادلفوس مدينـة برنيسي Berenice على خليج العقبة لحماية التجار من هجمات الانباط ، كما انشأ بطليمـوس (٢٨٥ – ٢٤٦ ق.م) قوة بحرية لحراسة السفن البطلمية ، وبذلك تمكن من السيطرة علـى شمال البحر الاحمر وخليج العقبة . وقـد ازدهرت ايلة في الفترة الهيللنية حتى اننـا نجـد ايراثوسثنس Eratosthenes (٢٧٥ – ١٩٤ ق.م) يقول : أيله أهـم مدن بلاد العرب التجارية (٢١) . واحتفظت ايلة باسمها في العهد الروماني لانهـا كانت معروفة به قبل احتلال الرومان للمنطقة العربية (٢٢) .

وقد ازدهرت تيماء وايلة وسلع في شمال الحجاز وجنوب فلسطين في فترات من العهد الروماني ، اذ كانت مراكز للقوافل التجارية الكبرى منها تسوق العالـم الروماني واليوناني معظم ما يحتاج اليه(٢٣) .

وبعد احتلال الامبراطور الروماني تراجان (٩٨ – ١١٧ م) بتراء عاصمة الانباط سنة ١٠٥ ، ١٠٦ م كـون مـا يسمى بالمقاطعـة العربيـة Provencia Arabea ثم أحدث تغييرات مهمة في الادارة وفي طرق المواصلات وأصول الجباية ، فأنشـأ طريقا مهمة من « أيلة » حتى رأس خليج العقبة مارة بالبتراء الى بصرى فدمشق . وصارت بصرى محطة مهمة جدا للقوافل القادمة من اليمن والحجاز ، واصلح تراجان القناة القديمة التي تصل النيل بالبحر الاحمر واحكم احتكار الرومان للتجـارة البحرية التي كانت مصدر كل غنى وثراء (٢٤) .

وفي القرن الثالث الميلادي قسمت المقاطعة العربية الى كورتين : كورة شمالية عاصمتها بصرى وعرفت بـ « كورة بصرى » ، وكورة جنوبية عاصمتها بترا وعرفت باسـم كورة بترا (٢٥)

أما في القرن الرابع الميلادي وفي حوالي ٣٠٧ م تقريبا اقتطع من الكورة الجنوبية بعض المدن مثل « أيلة » و « Phainon » فينون أو فينان حاليا (٢٦) ، والحقـت بفلسطين وبذلك توسعت رقعة فلسطين . ويظهر ان الضرورات العسكرية هي التي دفعت الى احداث هذه التغييرات ، فقد كانت الطرق الحربية تصل من أيلة الـى سورية وفلسطين ولهذا أصبحت هذه المدينة معسكرا للجيش الروماني(٢٧) .

وفي العهد البيزنطي دخلت المنطقة العربية في الصراع ما بين الفرس والروم البيزنطيين ، لذلك اختط يوستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥) خطة لتحرير التجارة البيزنطية من سيطرة الساسانيين عليها ، وهي الاتصال المباشر بالاسواق الرئيسية المصدرة، ونقل المشتريات الى الامبراطورية بطريق البحر الذي كان يسيطر الروم على اعاليه. لقد كان ميناء « ايلة » في أيدي البيزنطيين ، وكان فرضة حافلة تقصدها السفن القادمة من اليمن والهند والصين وتاتيها من البر قوافل الشام (٢٨) .

استقرت النصرانية في ايلة منذ عهد مبكر حيث تنصر معظم سكانها ، واشترك اساقفتها في النشاط الكنسي ، فقد كان « بطرس » اسقفها من بين الذين وقعوا قرار مجمع نيقية (٣٢٥م) وكان اميرها قبل يوحنا بن روبة اوريون النصراني (٢٩) كما كانت في القرن الرابع الميلادي مقرا لابرشية حضر مطارنتها بعض المجامع الكنسية ، ومنهم المطران « غوث » وكان في رأي الاب شيخو عربيا ، حضر المجمع الخلقدوني سنة ٤٥١ م (٣٠) .

ومات في ايلة سنة ٥١٣ م ، القديس « ايليا » وهو عربي الاصل سكن مدة في احد الاديرة الواقعة على ضفة نهر الاردن اليمنى ثم رقي الى رتبة البطريركية (٣١). ولما تضعضعت قوة بيزنطة على تخوم « ايلة » كسدت تجارتها لان « ايلة » والبلاد المحيطة بها كانت خاضعة لنفوذ الامراء من بني غسان (٣٢) .

وفي بعض الاحيان كانت ايلة تقع تحت سيطرة القبائل البدوية . وكان شيوخ هذه القبائل يحكمون وكانهم عمال روم « فيلارك Phylarchus » ، بعضهم يحكم اراضي صغيرة ، ويعمل اتباعهم بالرعي وبعضهم بالزراعة وآخرون بالتجارة والبعض اعراب يتنقلون في البادية ، والذين كانوا يقطنون ساحل العقبة كانوا اشباه أعراب ، ينتهزون الفرص المؤاتية ويشتغلون بالتجارة لحسابهم او لحساب غيرهم او يقدمون الخدمات للتجار مقابل جعل معين (٣٣) .

ومن اشهر القبائل التي استوطنت منطقة ايلة قضاعة التي امتد نفوذها ما بين الشام والحجاز الى العراق ، واستعملهم الروم على بادية العرب هنالك (٣٤) . وامتدت مواطن جذام من ايلة شمالا الى ينبع جنوبا على طول الساحل (٣٥) ، وبلغ من نفوذ جذام ان المصادر تذكر لهم رياسة في معان ، وان بطن بني النافرة من نفاثه من جذام تعاون مع الرومان الذين عينوا فروة بن عمرو بن النافرة عاملا لهم على قومه وعلى من كان حوالي معان من العرب . وتزعم بعض المصادر ان فروة هذا هو الذي بعث الى الرسول « ص » باسلامه واهدى له بغلة بيضاء مما جعل

قيصر ينقم عليه فاغرى به الحارث بن ابي شمر الغساني ملك غسان فأخذه وصلبه بفلسطين (٣٦) . ونظرا لغلبة جذام على منطقة ايلة ذهب بعض المؤرخين الى ان يوحنا بن رؤبة ، صاحب ايلة ، الذي صالح الرسول « ص » هو من جذام(٣٧) .

والى جانب امتداد جذام كانت قبيلة جهينة التي كانت ما بين ينبع ويشرب في متسع من برية الحجاز الى عقبة ايلة (٣٨) . والى جانب امتداد جهينة كانت مواقع قبيلة بلي (٣٩) .

وفي غمرة الصراع بين آل حجر الكندي والغساسنة كانت ايلة خارج هذا الصراع ، مع انها تعتبر ضمن المنطقة التي شملها نفوذ غسان . وربما كان ذلك عائدا الى المكانة الخاصة لمدينة ايلة عند الروم الذين اقاموا بها حامية رومية واشرفوا عليها اشرافا مباشرا .

اتسع نفوذ الغساسنة اتساعا كبيرا شمل ما بين ايلة ولبنان وهذا ما يفهم من شعر حسان بن ثابت يمدح به آل النعمان (٤٠) :

ملكا من جبل الثلج الى جانبي ايلة من عبد وحر
من يغر الدهر او يأمنه من قتيل بعد عمرو وحجر

وقد تعرض الشعراء لايلة في اشعارهم يذكرون موقعها تارة ويشيرون الى بعض الاماكن المتصلة بها تارة اخرى ، كما اشاروا الى نباتاتها وزروعها ودنانيرها ، ففي ارجوزة طويلة للحسين بن قبيصة المجرمي الجذامي جاء :

وعزلت ايلة والبحر المضم عنها يمينا وتعددت في الاتم(٤١)
وعزلت حزم ردام ذا الثلم عنها يمينا وتياسرت لسلام
وصبحت نعمى واكواز النعم (٤٢)

وذكر في بعض الاشعار ان شجر الدوم كان بأيلة ، فقد ورد منسوبا لايلة . فمما اخذ على حميد بن ثور الهلالي ، وقيل على ابن الطمحان القيني ، قوله :

لما تخايلت الحمول حسبتها دوما بأيلة ناعما مكموما (٤٣)

وضرب بعض الشعراء المثل بدنانير « ايلة » : فهذا احيحه بن الجلاح يرثي ابنه قائلا :

الا ان عينـــي بالبكـــاء تهلـــل　　جزوع صبـــور كـــل ذلك يفعـــل
فان تعتريني بالنهـــار كـــابـــة　　فليلـــي اذا امسى امر واطـــول
فما هبرزي مـــن دنانيـــر ايلـــة　　بأيدي الوشـــاة ناصع يتأكـــل
بأحسن منـــه يوم اصبح غاديـــا　　ونفسني فيه الحمام المعجل (٤٤)

وكانت أيلة مجتمعا تتلاقح فيه الافكار اليونانية والمسيحية والعربية ، فهي مركز من المراكز الرومانية ، وهي ايضا اسقفية مسيحية ، وهي قريبة من الحجاز حيث كانت الاسواق العربية تنعقد دوريا وتتحول الى مهرجانات ادبية وثقافية . تمثل كل النزعات السائدة قبيل الاسلام ، فهي لم تشتهر اقتصاديا فحسب بـــل اشتهرت كمركز من مراكز الثقافة المرموقة في بلاد العرب (٤٥) .

٣ - برز اسم « أيلة » في التاريخ الاسلامي منذ زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذلك بحكم موقعها كبوابة لبلاد الشام ، والتي كان سيطرقها المسلمـــون في توجههم نحو الشمال . ففي اعقاب غزوة تبوك - اي في السنة التاسعة للهجرة - عقد الرسول صلحا مع يحنه بن رؤبة صاحب أيلة (٤٦) وقد اوردت المصـــادر كتاب الصلح بخلاف يسير . وتذكر هذه المصادر أن يحنه « يوحنا » بـــن رؤبـــة هو الذي قدم على الرسول في تبوك وطلب ان يصالحه مقابل دفع الجزية (٤٧) ، الامر الذي يدفع الى التساؤل عـــن أسباب ودوافع قدوم صاحب ايلة ليدفـــع الجزية للرسول ، وايلة مدينة عامرة وجليلة ومعظم سكانها من النصارى ؟!

ويبدو ان يحنه بن رؤبة لم يقدم طائعا مختارا ، فقد اثبتت المصادر رسالة بعثبها الرسول الى يحنه وسروات أهل أيلة ، يستفاد منها ان قدوم الوفد الايلي أنما كـــان بفعل التهديد الذي تضمنته رسالة الرسول هذه والتي ادت مع عوامل اخرى الـــى كتاب الصلح بين الرسول وأهل ايلة ، وجاء في الرسالة :

« سلم أنتم فاني أحمد اليكم الله الذي لا اله الا هو فاني لم أكـــن لاقاتلكم حتى اكتب اليكم ، فاسلم أو اعط الجزية ، وأطع الله ورسوله ورسل رسوله واكرمهم واكسهم كسوة حسنة غير كسوة الغزاء (٤٨) . واكس زيدا كسوة حسنة فمهمـــا رضيت رسلي فاني قد رضيت وقد علم الجزية فان اردتم أن يأمـــن البر والبحر فاطع الله ورسوله ويمنع عنكم كل حق كان للعرب والعجم الا حق الله وحق رسوله وانك ان رددتهم ولم ترضهم لا آخذ منكم شيئا حتى اقاتلكم فأسبـــي الصغير واقتل الكبير فاني رسول الله بالحق أؤمن بالله وكتبه ورسوله وبالمسيح بن مريم انه كلمة الله واني أؤمن به انه رسول الله وات قبل ان يمسكم الشر فاني قد أوصيت رسلي

بكم واعط حرملة ثلاثة اوسق شعيرا وان حرملة شفع لكم واني لولا الله وذلك لم اراسلكم شيئا حتى ترى الجيش وانكم ان اطعتم رسلي فان اللهلكم جار ومحمد ومن يكون منه وان رسلي شرحبيل وابي وحرملة وحريث بن زيد الطائي (٤٩) فانهم مهما قاضوك عليه فقد رضيته وان لكم ذمة الله وذمة محمد رسول الله والسلام عليكم ان اطعتم وجهزوا اهل مقنا الى ارضهم »(٥٠) .

ان اهتمام الرسول بجنوب بلاد الشام اصبح ضرورة ملحة ، ولا سيما بعد هزيمة المسلمين في مؤتة ، وتجمع الروم وقبائل عاملة ولخم وجذام لحرب المسلمين (٥١) . فكان لا بد والحالة هذه ان يعمل الرسول على ترتيب الاوضاع ما بين المدينة والشام لصالح سياسة التوجه نحو بلاد الشام . ولهذا اتخذ الرسول عدة اجراءات تضمن عدم عداء القبائل والحواضر في شمال الحجاز ، وذلك عن طريق ربط سكان هذه المناطق بالمواثيق والعهود وكتب الامان ان لم يكونوا قد ارتبطوا بالاسلام . وتلك ضرورة لحماية قوات المسلمين في صراعها مع الروم الذي بدأ بغزوة مؤتة . وكان الوضع الخاص لايلة يدفع صاحبها وسرواتها للاستجابة لطلب الرسول ، فأيلة مدينة تعتمد على التجارة بالدرجة الاولى ، والرسول أصبح يسيطر على أهم الطرق التجارية البرية المؤدية الى ايلة من اليمن وجنوب بلاد العرب ، ونحن نعرف ايضا ان العام التاسع للهجرة هو عام الوفود الذي يشير الى خضوع الجزيرة للرسول ، وقد ذكر الواقدي ان « دومة (دومة الجندل) وايلة وتيماء ، قد خافوا النبي صلى الله عليه وسلم لما رأوا العرب قد اسلمت »(٥٢) . كما ان فكرة النصارى عن الاسلام لم تكن سيئة حتى الان ، اذ اننا لا نلمس معارضة نصرانية واضحة ضد الدعوة الاسلامية في هذا العهد ، بينما كانت العلاقة بين المسلمين واليهودعلى اسوأ ما تكون فكل هذه العوامل – في رأي الباحث – دفعت يحنه بن رؤبة واهل ايلة للموافقة على دفع الجزية ومصالحة الرسول ، ومن هنا لا نستبعد ان يكون ابن رؤبة واصحابه قد قدموا على الرسول في تبوك حيث تم الصلح الذي نقرؤه في كتاب الآمان الموجه من الرسول الى يحنه بن رؤبة ،وهذا نصه (٥٣) : بسم الله الرحمن الرحيم : « هذا أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنه بن رؤبة واهل ايلة ، سفنهم وسيارتهم في البر والبحر فمن احدث منهم حدثا فانه لا يحول ما له دون نفسه وانه طيب لمن اخذه من الناس ، وانه لا يحل ان يمنعوا ماء يردونه ، ولا طريقا يريدونه من بر وبحر »(٥٤) .

وقد ذكرت بعض المصادر التي اثبتت نص كتاب الصلح أسم الكاتب والشهود ومقدار الجزية . الا ان ابن هشام لم يذكر ذلك ، فقد جاء في هذه المصادر انالكاتب هو جهيم بنالصلت وبعضها اضاف شرحبيل بن حسنة (٥٥) ، واما السبكي فذهب

الى ان علي بن ابي طالب هو الذي كتب كتاب الصلح وفيه شهادة ابي بكر وعمر وعثمان واعلام الصحابة . جاء ذلك في معرض رده على الجرجاني الذي زعم ان ابا حنيفة لم يسبق في كتابة الشروط ، واورد السبكي جواب ابي منصور بان الرسول صلى الله عليه وسلم أول من املى كتب العهود والمواثيق ، منها عهده هذا الى نصارى أيلة ، وذكر ان هذا العهد باق عند أصحابه أيلة ولاجل ذلك يصانون(٥٦) وتذكر اغلب المصادر ان مقدار الجزية التي صولح اهل أيلة عليها كان ثلاثماية دينار في السنة ، وكانوا ثلاثماية رجل أي ان يؤخذ من كل حالم دينار في السنة(٥٧) .

وجاء في بعض الروايات ان الرسول اشترط على أهل أيلة بالاضافة للجزية قرى من يمر بهم من المسلمين (٥٨) .

ويبدو ان الجزية لم تبق على حالها بل زاد فيها الخلفاء من بني امية . فلما جاء الخليفة عمر بن عبد العزيز خفف من اثقال الجزية المفروضة على النصارى في قبرص وايلة ، وكان لا يزداد من اهل أيلة على ثلاثماية دينار شيئا . ويفهم من هذا ان الجزية في البداية كانت على الرؤوس ثم اصبحت جماعية ، اذ لا بد ان يكون نصارى ايلة قد نقصوا او ازدادوا في زمن عمر بن عبد العزيز .

واطلقت المصادر على يوحنا بن رؤبة تارة صاحب ايلة وتارة أسقف ايلة ، واخرى ملك ايلة(٥٩) وقيل ان رسول الله كساه بردة(٦٠) وهي البردة التي اشتراها ابو العباس السفاح بثلاثماية دينار وهي غير البرد التي منحها الرسول – ص – الى كعب بن زهير عندما انشده قصيدته المشهورة التي مطلعها (٦١) :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم اثرها لم يفد مكبول

كما ذكر ايضا أن يوحنا بن رؤبة اهدى للرسول هدية فيها بغلة بيضاء ، فرد رسول الله على هذه الهدية باهداء البرد ليوحنا . وذكر المقريزي ان اليهود كانوا يخرجون رداء عدنيا ملفوفا في الثياب قد ابرز منه قدر شبر فقط ، يزعمون انه برد النبي – ص – وانه بعثه اليهم أمانا (٦٢) . وهذه الرواية وما شابهها انما يقصد بها حرص أهل الذمة في فترات معينة ابراز ما يثبت حصولهم على أمان الرسول او الخلفاء ، وليس بالضرورة ان تكون هذه الادلة صحيحة ، ففي بعضها التزوير واضح (٦٣) .

ويستدل من كتاب الصلح أن أهل أيلة كانوا يعملون بالتجارة البرية والبحرية، كما

يعملون بصيد السمك . وجاء في وصف بعض الجغرافيين لها بانها مدينة اليهود(٦٤) ولعل هذه الاشارة فيها مبالغة ظاهرة لاننا لم نعثر في المصادر انها كانت يهودية في العهود الاسلامية وان كان يقطنها جماعة من اليهود عملوا كبقية سكانها بالتجارة ، وارتبطوا بالتجار في بلاد العرب ، فقد اشتهر ابو رافع الخيبري اليهودي بالتجارة ، وكانت له شهرة بين المواضع التي يكثر فيها اليهود في العهد المدني ، حيث تشير الروايات الى ان اليهود احتكروا تجارة البلح والشعير والقمح في شمال الحجاز (٦٥) ومن المعروف ان اليهود كانوا يعملون بالصيرفة والصياغة في اماكن اقامتهم .

وحظيت أيلة بأهمية خاصة اثناء حركة الفتوح الاسلامية، فقدكانت معبرا لجيوش الفتح المتجهة الى بلاد الشام ، وقد سلكها عمرو بن العاص الذي اخذ طريق المعرقة على ايلة لما بعثه الخليفة ابو بكر قبل فلسطين (٦٦) . واصبحت أيلة بالضرورة محطة للفاتحين نزلها كثير من المسلمين منهم عدد كبير من موالي عثمان بن عفان (٦٧) . ومنهم من نزل في ضواحي ايلة مثل ابو محمد عبدالله بن عبد الحكم بن اعين الحقلي مولى رافع مولى عثمان الذي نسب الى قرية حقل الى جانب أيلة وكان فقيها اماما توفي سنة تسع وعشرين ومائتين (٦٨) ، كما توفي ابو بكر محمد بن مسلم بن شهاب الزهري أمام أهل المدينة في « ادما » و « ادمى » قرب « بدا وشغب » وهما واديان على مرحلة من أيلة(٦٩) والزهري شيخ العديد من المحدثين الذين نسبوا الى ايلة ، فقد اقام بها واخذ الكثيرون عنه(٧٠) وكان الذين نزلوا أيلة يعملون في البداية بسقاية الحجاج (٧١) . وتذكر بعض الروايات ان عمر بن الخطاب نزل أيلة سنة سبع عشرة(٧٢) ، وربما كان ذلك عندما كان في طريقه الى الجابية . وممن نزل ايلة في الفترة الاسلامية المبكرة ابان بن سعيد بن العاص (٧٣) وقد عاتبته خطيبته عائشة ابنة عثمان على تركه المدينة واقامته بأيلة قائلة :

نزلت ببيت الضب لا انت ضائر ... عدوا ولا مستنفعا انت نافع (٧٤)

وبرز اسم أيلة في حوادث الفتنة الاولى ، فتنة عثمان ، فقد كانت مركز استطلاع للاحزاب المتصارعة ، ومنها عاد المصريون لحصار عثمان ، وفي هذه المدينة كانت العيون ترصد ما يجري في عاصمة الدولة الاسلامية ، فقد تبع عبدالله بن سعد بن ابي السرح المصريين حين خرجوا على عثمان واقام في أيلة يترقب ما تسفر عنه الاحداث ، حتى اذا ما علم بمقتل الخليفة عثمان دخل فلسطين واقام بها (٧٥) . وقد تجمع موالي عثمان وانصاره ايضا في ايلة يتسقطون بدورهم اخبار المدينة ، ولما بعث علي بن ابي طالب قيسا بن سعد واليا الى مصر لقيته خيل انصار عثمان في أيلة وسألوه عن حاله ، ولم يجرؤ باخبارهم انه عامل علي على مصر ، بل قال لهم

انه من فالة عثمان يطلب من يأوي اليه وينتصر به ، ومضى حتى دخل مصر حيث اعلن امره (٧٦) . ولما ولي مروان بن الحكم المدينة في مطلع الحكم الاموي عين مصعب بن عبد الرحمن بن عوف على شرطته فقال له هذا : اني لا اضبط المدينة بحرس المدينة ، فابغني رجالا من غيرها ، فأعانه بمائتي رجل من أهل أيلة ، فضبطها ضبطا شديدا(٧٧) . ويرى (ترتون) مؤلف كتاب « أهل الذمة في الاسلام » ان هؤلاء كانوا من النصارى (٧٨) . ولم يوثق ما ذهب اليه ، والغالب ان هؤلاء من انصار الامويين الذين كانوا قد استوطنوا أيلة ومنهم موالي عثمان بن عفان الناقمون على اهل المدينة لموقفهم من عثمان .

وبعد بيعة مروان بن الحكم بالخلافة في ذي القعدة ، ٦٤ هـ ، خرج يريد مصر التي كانت تتبع ابن الزبير ، وخرج معه خالد بن يزيد بن معاوية وعمرو بن سعيد وعبد الرحمن بن الحكم وزفر بن الحارث وحسان بن بحدل ومالك بن هبيرة السكوني في اشراف كثير ، وبعث ابنه عبد العزيز في جيش الى أيلة ليدخل مصر من تلك الناحية (٧٩) . ولما علم ابن الزبير ارسل جيشا يقوده واليه بمصر عبد الرحمن بن جحدم ، واتبعه بجيش اخر يقوده زهير بن قيس البلوي الى أيلة ليمنع عبد العزيز من المسير اليها ، وقد التقى زهير بعبد العزيز بن مروان في مكان قرب أيلة يدعى (بصاق) فقاتله فانهزم زهير ومن معه ، وفي ذلك قال زهير بن قيس لعبد العزيز بن مروان (٨٠) :

منعت بصاقا والبطاح فلم ترم ... بطاحك لما أن حميت ذماركا

وفي بداية قتال عبد الملك بن مروان لابن الزبير وجه عبد الملك طارق بن عمرو مولى عثمان بن عفان ، وامره ان ينزل بين أيلة ووادي القرى فيمنع عمال ابن الزبير من الانتشار ويحفظ ما بينه وبين الشام ويسد خللا ان ظهر له (٨١) ، وفي طارق هذا يقول الشاعر :

ولو تكلمنا ذممنا طارقا ... والدهر قد أمرّ عبدا آبقا (٨٢)

لقد سقت هذه الاخبار لابين كم كان ولاة الامر او الخارجون عليهم ــ منذ مطلع الدولة الاسلامية ــ يعيرون من اهمية لموقع أيلة ويتسابقون للسيطرة عليها ، وارى ان لذلك سببين :

الاول : موقع أيلة كحلقة وصلٍ بين مصر والشام والحجاز ، والاستيلاء عليها يعني

السيطرة على مركز اتصال هام في العالم الاسلامي ، لا سيما وقد وحد الاسلام المنطقة سياسيا فأصبحت أيلة على صلة مباشرة بالمراكز السياسية والتجارية في العالم الاسلامي .

الثاني : كون أيلة مركز تجمع الحجاج والتجار والمسافرين من انحاء العالم الاسلامي اكسبها ميزة استعلامية فريدة ، فمنها يمكن تتبع اخبار العالم الاسلامي بعامة وما يجري في العاصمة الاسلامية بخاصة ، وهذا من الاسباب التي جعلت الحميمة القريبة منها المركز السري للدعوة العباسية .

وفي التقسيمات الادارية التي تمت في عهد عمر بن الخطاب تبعت أيلة جند فلسطين (٨٣) ، واصبحت منذ عهد مبكر مركزا من مراكز الثقافة الاسلامية ، فكانت واحدة من المراكز المشهورة التي عنيت بالسنة الى جانب دمشق وبيت المقدس والرملة وعسقلان والمدينة المنورة (٨٤) .

ولما استتب الامر لعبدالله بن الزبير في الحجاز ارسل الى عبدالله بن عباس ومحمد بن الحنفية : « اما ان تبايعاني او تخرجا من جواري » (٨٥) ، فخرجا من مكة ونزلا بالطائف واقاما هناك ، ثم خرج ابن الحنفية الى أيلة ومنها كتب لعبد الملك بن مروان يستأذنه في القدوم عليه والنزول الى جواره فكتب عبد الملك اليه : « وراءك اوسع لك ، والا حاجة لي فيك » فأقام محمد بن الحنفية عامه ذلك بأيلة الى ان توفي بها (٨٦) .

وفي غمرة الصراع بين عبد الله بن الزبير والامويين احتلت ايلة مكانها الهام في الاحداث السياسية والعسكرية كما هو شأنها دائما ، فالكل يحاول ان يسبق الى السيطرة عليها ، فهي حلقة وصل بين الشام والحجاز ومصر كما اسلفنا .

وفي العهد العباسي كان لايلة دورها في الاحداث ، فلما تولى هارون الرشيد الخلافة قلد الحسين بن جميل ولاية مصر وجمع اليه خراجها وصلاتها ، فتشدد في جباية الخراج ، فخرج عليه ابو الندى مولى بلي في نحو من الف رجل واخذ يقطع الطريق بأيلة ، وخرج مع ابي الندى اهل الحوف ، ثم انضوى اليه رجل من جذام يقال له المنذر بن غالب بن غطفان ومعه سلام النوبي فبلغوا مبلغا عظيما في النهب والسلب والقتل حتى بلغ الرشيد خبرهم فارسل اليهم يحي بن معاذ في جيش من بغداد كما ارسل الحسين بن جميل ايضا اليهم جيشا يقوده عبد العزيز الجزري ، فالتقى العسكران بأيلة ، وقاتلا أبا الندى وجماعته وهزموهم وظفروا بابي الندى الذي ارسل الى بغداد حيث قتل (٨٧) . ونالت أيلة عناية الخلفاء العباسيين واعوانهم

من القادة فانفق في اصلاح طرقها وتحسين احوالها المال الكثير (٨٨) . ذلك ان أيلة كانت تصبح في فترات الاضطراب السياسي ملجأ للفارين من وجه السلطان او العصاة المتمردين نظرا لموقعها وصعوبة مسالك المنطقة المحيطة بها (٨٩) .

وفي خلال حكم الاسرة الطولونية لمصر حصل في أيلة بعض الاصلاحات ، ويبدو ان الطريق المحاذي لايلة في اسفل العقبة قد ضاق بفعل ماء البحر ، فأمر أحمد بن طولون (٢٥٤ - ٢٧٠ هـ / ٨٦٨ - ٨٨٣ م) بانشاء طريق جديد على حافة جبل ام نصيلة بدلا من طريق القوافل القديم الذي كان ضيقا محصورا بين منحدر الجبل من ناحية وبين البحر من ناحية اخرى ، فكانت تطغى عليه الامواج في اغلب الاحيان . وسمي هذا الممر العميق ، عقبة أيلة ، نسبة الى المدينة التي كانت تجاوره (٩٠) .

وفي سنة خمس عشرة واربعمائة (٤١٥ هـ) في خلافة الظاهر لاعزاز دين الله الفاطمي (٤١١ - ٤٢٧ هـ) ، هاجم عبد الله بن أدريس الجعفري ومعه أحد بني الجراح مدينة أيلة ونهبها واخذ منها نحوا من ثلاثة الاف دينار وغلالا ، وسبى النساء والاطفال . ويعود السبب في ذلك الى ان عبد الله عزل من ولاية وادي القرى فراجع حسان(٩١) بن الجراح ليتوسط له لدى الظاهر ليعود لولايته السابقة ، غير ان الظاهر الفاطمي لم يستجب لهذه الوساطة ، ففعل الجعفري ما فعل يساعده الامير من بني الجراح ، الى ان سارت اليه قوات عسكرية من القاهرة (٩٢) .

وتعرضت أيلة للكوارث الطبيعية علاوة على الكوارث السياسية، فقدنقل صاحب النجوم الزاهرة عن ابن الصابىء ان زلزلة حدثت سنة ٤٦٠ هـ أهلكت أيلة ومن فيها وذكر اشياء كثيرة من هذه المقولة (٩٣) . وتعرضت كل من غزة واللد والكرك سنة ٦٩٢هـ الى الزلازل فتهدمت فيها دور وكذلك حدثت هزة اخرى سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م اصابت المنطقة الجنوبية من الاردن الحالي وشملت معظم افريقيا وسورية وقبرص ، ولا نعلم مقدار ما احدثته هذه الهزات من الخسائر في أيلة والمناطق المجاورة لها (٩٤) .

ولعل أهل أيلة لم يتأثروا كثيرا بكارثة الجراد التي اصابت منطقة شمال الجزيرة وبلاد الشام في مستهل ربيع الاول من سنة ٧٤٦هـ/١٣٤٥م بشكل مباشر لان الايليين كانوا يعتمدون في معيشتهم على التجارة وتقديم الخدمات والصيد البحري(٩٥) وفي عام ٧٤٩هـ تعرضت غزة وبلاد الشام بعامة للطاعون الذي افنى كثيرا من السكان في مصر وبلاد الشام ، ولا بد ان أيلة اصابها ما أصاب غيرها مع ان المصادر ركزت على وفيات مصر ودمشق وغزة (٩٦) .

ولما اصبحت ايلة غير صالحة للملاحة نقلت الى الجنوب من موقعها الاول واقيمت المدينة في هذه الجهة ، وهجر الناس أيلة القديمة منذ القرن التاسع ، أما مدينة ويلة الجديدة ـ واسمها مشتق من « أيلة » ـ فكانت في عهد الخلفاء مركزا للثقافة العقلية والثقافية المادية (٩٧) .

ومع بداية الحروب الصليبية اصبحت ايلة محل صراع مرير بين الفرنجة والمسلمين ، ذلك ان الصليبيين وضعوا نصب اعينهم منذ البداية السيطرة على شمال البحر الاحمر وذلك لتحقيق عدة اهداف منها : فصل مصر عن بلاد الشام ، والاستئثار بتجارة البحر الاحمر ، وفي هذا ما فيه من اضعاف لقوة المسلمين المادية والسياسية والمعنوية مقابل زيادة قوة الصليبيين ، ثم الاستيلاء على المدينة ومكة لضرب الروح المعنوية لدى المسلمين لحرمانهم من اقدس مقدساتهم (٩٨) . كما انهم باستيلائهم على هذه المنطقة يمنعون غارات القبائل المتتالية على مملكة القدس الصليبية ، لذلك جرد بلدوين الاول سنة ٥١٠هـ/ ١١١٦م حملة على أيلة وتمكن من احتلالها وضمها الى الاقليم الذي كان يحكمه كرك مونتريال Crac don Montreal ، واقاموا الحصون في جزيرة فرعون أمام أيلة ، كما أنشأوا في المدينة نفسها حصنا صغيرا وشحنوه بالمقاتلة ، فمنعوا بذلك الاتصال بين مصر وبلاد الشام (٩٩) .

أصبحت القوة الصليبية الجديدة في ايلة وشمال البحر الاحمر عقبة في وجه التجارة ، كما اصبح الحجاج يتعرضون للاذى والضرر في طريقهم على ايدي الصليبيين في هذه المنطقة (١٠٠) .

وامام خطورة سيطرة الاعداء على هذه المنطقة الحيوية ، صمم صلاح الدين الايوبي على تطهير ايلة وما جاورها من الصليبيين ، فسار من مصر قاصدا أيلة وعمل مراكب مفصلة وحملها قطعا على ظهور الجمال الى ميناء عيذاب حيث أعاد تركيبها وابحر بها نحو أيلة فحاصرها برا وبحرا حتى فتحها في العشر الاول من شهر ربيع الاخر سنة ٥٦٦هـ (١٠١) ويمكن ادراك مدى الاهمية التي كان صلاح الدين الايوبي يوليها لاحتلال أيلة من الرسالة التي كتبها القاضي الفاضل ـ كاتب صلاح الدين ـ الى الخليفة في بغداد يبشره بالفتح ويصف له ما لاقاه المسلمون من عناء في فتحها ، نقتطف منها : « ... ومنها قلعة بثغر أيلة كان العدو قد بناها في بحر الهند ، وهو المسلوك منه الى الحرمين واليمن وغزا ساحل الحرم فسبى منه خلقا ، وخرق الكفر في هذا الجانب خرقا ، فكادت القبلة أن يستولى على أصلها ، ومساجد الله ان يسكنها غير أهلها ، ومقام الخليل

صلوات الله عليه ان يقوم به من ناره غير برد وسلام ، ومضجع الرسول شرفه الله ان يتطرق من لا يدين بمن جاء به من الاسلام ، ففتح الله هذه القلعة وصارت معقلا للجهاد . وموئلا لسفار البلاد ، وغيرهم من عباد العباد ، فلو شرح ما تم بها للمسلمين من الاثر الجليل ، وما استد من خلاتهم ، واحرق من زروع المشركين ورعي من غلاتهم ، الى ان ضعفت ثغورهم ، واختلت امورهم ، لاحتيج فيه الى زمن يشغل عن المهمات الشريفة لسماع مورده وايضاح مقصده(١٠٢) .

ويتبين من هذه الرسالة ان الفرنج غزوا سواحل الحجاز قبل عام ٥٦٦هـ/١١٧٠م وهددوا الحرمين الشريفين خلافا لما هو متعارف عليه عند المؤرخين بأن النشاط البحري الصليبي لم يصل الى قبالة الحرمين الا بعد تولي ارناط امارة الكرك ، ودليل ذلك ايضا ما جاء في الرسالة السابقة :« ومن هؤلاء الكفار صاحب صقلية . . الى ان وصل منها في السنة الخالية الى الاسكندرية امر رائع وخطب هائل ما أثقل ظهر البحر مثل حمله ولا ملأ صدره مثل خيله ورجله . . » .

ومن المعروف ان غزوة صاحب صقلية للاسكندرية حدثت في سنة ١١٧٤/٥٦٩ م كما يتبين من تاريخ الرسالة أي ٥٧٠هـ/١١٧٤ م (١٠٤) .

وعليه يمكن القول بان الصليبيين بدأوا نشاطهم البحري في البحر الاحمر قبل امارة ارناط على الكرك ، غير ان هذا النشاط لا يقارن بضخامة نشاط ارناط وغزواته المنظمة التي كان يوجهها من الكرك للسيطرة على البحر الاحمر لاعتراض السفن التجارية وتهديد طريق البر ايضا (١٠٥) . ومن هنا ندرك ان صلاح الدين كان مضطرا للحملة السابقة حتى لا يحقق الصليبيون اهدافهم ويعيثون في منطقة الحجاز والبحر نهبا وسلبا وقرصنة وفصلا بين مصر والشام .

وحتى يضمن صلاح الدين امن أيلة وطرق المواصلات بين مصر والشام والحجاز اخذ يشن الحملات المتواصلة والشديدة على كل من قلعتي الشوبك والكرك ، وكان امير الكرك ، ارناط ، ينتهز الفرص ليشن بدوره الغارات على أيلة وعلى طرق القوافل البرية والبحرية ، ذلك انه وضع نصب عينيه تحقيق الاهداف الصليبية السابقة في المنطقة ، اي احتلال منطقة الحجاز والبحر الاحمر وهدم المقدسات الاسلامية او نقل جثمان الرسول صلى الله عليه وسلم الى الكرك واستخدامه وسيلة ضغط على المسلمين لاذلالهم وتحصيل الضرائب منهم (١٠٦) .

وفي غمرة هذا الصراع عزم ارناط على اعادة احتلال أيلة مهما كلفه ذلك من

ثمن . فأعد مراكب مفككة في الكرك ونقلها الى بحر القلزم ـ كما سبق وعمل صلاح الدين ـ وذلك عام ٥٧٨ هـ/١١٨٢ م ، وهاجم أيلة وتمكن من هزيمة حاميتها واحتلالها ثانية ، ثم حاصر جزيرة فرعون ولم يتمكن من فتحها ، فترك قسما من سفنه يحاصر القلعة في الجزيرة ويراقب مداخل البحر الاحمر ، وانطلق بالقسم الثاني نحو الجنوب يريد تملك الحجاز كما قال الذهبي : « وفيها سار الفرنج بحرا وبرا لتملك الحجاز »(١٠٧) ، فهاجم ميناء عيذاب المصري واحرق السفن ونهب ما فيها ، كما استولى على مراكب الحجاج القادمة من مدينة جدة ، كما توغلت قوة صليبية في بر عيذاب واسروا قافلة كبيرة من الحجاج كانت في طريقها الى الديار الحجازية .. وواصلت القوة البحرية الصليبية تقدمها نحو الجنوب حتى سواحل تهامة واليمن (١٠٨) .

أثارت هذه الحملة مشاعر وحماس المسلمين فدعوا الى الجهاد المقدس لتخليص منطقة أيلة من خطر الفرنجه ، وتبدو هذه المشاعر واضحة في الرسائل التي كتبها القاضي الفاضل الى الخليفة في هذه الفترة (١٠٩) .

ارسل صلاح الدين الى أخيه الملك العادل ابي بكر بن أيوب بمصر امرا بمواجهة الحملة الصليبية الجديدة ، فعهد هذا بدوره الى القائد البحري حسام الدين لؤلؤ (١١٠) ، بالمهمة ، فأعد لؤلؤ اسطولا في الاسكندرية ومصر ونقله الى أيلة برا ، وهناك أعاد تركيبه وشحنه بالمقاتلة من المغاربة البحريين . وكان مقاتلو جزيرة فرعون المحاصرون قد تضايقوا من طول الحصار الصليبي فانقطع الماء عنهم حتى شعروا بقرب الهلاك ، فارسل الله عليهم امطارا غزيرة في شهر شعبان سدت حاجتهم وانقذتهم بعد يأس ، فقويت معنوياتهم وخزنوا من الماء ما يكفيهم لشهرين وصمموا على الصمود للحصار . بدأ حسام الدين اول اعماله العسكرية ضد المحاصرين فانزل بهم ضربة قاصمة وذلك في شعبان من سنة ٥٧٨هـ/ كانون الاول ١١٨٢م ، فاحرق السفن الصليبية بالنار الاغريقية واسر وقتل عددا كبيرا منهم(١١١) واما من تمكن من الهرب الى البر فقد ادركهم العربان في تلك الشعاب وقبضوا عليهم ولم ينج منهم أحد . وبعد جزيرة فرعون توجه حسام الدين جنوبا لملاحقة الاسطول الصليبي فمر على ميناء عيذاب ولم يجد به اثرا لهذا الاسطول (١١٢) اللهم الا الدمار الذي الحقه الصليبيون بالميناء والسفن التي كانت به ، وتابع حسام الدين مطاردة الاعداء فوجدهم قد بلغوا ميناء رابغ (١١٣) الحجازي حيث اعترضوا تجارا فنهبوا بعضهم واسروا اخرين واشاعوا الذعر في سواحل الحجاز ، وتوجهوا نحو ساحل مكة وفي نيتهم الاستيلاء على المدينة المنورة ، فتركوا مراكبهم في الميناء

المواجه للمدينة بحراسة عدد من جنودهم ، وسار ارناط ومعه فرسان الداوية وهم نحو ثلاثماية مقاتل يساعدهم بعض الاعراب المرتزقة من اهالي تلك الجهات ، وساروا جميعا حتى قربوا من المدينة ، وقد انهكتهم حرارة الشمس المحرقة وصعوبة الطريق الوعرة ، ومع ذلك كله صمم ارناط على الوصول الى قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ،

ادرك لؤلؤ مراكب اعدائه في الحوراء(١١٤) فاحرقها واطلق الاسرى من التجار ورد اليهم ما أخذ منهم ، ونزل الى البر بقسم من قواته حيث قدم لهم كثير من الاعراب المساعدة ، كما قدموا لهم الخيل للركوب ، وتبعوا اثار ارناط مسرعين حتى لا يتمكن الاخير من تحقيق اهدافه . وبعد خمسة ايام تمكنوا من اللحاق به على بعد يوم من المدينة ، ادرك ارناط ان لا سبيل للعودة الى اسطوله في البحر الاحمر ، وفر جنده الى الجبال ، وفر هو نحو الشمال متخفيا يبغي العودة الى منطلقه ، وتمكنت قوات حسام الدين من قتل واسر معظم جند ارناط الذي استطاع الوصول الى قواته في تبوك والعودة بهم وبمن نجا معه الى الكرك (١١٥) .

وعاد لؤلؤ باسراه وكانوا ماية وسبعين أسيرا ، فارسل اثنين منهم الى مكة المكرمة حيث نحروا في منى في موسم الحج ليكونا عبرة لمن يعتبر (١١٦) واما البقية فقد حملها معه الى مصر ، وكان دخولهم مصر عظيما ، ثم وزعوا على سائر المدن المصرية ليقتلوا بها ، وقد شاهد ابن جبير عددا منهم في الاسكندرية اثناء وجوده بها (١١٧) عام ٥٧٨ هـ/١١٨٣ م وقد اركبوا على الجمال بالمقلوب وطيف بهم في شوارع الاسكندرية بين قرع الطبول والنفخ في الابواق ، ثم قتلوا ولقد استغرقت حملة ارناط وعيثه في منطقة البحر الاحمر فسادا زهاء اربعة اشهر من شعبان حتى ذي القعدة من العام ٥٧٨هـ/١١٨٢ ـ ١١٨٣ م . وفي حملة ارناط هذه قال ابن الوردي(١١٨)

لقد طمع البرنس بمستحيل ... فجر لقومه سفك الدماء
ولو ترك النبي بلا دفاع ... لدافع عنه املاك السماء

ومما يجدر ذكره انه في الحصار الثاني لايلة وقلاعها دمرت حصون الجزيرة وهدم جانب من المدينة ، ولكن سرعان ما استعادت مجدها في عهد حكام حصن الكرك من بني ايوب ومن المماليك من بعدهم . وكانت الفتن التي نشبت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر سببا في القضاء على تجارة أيلة وفي دمار المدينة نفسها وبقي منها فقط القلعة الموجودة على ارض القارة لتحمي العقبة طريق

الحجاج الوافدين من مصر ، وسميت المدينة بعد ذلك باسم العقبة فقط واسقط من التسمية اسم « أيلة »(١١٩) . وبعد هزيمة الصليبيين لم نعد نجد في المصادر اخبارا ذات قيمة عن أيلة ، فقد ذكر ان فئة من اليهود كانت تسكنها ، كما بقيت أيلة محطة لقوافل الحجاج ، ثم اصبحت ملجأ للمتمردين على الدولة او الراغبين في العصيان ، او سجنا للخصوم في العهد المملوكي والعثماني(١٢٠) .

لقد رافق ، جلدن Gildden بعثة المدارس الامريكية للدراسات الشرقية التي نقبت في موقع تل الخليفة ، وذلك تحت ادارة نلسون جلك في ربيع ١٩٤٠ . درس جلدن النقوش الموجودة على جدران مدخل حصن العقبة ونشرها (١٢١) ، واورد النص على النحو التالي :

أ ـ الكتابات الموجودة على جدران الجهة اليمنى من مدخل الحصن تقول :

القلعة المباركة السعيدة مولانا المالك الملك الاشرف ابو النصر قانصوه الغوري سلطان الاسلام والمسلمين قاتل (الكفرة والمشركين) .

ب ـ الكتابات الموجودة على جدران الجهة اليسرى من المدخل تقول :

محيي العدل في العالمين .. السلطان الملك الاشرف ابو النصر قانصوه الغوري أعز الله انصاره بمحمد وآله وكان (Sic) هذه القلعة المباركة ذات الامير خاير بك العلاي (العلائي For) المعماري ... بتاريخ (سنة) عشر (......)

وقداستخلص جلدن ان باني القلعة هوالسلطان المملوكي قانصوه الغوري ،واكمل الفراغات المطموسة في الجزء الثاني من الكتابات مصححا النص كما يلي :

بتاريخ سنة عشرين وتسعماية أو تسعماية وعشرين،اي مايساوي ١٥١٤ ــ ١٥١٥م.

وقد ذكر ابن اياس في كتابه (بدائع الزهور في وقائع الدهور) اسم الامير خاير بك العلاي المعروف بالمعمار في آخر اسماء الامراء المقدمين الستة والعشرين في زمن السلطان قانصوه الغوري سنة ٩٢٢ هـ وقال : « والامير خاير بك المعمار احد المقدمين وكان مقيما بثغر رشيد بسبب عمارة الابراج التي هناك والصور »(١٢٢) وكما هو واضح من النص الذي نشره جلدن فان خاير بك هو باني قلعة أيلة كما هو الباني للعديد من المنشات العمرانية في اواخر العهد المملوكي وبخاصة عهد السلطان قانصوه الغوري . وذكر ابن اياس ان خاير بك هذا لم يرافق قانصوه

الغوري في حملته الى شمال سورية (١٢٣) لمواجهة السلطان سليم العثماني في معركة مرج دابــق سنة ١٥١٦ م . وانما تخلف مع مجموعة الامراء التي بقيت في القاهرة . وبعد معركة الريدانيــة ودخول الجيش العثماني القاهرة ، تعرض بيت خاير بــك المعمار للنهب على ايــدي الجند العثمانيين الذين نهبوا بيوت الاعيان المصريين ، ولم يذكر ابن اياس عن نهاية خاير بك شيئا . بالاضافة الى ترميم القلعة فقد اصلح قانصوه الغوري الطريق الى العقبة وبنى فيها الخان السالف الذكر تحيط الابــراج ببواباته ، وخصص له الحواصل لمنفعة الحجــاج (١٤) .

٤ ــ بدات اسماء الايليين تظهر منذ عهد مبكر (القرن الاول الهجري) . ولا عجب ان وصف السمعاني ايلة بقوله : خرج منها جماعة من العلماء والفضلاء مــن كــل نوع (١٢٥) فقد شغل عبدالله بن سعد الايلي القضاء في عهد عمر بن عبد العزيز (١٢٦) وذكر الاصفهاني ان عبدالله بن يونس صاحب ايلة كان ملحنا ، واورد له لحنا فــي اخباره عن الوليد بن يزيد (١٢٧) . وحل بأيلة العديد مــن الخلفاء ورجال الدولــة وهم في طريقهم الى الحج او في انتقالهم من قطر الى اخــر ، ولهذا ما له من تأثير في الحياة العامة لمدينة أيلة (١٢٨) التي اصبحت مركزا مــن مراكز الثقافــة فــي بلاد الشام نسب اليها عدد من العلماء والمحدثين نذكر منهم (١٢٩) .

١ ــ ابو زيد ، يونس بن زيد بن ابي النجاد الايلي ، المتوفى في بضع وخمسن ومائة وهو من موالي معاوية بن ابي سفيان ، وهو من أبــرز تلاميذ ابــن شــهاب الزهري ، روى عن اخيه ابي علي بن يزيد ، ونافع مولى ابن عمر ، وهشــام بن عروة وعمارة بن عزية وعكرمة وغيرهم .

وروى عنه كثيرون منهم جرير وعمرو بن الحارث وابن اخيه عنبســه بن خالد الايلي ، والليث والاوزاعي وسليمان بن بلال ، وطلحة بن يحيى الزقي وابن المبارك وابن وهب والقاسم بن مسرور ومفضل بن فضالة وشبيــب بن سعد الحبطي ، وبقية بن الوليد ، وحسان بن ابراهيم الكرماني ، وعبداللــه ابن رجاء المكي، وابو صفوان عبد الله بن سعيد الاموي وعبد الله بن عمر النميري وعثمان بن عمر بن فارس واخرون . وقيل فيه انه ثقة حلو الحديث كثيره ، كما قيل فيه غير ذلك (١٣٠) .

٢ ــ عقيل بن خالد الايلي القرشي الاموي مولى آل عثمان بن عفان ، قيل توفي بمصر سنة احدى او اثنتين واربعين ومائة . ويكنى ابو خالد ، روى عن الزهري ، وعن ابيه وعمه زياد ونافع مولى ابن عمر وعكرمة والحسن وسعيد ابن ابي

سعيد الخدري وسعيد بن سليمان بن زيد بن ثابت وسلمة بن كهيل وغيرهم . وكان عقيل في الشرطة فلازم الزهري الذي كان بدوره اميرا للجند وروى عنه ، وكان الزهري اذا ما رأى عقيلا اصيب بالنعاس من السهر خاطبه قائلا : ما انت من سمار قريش الذين قال الله فيهم : « سامرا تهجرون » (١٣١) .

٣ ـ هارون بن سعيد الايلي . روى عن ابن عيينة وابن وهب وابي ضمرة وخالد بن ابي نزار ومؤمل بن اسماعيل وبشر بن بكر ، وعنه مسلم وابو داود والنسائي وابن ماجه وابو حاتم ومحمد بن وضاح وبقي بن مخلد والمعمري وزكريا الساجي وعاصم بن رازح وعمير بن محمد البحيري وعلي بن احمد بن علان وابن اخيه مسعدة بن حازم المصري واسامة بن يحيى التجيبي وابو جعفر الطحاوي وابو بكر بن ابي داود ، وآخرون منهم ابو العباس الشيباني النسوي محدث خراسان في عصره . وهو ممن تعرض للمحنة في خلق القرآن في زمن الواثق سنة ٢٢٧ هـ ووصف بالجراة في القول ، وقيل انه كان مقدما في الحديث ثقة فاضلا وتوفي سنة ٢٦٣ هـ وقيل بل سنة ٢٥٣ هـ (١٣٢) .

واشتهر في الحديث أيضا ابنه ابو محمد عبد الرحمن بن هارون المتوفى في شوال سنة ثمان وسبعين ومئتين .

٤ ـ محمد بن عزيز بن عبدالله بن زياد بن خالد بن عقيل بن خالد الايلي ، ابو عبدالله العقيلي مولى بني امية توفي سنة ٢٦٧ هـ بأيلة . روى عن ابن عمه سلامة بن روح وسليمان بن سلم الجنائزي ويعقوب بن زهدم بن الحارث . وعنه النسائي وابن ماجه وابو داود في غير السنن ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم وهو من اقرانه ويعقوب بن سفيان ومحمد بن مسلم بن واره وابو حاتم وابن ابي عاصم وجعفر الغرياني وحرمي بن ابي العلاء وبكر بن سهل الدمياطي وزكريا الساجي وابن خزيمة وابو عوانة وعمرو بن ابي الطاهر المصري وعلي بن اسحاق بن زياد وعبد الله بن محمد بن مسلم الاسفرائني وابو بكر محمد بن حمدون بن خالد بن يحيى عن يعقوب بن سفيان قال : دخلت ايلة فسألت عن كتب سلامة بن روح ووجدت له فيها حديثا (١٣٣) .

٥ ـ ابو عثمان عنبسه بن خالد بن يزيد بن ابي النجاد الايلي من موالي بني امية . روى عن عمه يونس بن يزيد الايلي ، وابن جريج وابن المبارك ورجاء بن جميل . وروى عنه ، عبد الله بن وهب وهو من اقرانه ، ومحمد بن مهدي الاخميني وهاشم بن محمد الربعي وأبو محمد الاموي واحمد بن صالح المصري ، وقل انه كان على

خراج مصر ، توفي بأيلة في جمادى الاولى سنة ثمان وتسعين ومائة (سنة ١٩٨ وقيل سنة ١٩٧) وقيل عنه ثقة كما قيل ضعيف الحديث . واتهم بأنه كان يعلق النساء بالثدي عندما كان على خراج مصر (١٣٤) .

٦ ـ زريق بن حكيم الايلي ، وقيل بن الحكم ، وهو الذي كتب اليه الخليفة عمر بن عبد العزيز : « انك كنت تقضي بالمدينة بشهادة الشاهد الواحد ويمين صاحب الحق .. انا كنا نقضي بذلك بالمدينة فوجدنا أهل الشام على غير ذلك ، فلا تقض الا بشهادة رجلين عدلين أو رجل وامرأتين » . وروى عن عمرة بنت عبد الرحمن وسعيد بن المسيب والقاسم بن محمد وعمر بن عبد العزيز وغيرهم، وروى عنه ابنه ومالك وابن عيينه ويونس بن يزيد الايلي وعقيل الايلي ، وسعيد بن ابي أيوب وغيرهم وقيل عنه ثقة (١٣٥) .

٧ ـ طلحة بن عبد الملك الايلي روى عن القاسم بن محمد وزريق بن حكيم ، وروى عنه اخوه القاسم بن سرور والاوزاعي ، ومالك بن انس ، وعبيد الله وعبد الله ابنا عمر ويحيى القطان وقيل عنه ثقة (١٣٦) ، قد روى خبر معاملة عمر بن عبد العزيز لاهل أيلة (١٣٧) .

٨ ـ عبد الجبار بن عمر الايلي ويكنى أبا الصباح وهو من موالي بني أمية . روى عن الزهري وابن المنكدر ونافع مولى ابن عمر وربيعة ويحي بن سعيد الانصاري واسحاق بن عبد الله بن أبي فروة وغيرهم ، وعنه رشدين بن سعد وابن المبارك وابن وهب وابو عبد الرحمن المقرىء وسعيد بن أبي مريم وغيرهم ، قيل عنه ضعيف، وذكره البخاري في فصل من مات من الستين الى السبعين ومائتين (١٣٨)

٩ ـ ابو صخر يزيد بن ابي سمية الايلي كان من العباد يصلي ليله اجمع ويبكي وكان يوافي المواسم كلّ عام على محمد بن المنكدر وصفوان بن سليم ويزيد بن خصيفة وسليمان بن سحيم وابي حازم فيلقون عمر بن ذر فيقص عليهم ويذكرهم أمر الآخرة فلا يزالون كذلك حتى ينقضي الموسم ، ثم لا يلتقون بعد الا في كل موسم . روى عن ابن عمر وعمر بن عبد العزيز وابي بكر بن عبد الرحمن وهشام بن اسماعيلّ ، وروى عنه هشام بن سعد المدني وابو الصباح سعدان بن سالم الايلي وعبد الجبار بن عمر الايلي ، وقيل عنه صالح الحديث ثقة (١٣٩) .

١٠ ـ سعد بن عبد الله بن سعد الايلي توفي سنة ثلاث وسبعين ومائة ، روى عن محمد بن كعب القرظي والقاسم بن محمد وعنه صخرة بن ربيعة وقيل عنه ثقة ولا باس به (١٤٠) .

١١ ـ سعدان بن سالم الايلي ويكنى ابو الصباح . كان أحد النفر الذين وفدوا على عمر بن عبد العزيز ، روى عن يزيد بن ابي سمية ابي صخر الايلي وسهل بن صدقة مولى عمر بن عبد العزيز وذكر في الثقات(١٤١) .

١٢ ـ يحي بن صالح الايلي روى عن اسماعيل بن علية وعنه يحي بن بكير المصري وذكر أن ابن بكير لقيه بأيلة سنة سبع وتسعين وذكر له احاديث وقال كلها غير محفوظة وذكر من الضعفاء (١٤٢) .

١٣ ـ شيبان بن فروخ ، وهو شيبان بن ابي شيبة الحبطي مولاهم ابو محمد الايلي . ولد في حدود سنة ١٤٠ ومات سنة ست وقيل سنة خمس وثلاثين ومائتين . روى عن جرير بن حازم وابي الاشهب العطاردي وابان بن يزيد العطار وحماد بن سلمة وسلام بن مسكين ومهدي بن ميمون وعبد الوارث بن سعيد وسليمان بن المغيرة والصعق بن حزن وعبد العزيز بن مسلم وابو داود . وعنه ابو داود والنسائي بواسطة ابي بكر الاحمدين بن ابراهيم العطار وابن علي بن سعيد المروزي وزكريا بن يحيى السجزي وابو يعلى والحسن بن سفيان وبقي بن مخلد وجعفر بن محمد الغرياني وعبد الله بن أحمد وعبدان الاهوازي وعثمان الدارمي وموسى بن هارون وابو القاسم البغوي وغيرهم . قيل كان ثقة صدوقا (١٤٣).

١٤ ـ خالد بن نزار بن المغيرة بن سليم الغساني مولاهم الايلي . وقال ابن سعد مات سنة ٢٢٢ . روى عن ابراهيم بن طهمان وسفيان بن عيينه وعنه مالك والقاسم بن مبرور والاوزاعي ونافع بن عمر الجمحي وابن ابي الزناد ومحمد بن ادريس الشافعي وهو من اقرانه وغيرهم . وعنه أحمد بن صالح المصري وابو الطاهر بن السرح وابنه طاهر بن خالد ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم وهارون بن سعيد الايلي وجماعة . وذكر في الثقات (١٤٤) .

١٥ ـ الحكم بن عبد الله بن سعد بن عبد الله الايلي ، مولى الحارث بن الحكم بن ابي العاص، قيل انه سمع الحديث من انس بن مالك وحدث بدمشق وغيرها عن الزهري ونافع وغيرهما وروى عنه يحيى بن حمزة والليث بن سعد وغيرهما ، وثقه جماعة وضعفه وكذبه آخرن (١٤٥) .

١٦ ـ الحسين بن محمد بن الحسن بن عامر بن احمد ابو طاهر الانصاري الخزرجي المقري المعروف بابن خراشة الايلي من أهل أيله كان امام المسجد الجامع بدمشق قرأ القرآن على المظفر الاصبهاني واقرانه وحدث عن الحنائي وطبقته توفي سنة ثمان وعشرين واربعمائة وكان ثقة نبيلا مامونا اشعري المذهب (١٤٦) .

١٧ ـ داود بن ايوب بن سليمان بن عبد الاحد ويقال بن عبد الواحد الايلي حدث عن ابيه وهشام بن عمار وابراهيم بن المنذر وروى عن ابن الاعرابي وغيره(١٤٧).

١٨ ـ اسحاق بن اسماعيل بن العلاء و قيل ابن عبد الاعلى الايلي كنيته ابو يعقوب . روى عن سفيان بن عيينة وعبد المجيد بن عبد العزيز بن ابي رواد وسلامة بن روح وغيرهم . وعنه النسائي وابن ماجه وابن واره ومكحول البيروتي وعبد الله بن مسلم المقدسي وغيرهم . توفي بأيلة سنة ٢٠٨ هـ(١٤٨) .

١٩ ـ احمد بن عبد الله بن زكريا الايلي(١٤٩) .

٢٠ ـ اسماعيل بن حفص بن عمر بن دينار ويقال ميمون الايلي (١٥٠) .

٢١ ـ عمر بن سعيد الايلي (١٥١) .

٢٢ ـ حسين بن رستم الايلي (١٥٢) .

٢٣ ـ شهاب الدين ابو العباس احمد بن محمد بن احمد بن محمد بن عمر الايلي(١٥٣).

٢٤ ـ ابو عبد الله الايلي (١٥٤) .

٢٥ ـ عبد الله بن سعد الايلي ت ٢٢٩ هـ (١٥٥) .

٢٦ ـ عبد الله بن يونس الايلي (١٥٦) .

٢٧ ـ سعيد بن الهيثم الايلي (١٥٧) .

٢٨ ـ حسان بن أبان بن عثمان ابو علي الايلي ت ٣٢٢ هـ (١٥٨) .

٢٩ ـ مره بن عمرو الايلي (١٥٩) .

٣٠ ـ أحمد بن الحسين المصري الايلي ت ٢٩٢ هـ (١٦٠) .

هذا وزار العديد من العلماء أيلة واقاموا فيها لفترات متقطعة اذكر من بينهم عبد الرحمن بن اسحق ابو القاسم الزجاجي النحوي من أهل بغداد وسكن طبرية وايلة وحدث بدمشق وصنف في النحو مختصرا (١٦١) ، وكذلك حل بها عبد الله بن المبارك المحدث المشهور حيث جعله ابن سعد فيمن حل فيها (١٦٢) وقد ترك المدينة بعض العلماء ونزلوا أيلة طلبا للعزلة ، فقد قيل للزهري ، يا أبا بكر : « طلبت العلم حتى اذا كنت وعاء من اوعيته تركت المدينة وخرجت عنها » قال : « انما كنت انزل المدينة والناس اذ ذاك اناس » (١٦٣) وكان الزهري قد حل في أيلة .

الحواشي :

(١) N. Glueck, Bulletin of the American Schools of Oriental Research, 71 (1938) pp. 3f., 75 (1939) 8f.

وانظر ايضا محمود ابو طالب ، تاريخ الاردن وفلسطين في العصور القديمة ، عمان ١٩٧٨ ، ص ٢٤ .

(٢) H. W. Glidden, The mumluk Origin of the Fortified Khan, At Al-Akabah, Jordan, P. 116-118.

وانظر مقالته عن ايلة في : The Ency. of Islam. 2, Vol, 1 PP. 783 - 84.

(٣) موسل «Musil» دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية ، مادة « ايلة » .

(٤) انظر اليعقوبي ، البلدان ٨٥ ، ٩٤ ، والهمداني ، صفة جزيرة العرب ص ٣ ، ٥٨ . والمقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ص١٧٨ – ١٧٩ والبكري ، معجم ما استعجم ٢١٦/١ . وابن الفقيه الهمداني ، البلدان ص ٢٥ وما بعدها وابن حوقل صورة الارض ص ١٥٣ ، والاصطخري ، المسالك والممالك ص ١٤ ، ٥٩ ، والحربي ، المناسك ، صفحات متفرقة (انظر ثبت الاماكن) ، والقزويني ، آثار البلاد واخبار العباد ، ص١٥٣ . وأبو الفداء ، تقويم البلدان ص ٢٥ ، والحميري ، الروض المعطار ص ٧٠ – ٧١ .

(٥) المرجع السابق .

(٦) المرجع السابق .

(٧) سورة الاعراف ، آية ١٦٣ مكية . وانظر المقدسي ، المرجع السابق . والمقريزي ، خطط ص ٣٤٥/١ .

(٨) المقريزي ، خطط ٣٤٥/١ . عينونة : قيل هي من قرى بيت المقدس ، وقيل قرية من وراء البثنية من دون القلزم في طرف الشام . ياقوت ، معجم البلدان ، مادة « عينون » .

(٩) المرجع السابق ، ص ١٧٩ .

(١٠) ياقوت ، معجم البلدان « أيلة » ٢٩٢/١ . البكري ، معجم ما استعجم ٢١٧/١ ، الهمداني ، صفة ٣٣٤ . ابن حوقل ، صورة الارض ١٥٣ .

(١١) ياقوت ، معجم البلدان « أيلة » ٢٩١/١ . المكلب : الذي يعلم الكلاب أخذ الصيد ، لسان العرب « كلب » . ضاس موضع بين المدينة وينبع ، ياقوت ، معجم البلدان « ضاس » .

(١٢) ياقوت ، معجم « أيلة » وانظر الحميري الروض المعطار ص ٧٠ – ٧١ والبكري ، المرجع السابق ٢١٧/١ .

(١٣) جاء في اللسان أن « أيلة » : قرية عربية وورد ذكرها في الحديث ، وهو بفتح الهمزة وسكون الياء ، البلد المعروف فيما بين مصر والشام . وايل : اسم جبل . انظر لسان العرب « أيل » . صارة الجبل : راسه وقيل اسم جبل قرب وادي القرى . ياقوت ، معجم البلدان « صاره » .

(١٤) اراد كالمتابي أبا اللسان « أيل » .

(١٥) وقيل الايكة بلدة معينة كانت في قديم الزمان فخربت . انظر رواية البيهقي في نشوة الطرب ٨١٢/٢ .

(١٦) نجيب ميخائيل ابراهيم ، سورية ص ٦٧ .

(١٧) سفر الملوك الاول الاصحاح : ٩ آية ٢٦ . ومما يجدر ذكره ان سليمان استعان بالملك حيرام ملك صور الفينيقي الذي بنى له السفن وزوده بالنواتي ، انظر نفس الاصحاح .

(١٨) سفر الايام الثاني ، الاصحاح ٢٦ آية : ٢ .

(١٩) انظر حول هذا الموضوع سفر الملوك الثاني ، الاصحاح ١٤ آية ٧ وسفر الايام الثاني ، الاصحاح ٢٦ الايات ٦ - ٩ والاصحاح ٢٨ الآيات ١٦ - ١٩ وها ستنج قاموس الكتاب المقدس ١٨٤/١ وما بعدها. Musil, Hegaz, P. 274, وجواد علي ، المفصل ٦٤٣/١ .

(٢٠) نجيب ميخائيل ، المرجع السابق ص ٣٠٢ .
وانظر ايضا
G.A. Smith, **Historical Geography of the Holy land,** (London 1894, 1968) P. 367.

(٢١) انظر مفيد رائف العابد ، حول مصادر تاريخ العرب ، مجلة دراسات تاريخية دمشق ، العدد ٦ لسنة ١٩٨١ ص ١٣٦ . وحول ايلة في زمن البطالمة انظر : جواد علي ، المفصل ٢٧/٢ ، سيد عبد العزيز سالم ، تاريخ العرب في العصر الجاهلي ١٩٠ . ومصطفى مراد الدباغ ، بلادنا فلسطين ٤٩٣/١ . يرى بعض الباحثين ان Berenice هي عصيون جابر انظر جواد علي ٦٣٧/١ . الدباغ ، المرجع السابق . سيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ص ١٩٠ ، وانظر جلدن : I. E 2. Vol. 1. «Ayla»
اراتوستنس احد اشهر ثلاثة كتاب في العصر الهيلليني (٣٢٣ - ٣١ ق.م) مفيد العابد ، مجلة دراسات ص ١٣٦ .

(٢٢) نجيب ميخائيل ، المرجع السابق ص ٣٠٢ ، ٣٩٤ .

(٢٣) سعيد الافغاني ، اسواق العرب ص ١٦ .

(٢٤) جواد علي ، المفصل ٦٥/٢ . صالح العلي ، محاضرات في تاريخ العرب ص ٤٢ .

(٢٥) جواد علي ، نفس المرجع ٧١/٣ . ومن الطريف ان يذكر شيخ الربوة ان : « بلاد الشام في العهد الروماني كانت مقسمة الى اربعة اقسام قسم قصبته دمشق وقسم قصبته طبرية ويسمى بالاردن، وقسم قصبته حمص وقسم قصبته ايليا « بيت المقدس » ويسمى فلسطين وكان لهم في كل عمل بطريق من البطارقة يحفظه » مع العلم ان هذه التقسيمات اسلامية ، انظر نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ص ١٩٢ .

(٢٦) ورد ذكر فينان في سفر العدد اصحاح ٣٣ الايات ٤٢ – ٤٣ اثناء عبور الاسرائيليين فلسطين ، وتلفظ « فينون » ايضا واشتهرت بمناجم النحاس – على حد زعم التوراة – وكانت في العهد البيزنطي مركزا لاسقفية . انظر لويس مخلوف ، الاردن تاريخ وحضارة وآثار ، عمان ١٩٨٣ ص ٢٢٩ .

(٢٧) Glidden, I.E.2, vol.1 pp. 783-84

وموسل ، دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية « ايلة » ٢٠٧/٣ جواد علي ، المرجع السابق ٧١/٣ .

(٢٨) الاب لويس شيخو ، النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية ص ٤٤٨/٢ . جواد علي ، المرجع السابق ١٧٠/٤ .

(٢٩) شيخو ، المرجع السابق ٤٧/١ ، ١٠٨ . موسل، دائرة المعارف الاسلامية « ايلة » .

(٣٠) شيخو ، المرجع السابق . الدباغ ، المرجع السابق ٤٩٢ – ٤٩٣ .

(٣١) شيخو ، المرجع السابق ، ٤٧/١ . الدباغ ، المرجع السابق ص ٤٩٣ .

(٣٢) موسل ، دائرة المعارف الاسلامية « ايلة » .

(٣٣) جواد علي ، المرجع السابق ٦٠٦/٢ .

(٣٤) ابن خلدون ، تاريخ ٢٤/٢ وما بعدها .

(٣٥) الهمداني ، صفة .. ص ١٢٩ . جواد علي ، المرجع السابق ٢٤٥/٤ .

(٣٦) انظر ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ص ٤٢١ . تاريخ ابن خلدون ٣٧/٢ . جواد علي ، المرجع السابق ٤٦٢/٤ . وفي رواية ان فروة كان على عمان او معان ، الطبقات الكبرى ٢٨١/١ .

(٣٧) الطبقات الكبرى ٢٨١/١ ، تاريخ ابن خلدون ٣٤٤/١ .

(٣٨) ابو الفرج الاصفهاني ، الاغاني ١٦/٣ . تاريخ ابن خلدون ٢٠/٢ – ٢٤ .

(٣٩) تاريخ ابن خلدون ، المرجع السابق والصفحة .

(٤٠) انظر ابن قتيبة ، المعارف ص ٦٤٣ ، ابن منظور ، اللسان« ايلة » البكري، معجم ما استعجم، ٢١٦/١ . صالح العلي ، محاضرات في تاريخ العرب ص ٦٢ .

(٤١) الاتم : واد يسيل من حسمى على ليلة .

(٤٢) نعمى : ماء يفيء عليها ظل الشوق بالعشي .والشوق : اعظم جبل بحسمى . انظر حمد الجاسر ، ابو علي الهجري وابحاثه في تحديد المواضيع ص ٢٣٥ – ٢٣٦ .

(٤٣) الدوم : شجر المقل وهو لا يكم ، انما يكم النخل : انظر ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ص ٢٣٢ . ابن عبد ربه ، العقد الفريد ١٨٢/٦ .

(٤٤) الوشاة : الضرابون . ناصع : مشرق . يتاكل: أي ياكل بعضه بعضا من حسنه . الهبرزي : الدينار الجيد ، وقيل الذهب الخالص . انظر : ياقوت ، معجم البلدان (أيله) ٢٩٢/١ . ابن منظور ، اللسان « هبرز » .

(٤٥) انظر : سعيد الافغاني ، اسواق العرب ص ٢١٢ .سياتي الحديث عن الناحية الثقافية لايلة في الجزء الاخير من هذا البحث .

(٤٦) سناتي مصادر كتاب الصلح عند ايراد هذا الكتاب في الصفحات القادمة .

(٤٧) انظر المصادر التي اوردت كتاب الصلح .

(٤٨) قوله : غير كسوة « الغزاء » بالمعجمتين وفي اخره همزة والظاهرة ان الصحيح « الغزاة » بالتاء جمع غازية بمعنى المقاتلة ، اي غير ثوب المقاتل كالدرع ، وثوب حرير يختص بحال الحرب ، وفي نسخة ابن عساكر « العراء » ولا يناسب سياق الكلام ، انظر الاحمدي ، مكاتيب الرسول ١٦٢/١ .

(٤٩) حريث بن زيد الطائي ، يعتقد انه ابن زيد الخيل الذي لقب ايضا بزيد الخير ، انظر تحليل الرسالة ، الاحمدي ، المرجع السابق ١٦١/١ – ١٦٤ .

(٥٠) طبقات ابن سعد « والنص له » ٢٧٧/١ – ٢٧٨ . وانظر تهذيب ابن عساكر ١١٤/٤ . وفي مجموعة الوثائق السياسية لحميد الله ص ٨٧ رقم(٣٠) عن الطبقات وابن حديدة في المصباح المضيء في كلمة يحنه ، والزرقاني ٣٦٠/٣ ثم نقل كاتياني ٩ : ٣٨ « التعليقة الاولى » واشبرنكر ٣٢١/٣ – ٤٢٢ واشبربرص ٢١ – ٤٢ . والاحمدي ، مكاتيب الرسول ١٦١/١ – ١٦٤ . وقد ضبطت المصادر اسم صاحب أيله تارة « يحنه» وتارة اخرى « يوحنا » واكثرها على اللفظ الاول، انظر الاحمدي ، المرجع السابق .

(٥١) البلاذري ، فتوح ص ٧١ ، وانظر ابن سعد ،الطبقات ١٦٥/٢ . وتاريخ ابن عساكر « رواية ابن اسحاق » ٤٢٤/١ .

(٥٢) المغازي ١٠٣١/٣ .

(٥٣) سيرة ابن هشام ٥٢٥/٢ — ٥٢٦ . وانظرمغازي الواقدي ١٠٣١/٣ وطبقات ابن سعد ٢٨٩/١ وابو عبيدة الاموال ٢٨٧ — ٢٨٨ وتاريخ ابن عساكر م ١ ص ٤٢٤ . والسيرة الحلبية ١٦٠/٢ . ومحمد حميد الله ، الوثائق السياسية رقم٣١ — ٣١ أ ص ٨٨ ، عن القسطلاني ، المواهب اللدنية ٢٩٧/١ ، وسيرة ابن سيد الناس ٢٢٠/٢ والزرقاني في شرح المواهب ٣٥٩/٣ ، والمقريزي، امتاع الاسماع ٤٦٨/١ ، وابن زنجويه ،الاموال« نسخة خطية » رقم ٦٩/ب و ٧٠ أ والبيهقي ، دلائل النبوة ، خطية كوبرولو بتركيا ، ج١ ورقة ٢٣ب . واحمد بن حنبل ، المسند ٤٢٥/٥ . والبكري ، معجم ما استعجم ٢١٧/١ .

(٥٤) سيرة ابن هشام ٥٢٥/٢ — ٥٢٦ .

(٥٥) الواقدي ، المغازي ١٠٣١/٣ طبقات ابن سعد ٢٨٩/١ وابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٢٨٨ . ومحمد حميد الله ، الوثائق السياسية رقم ٣١ — ٣١ آ ، ص ٨٨ — ٨٩ .

(٥٦) السبكي ، تاج الدين ابي نصر ، طبقات الشافعية الكبرى ١٤٦/٥ .

(٥٧) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٧١ ، والمسعودي،التنبيه والاشراف ص ٢٣٦ . وقدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ص ٢٧٠ . وياقوت الحموي ، معجم البلدان « ايله » ٢٩٢/١ . وابن الاثير ، الكامل في التاريخ ١٩١/٢ . وتاريخ ابن خلدون ٣٤٤/١ .

(٥٨) قدامه بن جعفر ،الخراج ... ص ٢٧٠ .

(٥٩) مغازي الواقدي ١٠٣٠/٣ . والمسعودي التنبيه والاشراف ص ٢٣٦ . وتاريخ ابن خلدون ٣٤٤/١ وانظر ايضا مصادر كتاب الصلح السابقة .

(٦٠) حول البرده أنظر : العماد الاصفهاني ،خريدة القصر وجريدة العصر ، ص ١٢ حا : ٥ من القسم العراقي . والسيوطي ، تاريخ الخلفاء ص ١٩ . القلقشندي ، صبح الاعشى في صناعة الانشا ٢٦٩/٢، وحاشية ابن هشام على بانت سعاد ، ومقالة الاثار النبوية لاحمد تيمور في « مجلة الهداية الاسلامية المصرية » م ١ ح ٨ لسنة ١٣٤٨ هـ .

(٦١) انظر القصيدة في سيرة ابن سيـد النـاس ٢٠٩/٢ وما بعدها .

(٦٢) خطط المقريزي ٣٤٥/١ وما بعدها .

(٦٣) انظر محمد حميد ، الوثائق السياسية ص٤١١ وما بعدها ، وابو عبيد ، الاموال ص ٢٠٧ .

(٦٤) ياقوت ، معجم البلدان « ايله » ٢٩٢/١ . اليعقوبي ، البلدان ص ٩٤ ، الحميري ، الروض المعطار ص ٧٠ ، ابو الفداء ، تقويم البلدان ص ٨٧ ، القزويني ، اثار البلاد ص ١٥٣ . ان ظاهر كتاب الرسول ليحنه يعني كونهم نصارى ، انظر الاحمدي مكاتيب الرسول ص ١٦٤ .

(٦٥) ولفنسون ، تاريخ اليهود في بلاد العرب ص١٨ وانظر ايضا الافغاني ، اسواق العـرب ص ٢٤ .

(٦٦) البلاذري ، فتوح ص ١١٦ . وتاريخ الطبري ٣٨٧/٣ .

(٦٧) اليعقوبي ، بلدان ص ٩٤ ، وياقوت ، معجم البلدان « أيلة » ٢٩٢/١ .

(٦٨) ابن حوقل ، صورة الارض ١٥٣ ، وياقوت الحموي ، المشترك وضعا والمفترق صقعا ص ١٤١ .

(٦٩) انساب المسعاني ٤٠٩/١.

(٧٠) النووي ، تهذيب الاسماء واللغات ٩٠/١ .

(٧١) الحميري ، الروض المعطار ص ٧٠ .

(٧٢) الطبري « رواية سيف » ٦٤/٤ .

(٧٣) ابن الكلبي ، جمهرة النسب « رواية ابن حبيب » خطيه ص ٢٥ .

(٧٤) الجاحظ ، البيان والتبيين ١٢/٤ .

(٧٥) تاريخ الطبري ، ٣٧٨/٤ .

(٧٦) المرجع السابق ٤٤٢/٤ . وتاريخ ابن خلدون ٤٠٥/١ .

(٧٧) ابو الفرج الاصفهاني ، الاغاني ٧٤/٥ .

(٧٨) اهل الذمة في الاسلام ص ٢١٥ .

(٧٩) الكندي ، الولاة والقضاة ص ٤٢ .

(٨٠) الكندي ، الولاة والقضاة ص ٤٣ . بصاق :مكان بين التيه وأيله : انظر : ياقوت ، المشترك وضعا والمفترق صقعا ص ٥٥ .

(٨١) البلاذري ، انساب الاشراف ٣٥٦/٥ .

(٨٢) المرجع السابق والصفحة .

(٨٣) في رواية غير موثقة ذكر مولوي ، س . ١ .ف . حسيني ، ان عمر قسم جند فلسطين الى قسمين جعل أيلة عاصمة احدهما والرملـة عاصمة القسم الاخر . وتبعه في ذلك علي حسني الخربوطلي . انظر حسيني في كتابه « الادارة العربية » ص ٨١ ، والخربوطلي ، في كتابه « الاسلام والخلافة » ص ٩٠ .

(٨٤) انظر ملكة ، ابيض ، التربية والثقافة العربية الاسلامية في الشام والجزيرة في القرون الثلاثـة الاولى ص ٤١٠ .

(٨٥) ابو حنيفة الدينوري ، الاخبار الطوال ص٣٠٩ .

(٨٦) ابو حنيفة الدينوي ، الاخبار الطوال ص ٣٠٩.

(٨٧) الكندي ، الولاة والقضاة ص ١٤٣ . والنجوم الزاهرة ١٣٤/٢ - ١٣٥ .

(٨٨) النجوم الزاهرة ١٠١/٣ .

(٨٩) المرجع السابق ٩٠/٢ .

(٩٠) المقريزي ، خطط ٣٤٥/١ وما بعدها . وموسل، دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية((ايلة)).

(٩١) حسان بن جراح الطائي : احد اسرة بني جراح من قبيلة طيء اليمنية الذين استقروا في فلسطين كان لهم دور في الحياة السياسية في الشام في نهاية القرن الرابع الهجري واوائل القرن الخامس ولكنهم لم يستطيعوا اطلاقا ان يؤسسوا دولة ولا ان تكون لهم عاصمة الا لفترة قصيرة جدا في الرمله . وتولى حسان بن جراح في سنة ٤٠٤ هـ وكون بالاشتراك مع صالح بن مرداس وسنان بن البنا حلفا ليستقلوا بالشام عن الدولة الفاطمية فتكون حلب لابن مرداس ودمشق لسنان بن البنا وفلسطين لابن جراح . وطلبوا معاونة الامبراطور البيزنطي فلم يسعفهم ، واستعان الفاطميون على محاربتهم بالقائد المشهور انوشتكين الدزبري . انظر المسبحي ، اخبار مصر ج ٤٠ ص ٣٥ ، حا : ١ .

(٩٢) المسبحي ، اخبار مصر ، ج ٤٠ ص ٢٤ - ٢٥ . المقريزي ، خطط ٣٤٧/١ ، اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفا ١٤٣/٢ .

(٩٣) النجوم الزاهرة ٨٠/٥ .

(٩٤) محمد عدنان البخيت ، مملكة الكرك ، ص١١٠ .

(٩٥) المقريزي ، السلوك م١ ج٣ ص ٧٨٣ . والنجوم الزاهرة ٣٦/٨ وما بعدها .

(٩٦) ابن كثير ، البداية والنهاية . حوادث سنة ٧٤٩ هـ ، ٢٢٥/١٤ وما بعدها .

(٩٧) موسل ، دائرة المعارف الاسلامية ((أيلة))وقارن ، المقدسي ، احسن التقاسيم ص ١٧٨ - ١٧٩ .

(٩٨) حول اهداف الصليبيين من احتلال أيلة والمنطقة المجاورة ، انظر :

Prawer, (J). The Latin Kingdom of Jerusalem, London, 1972, p.71

King. Knight Hospitallers, P. 115.

Lane pool, Saladin, p. 175.

سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ٣٢٧/١.

يوسف غوانمه ، امارة الكرك الايوبية ص ١٢٧وما بعدها .

(٩٩) William of tyer, A History of deeds done beyond the sea, vol. 1. P. 513.
وعاشور ، المرجع السابق والصفحة .
موسل ، دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية ((أيلة)) ، ومحمد عدنان البخيت ، مملكة الكرك ص ٥ . وغوانمه ، المرجع السابق ص ٩٩ .

(١٠٠) ابن قاضي شهبة ، سيرة الملك نور الدين ، لوحة (٩٥) مخطوط ، نقلا عن غوانمه ص ٩٩ . وانظر عاشور ، المرجع السابق ٧١٥/٢ .

(١٠١) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ١١٠/٩ ، والمقريزي ، خطط ٣٤٧/١ . وابو شامه ، شهاب الدين ، كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية ، ج١ ق٢ ص ٤٨٦ . وابن شداد ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ٢١٤/١ . والبنداري ، سناء البرق الشامي ، ١٠٩/١ . وسبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ١٧٧/٨ ، وابن واصل ، مفرج الكروب ١٩٨/١ . وابو الفداء ، المختصر في اخبار البشر ٥٢/٣ . وابن الوردي ، تتمة المختصر ٧٨/٢ ، وابن كثير البداية والنهاية ٢٦٣/١٢ . ورانسمان ٦٣١/٢ وعاشور ، المرجع السابق ٧١٨/٣ ومحمد عدنان البخيت ص ٧ . وغوانمه ص ١٢٨ .

(١٠٢) راجع نص هذه الرسالة في : ابو شامه ، الروضتين ٦١٩/١ – ٦٢١ . وابن واصل ، مفرج الكروب ٤٨٦/٢ – ٤٩٣ . والقلقشندي ، صبح الاعشى ٨١/١٣ – ٩٠ .

(١٠٣) يوسف غوانمة ، امارة الكرك ص ١٠١ .

(١٠٤) ابو شامه ، الروضتين ٣٥/٢ . وابن واصل ، مفرج الكروب ١٢٧/٢ ، وغوانمه المرجع السابق والصفحة .

(١٠٥) يوسف غوانمة ، المرجع السابق والصفحة .

(١٠٦) ابو شامة المرجع السابق والصفحة . وابن واصل ، المرجع السابق والصفحة .

(١٠٧) دول الاسلام ٩٠/٢ .

(١٠٨) حول حملة ارناط هذه انظر : المقريزي ، السلوك ، ٧٨/١ – ٧٩ وخطط المقريزي ٣٤٧/١ ، ورحلة ابن جبير ص ٢٩ – ٣٠ ، والكامل لابن الاثير حوادث سنة ٥٧٧ هـ ١٥٩/٩ – ١٦٠ ، ومفرج الكروب ١٣٠/٢ ، ٢١٧/٣ – ٢١٨ ، وابو شامه ، الروضتين ٣٥/٢ ، وابن خلدون ، تاريخ ٢٩٩/٥ ، والحنبلي ، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ٢٨٠/١ ، وسبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ٢٣٦/٨ ، وفيليب حتي ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ٢٣٧/٢ ، ورانسمان ، تاريخ الحروب الصليبية ٧٠٦/٢ وانظر ايضا :
Coder, The Latin Kingdom, p. 140, 381.
Stevenson, W.D, The Crusaders in the east,p.229.
King, Knight,. P. 115.
Lane poole, Saladin p. 176.

وسعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٧٨٤/٢ .

(١٠٩) جمع الدكتور الشيال رسائل القاضي الفاضل المتعلقة بهذه الحملة في آخر كتاب ابن واصل ، مفرج الكروب ج ٢ من رقم ٧ – ١١ ص ٣١٢ – ٣١٨ . انظر يوسف غوانمة ، المرجع السابق ص ١٣١ – ١٣٢ .

(١١٠) حسام الدين لؤلؤ : كان من كبار قواد صلاح الدين الايوبي ، وعرف بانه اشجع الشجعان وافرس الفرسان ، فهو الذي حطم الفرنج في بحر ايله وبر الحجاز وكان كثير المبرات واسع الخيرات اشترك في معارك عديدة ضد الصليبيين ، وفيه يقول الرضي بن ابي حصينه المصري مخاطبا الفرنج :

عدو لكم لؤلؤ والبحر مسكنه والدر في البحر لا يخشى من القبر
فامر حسامك ان يحظى بنحرهم فالدر من كان منسوبا الى البحر

توفي في القاهرة سنة ٥٩٦ هـ
انظر ابو شامه ، الروضتين ٢/٤٠ عاشور ، المرجع السابق ، ويوسف غوانمة ، المرجع السابق ص ١٣٢ .

(١١١) حول هذه الحملة انظر : مصادر حملة ارناط السابقة وسعيد عاشور ، الحركة الصليبية ٢/٧٨٧ وما بعدها . ويوسف غوانمة ، المرجع السابق ص ١٣١ – ١٣٢ .

(١١٢) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ٩/١٥٩ – ١٦٠ وتاريخ ابن خلدون ٥/٢٩٩ .

(١١٣) رابغ : مدينة على ساحل البحر الاحمر منها يمر الحجاج ، وهي تقع الى الشمال من جدة .

(١١٤) الحوراء : مدينة على ساحل وادي القرى ، بها مسجد جامع وبها ثمانية آبار عذبة وبها ثمار ونخل واهلها عرب من جهينه وبلي . انظر المقريزي ، خطط ١/٣٤٧ ، وصبح الاعشى ٣/٣٨٩.

(١١٥) انظر حول هذه الحملة ايضا : الحنبلي ، الانس الجليل ١/٢٨١ . ابن واصل مفرج الكروب ٢/١٣١ ، ٣/٢١٦ ، ٣/٢١٨ Conder, OP. cit., p. 147. وابو شامه ، الروضتين ٢/٣٥ والذهبي ، دول الاسلام ٢/٩٠ . وسبط ابن الجوزي ، ومرآة الزمان ٨/٢٣٥ . وتاريخ ابن خلدون ٥/٢٩٩ .

(١١٦) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ٨/٢٣٥ ، وابو شامه ، الروضتين ٢/٣٥ . وابن واصل مفرج الكروب ٢/١٢٨ . وابو الفداء ، المختصر في اخبار البشر ٣/٦٩ . ورانسمان ، الحروب الصليبية ٢/٧٠٧ و Lane poole, Saladin p. 176. ويوسف غوانمة ، امارة الكرك ص ١٣٤ – ١٣٥ .

(١١٧) ابن جبير ، الرحلة ص ٣١ . انظر رسالة القاضي الفاضل الى الخليفة يصف فيهما فتح أيلة في صبح الاعشى في صناعة الانشا ٧/٢٧ – ٢٨ .

(١١٨) تتمة المختصر في اخبار البشر ١٤٠/٢ .

(١١٩) موسل ، دائرة المعارف الاسلامية « ايله » ص ٢٠٨ .

(١٢٠) ابو الفداء ، تقويم البلدان ص ٨٧ . والمقريزي ، خطط ١٨٤/١ ومحمد عدنان البخيت ، مملكة الكرك ص ٢٩ .

(١٢١) Gildden, M.W. The Mumluk Origin of the Fortified Khan At Al Aqaba, Jordan , Archaeologica Orientaliain memoriam , E . Hery Feld , NewYork, 1952, pp. 116-118.

(١٢٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ج ٥ ص ٣٩ .

(١٢٣) وذلك على غير ما ذهب اليه جلدن اعتماداعلى ابن اياس ، ان خايربك رافق قانصوه الغوري سنة ٩٢٢ هـ ويمكن ان يكون قد قتل في تلك المعركة . انظر مقالة جلدن السابقة .

(١٢٤) انظر ابن اياس ، بدائع الزهور ، المرجع السابق ج ٥ ص ٣٩ وما بعد . وانظر ايضا ، الحميري الروض المعطار ص ٧١ .

(١٢٥) انساب السمعاني ، ٤٠٩/١ رقم (٢٩٠) .

(١٢٦) المسعودي ، التنبيه والاشراف ص ٢٧٦ .

(١٢٧) الاغاني ، ٦٩/٧ . نسب لايلة اكثر من واحد بهذا الاسم ولم نتبين ايهم الذي عناه ابو الفرج الاصفهاني . انظر : البسوي ، المعرفة والتاريخ ٦١٢/٢ .

(١٢٨) انظر على سبيل المثال ، المحبر ص ٣٧ ، والنجوم الزاهرة ٢٠٦/٦ - ٢٠٨ .

(١٢٩) اكتفينا بالتعريف بالمشهورين من العلماء الذين نسبوا الى أيله ، وذكرنا اسماء الاخرين ذكرا فقط . ولا ندعي ان هذه الاسماء هي كل ما نسب الى أيله من علماء ومحدثين .

(١٣٠) انظر طبقات ابن سعد ٥٢/٧ ، وطبقات ابن خياط ، ص ١٩٦ ، ويحي بن آدم ، كتاب الخراج ، ((انظر يونس بن يزيد الايلي في فهرس الاعلام)) والبسوي ، المعرفة والتاريخ ١٣٩/١ . وانساب السمعاني ٤١٠/١ رقم (٢٩٠) والذهبي ، العبر ٢١٨/١ . وابن حجر ، تهذيب التهذيب ٤٥٠/١١ وما بعدها ، رقم (٧٦٩) .

(١٣١) المؤمنون آية ٦٧. عن عقيل انظر : طبقات ابن سعد ٥١٩/٧ . وطبقات ابن خياط ص ٢٩٥ . والبسوي ، المعرفة والتاريخ ١٢٤/١ و ٦٢٦/١ وصفحات متفرقة - انظر الفهرس . والذهبي ، سير اعلام النبلاء ٢٤١/٥ « يذكر ان الزهري كان امير جند » . وابن حجر ، تهذيب التهذيب ٢٥٥/٧ وما بعدها رقم (٤٦٧) .

(١٣٢) الكندي ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ص : ١٩٩ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٤٥١ ، ابن الجوزي ، المنتظم ١٧٢/٦ . الذهبي ، تذكرة الحفاظ رقم « ٥٤٨ » ، ابن حجر ، تهذيب « ١٢ » ٦/١/١-٧ . انساب السمعاني ٤١١/١ .

(١٣٣) ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ١٥٣/٢ . ابن حجر ، تهذيب التهذيب ٣٤٤/٩ رقم ٥٦٧ .

(١٣٤) البسوي ، المعرفة والتاريخ ٦٥/٢، ١٧٥/٢، ٣٤٤/٣، ٣٣٢/٣، ٣٦٧ . انساب السمعاني « ٢٩٠ » ٤١٠/١ ، تهذيب ابن حجر « ٢٧٦ » ١٥٤/٨ .

(١٣٥) ابن سعد ، الطبقات ٥٢٠/٧ ، ابن خياط ص ٢٩٥ ، البسوي ، المعرفة والتاريخ ٦٩٢/١ ، تهذيب ابن حجر (٥١٥) ٢٧٣/٣ .

(١٣٦) ابن سعد ، المرجع السابق ٥١٩/٧ . ابن خياط ص ٢٩٦ ، تهذيب ابن حجر (٤٧) ١٩/٥ - ٢٠

(١٣٧) البلاذري ، فتوح ص ٧١ .

(١٣٨) طبقات ابن سعد ٥٢/٧ ، البسوي ، المرجع السابق ٤٤/٣ ، الذهبي ، ميزان الاعتدال رقم (٤٧٤٣) ٥٣٤/٢ . تهذيب ابن حجر (٢٠٩) ١٠٣/٦ .

(١٣٩) طبقات ابن سعد ٥١٩/٧ . تهذيب ابن حجر « ٦٢٨ » ٣٣٤/١١ .

(١٤٠) البسوي ، المعرفة والتاريخ ١٦٣/١ . ابن حجر ، تهذيب رقم (٨٨٥) ٤٧٦/٣ .

(١٤١) البسوي ، المعرفة ٥٨٤/١ ، ٦٩٠/٢ . ابن حجر ، تهذيب (٩٠٨) ٤٨٧/٣ .

(١٤٢) ابن حجر ، تهذيب (٣٧٢) ٢٣١/١١ .

(١٤٣) ابن حجر ، تهذيب (٦٢٩) ٣٧٤/٤ - ٣٧٥ .

(١٤٤) ابن حجر ، تهذيب (٢٢٦) ١٢٣/٣ .

(١٤٥) ابن عساكر التهذيب تاريخ دمشق ٣٩٧/٤ .

(١٤٦) ن.م. ٣٥٩/٤ .

(١٤٧) ن.م. ١٩٨/٥

(١٤٨) ابن حجر ، تهذيب (٤١٧) ٢٢٥/١ - ٢٢٦ .

(١٤٩) الاسنوي ، طبقات الشافعية ١٢٣/١ رقم (١٠١) .

(١٥٠) ابن حجر ، تهذيب التهذيب ٢٢٨/١ رقم (٥٣٨) .

(١٥١) البسوي ، المعرفة والتاريخ ٦٩٩/١ .

(١٥٢) طبقات ابن سعد ٥٢٠/٧ .

(١٥٣) شذرات الذهب ٣٥/٧ .

(١٥٤) الهمداني ، الاكليل ٢٣٢/٨ .

(١٥٥) المسعودي ، التنبيه والاشراف ص ٢٧٦ .

(١٥٦) الاغاني ٦٩/٧ .

(١٥٧) الكندي ، الولاة والقضاة ص ٤٠٧ .

(١٥٨) ياقوت ، معجم البلدان « أيله » .

(١٥٩) الاكليل ٢٠٥/٨ .

(١٦٠) النجوم الزاهره ١٥٧/٣ .

(١٦١) المرجع السابق ٢٠٢/٣ - ٢٠٣ .

(١٦٢) الطبقات الكبرى ٥٥٤/٧ .

(١٦٣) البسوي ، المعرفة والتاريخ « عن العباس بن عبد العظيم » ٦٢١/١ .

ثبت المصادر والمراجع « حسب الحروف الهجائية » .

- القرآن الكريم .
- الكتاب المقدس ، العهد القديم ، جمعيات الكتاب المقدس ١٩٥٢ .
- ابيض ، ملكة ، التربية والثقافة العربية الاسلامية في الشام والجزيرة في القرون الثلاثة الاولى . دار العلم للملايين ، ط ١ بيروت ١٩٨٠ .
- ابن الاثير ، ابي الحسن علي بن ابي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني ، المعروف بابن الاثير الجزري الملقب بعز الدين المتوفى ٦٣٠ هـ .
  الكامل في التاريخ ، عني بمراجعة أصوله والتعليق عليه نخبة من العلماء ، دار الكتاب العربي ، ط ، بيروت ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .
- الاحمدي ، علي بن حسينعلي ، مكاتب الرسول ، دار صعب للطباعة بيروت ، بت .

- الاسنوي ، جمال الدين عبد الرحيم ت ٧٧٢ هـ ، طبقات الشافعية ، تح . عبد الله الجبوري ، مطبعة الارشاد ، بغداد ، ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠م.

- الاصطخري ، ابي اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري المعروف بالكرخي ،المسالك والممالك ، تح . دي جويه ، طبعة بريل ١٩٢٧ م .

- الاصفهاني ، ابي الفرج علي بن الحسين ت ٣٥٦ هـ - ٩٧٦ م « كتاب الاغاني » مصور عن طبعة دار الكتب مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، بيروت لبنان .

- الاصفهاني ، الحسن بن عبد الله ، بلاد العرب ، تح . حمد الجاسر وصالح العلي ، دار اليمامه - الرياض ، ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .

- الاصفهاني ، عماد الدين الكاتب ، « خريدة القصر وجريدة العصر » ، القسم العراقي ، ج١ ، تح . محمد بهجة الاثري وجميل سعيد ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م .

- الافغاني ، سعيد ، « أسواق العرب في الجاهلية والاسلام » ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ط٣ ، بيروت ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م .

- الالوسي ، محمود شكري « بلوغ الارب في معرفة احوال العرب » ، تح . محمد بهجة الاثري ، ط٢، مصر ١٣٤٢ هـ .

- أمين احمد « فجر الاسلام » ط . ١ ، مصر ، ١٩٦٥ .

- الاندلسي ، ابي القاسم صاعد بن احمد بن صاعد ت ٤٦٢ هـ - (١٠٦٩ / ١٠٧٠ م) ، « طبقات الامم » تح . لويس شيخو اليسوعي ، المطبعة الكاثوليكية للاباء اليسوعيين ، بيروت ١٩١٢ م .

- الانصاري ، شيخ الربوه شمس الدين ابي عبدالله محمد بن ابي طالب الانصاري الصوفي الدمشقي ، « نخبة الدهر في عجائب البر والبحر » ، نشر A. Mehren ليبزغ ١٩٢٣ م .

- ابن اياس ، محمد بن احمد بن اياس الحنفي، « بدائع الزهور في وقائع الدهور » ، دار الفكر ، بيروت ، بت .

- ابن اياس ، محمد بن احمد ، « بدائع الزهور في وقائع الدهور » ، ج٥ ، تح محمد مصطفى ، ط٢، القاهرة ١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م .

- باركر ، ارنست ، « الحروب الصليبية » ترجمة الباز العريني ، مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة ١٩٦٠ م .

- البخيت ، محمد عدنان ، « مملكة الكرك في العهد المملوكي » ط ١ ، عمان ١٩٧٦ م .

- بروكلمان ، كارل « تاريخ الشعوب الاسلامية » نقله الى العربية نبيه امين فارس ، ومنير البعلبكي، ط٥ ، بيروت ١٩٦٨ .

- البسوي ، ابي يوسف يعقوب بن سفيان ، ت ٢٧٧ ، « المعرفة والتاريخ » رواية عبد الله بن جعفر بن درستويه النحوي ، تح . اكرم ضياء العمري ، مؤسسة الرسالة ، ط٢ ، بيروت ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .

- ابن بطوطة ، محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي ، ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤ م - ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م « رحلة ابن بطوطة المسماه تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار » دار الكتاب اللبناني دار الكتاب المصري .

- البلاذري ، ابي الحسن احمد بن يحي بن جابر ، ت ٢٧٩ هـ « انساب الاشراف » ج٥ طبعة القدس ١٩٣٦م .

- البنداري ، « فتوح البلدان » عني بمراجعته والتعليق عليه ، رضوان محمد رضوان ، مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٩ م .

- البنداري ، قوام الدين الفتح علي بن محمد البنداري الاصفهاني ، ت ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م ، « سنا البرق الشامي » ، مختصر البرق الشامي لعماد الدين الكاتب الاصفهاني ت ٥٩٧ هـ - ١٢٠٠ م تح . فهيم محمد شلتوت ومحمد مصطفى ابراهيم ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهره ١٩٧٤ م .

- ترتون ، دكتور آ. س ، ترتون « اهل الذمة في الاسلام » ترجمة وتعليق حسن حبشي ، دار المعارف ط ٢ مصر ١٩٦٧ م .

- الجاحظ ، ابي عثمان عمرو بن بحر « البيان والتبيين » ، دار الفكر للجميع ١٩٦٨ م .

- الجاسر ، حمد ، « ابو علي الهجري وابحاثه في تحديد المواضع » ، ط ١ ، دار اليمامة ، الرياض ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .

- ابن جبير ، ابي الحسن محمد بن احمد الاندلسي ، ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م « رحلة ابن جبير المسماة : تذكرة الاخبار في اتفاقات الاسفار » تح . حسين نصار ، القاهرة ١٩٢٥ م .

- ابن الجوزي ، ابو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد علي ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م ، » المنتظم في تاريخ الملوك والامم » ، حيدر اباد - الهند ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٥ .

- ابن الجوزي ، سبط ، شمس الدين ابو المظفر يوسف ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م « مرآة الزمان في تاريخ الاعيان » ج ٨ ، مخطوط ، مكتبة بلدية الاسكندرية رقم ١٨٧٨ ب .

- ابن حبيب ، ابي جعفر محمد ت ٢٤٥ هـ ، « المحبر » رواية ابي سعيد الحسن السكري ، اعتنت بتصحيحه ، ايلزه ليختن شتيتر ، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت .

- حتي ، فيليب ، « تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين » ترجمة جورج حداد ، وعبد الكريم رافق ، مراجعة جبرائيل جبور ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٥٨م .

- ابن حجر ، شهاب الدين ابي الفضل ابن حجر العسقلاني ، ت ٨٥٢ هـ ، « تهذيب التهذيب » ط١ ، الدكن ، الهند ١٣٢٥ هـ .

- الحربي ، ابي اسحاق ابراهيم بن اسحاق بن بشر بن عبد الله « كتاب المناسك واماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة » تح. حمد الجاسر ، دار اليمامة ، الرياض ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .

- ابن حزم ، ابي محمد علي بن احمد بن سعيد الاندلسي ، « جمهرة انساب العرب » تح . عبد السلام هارون - دار المعارف بمصر ١٣٩١ - ١٩٧١ م .

- حسينـي ، مولوي س . ا . ق . « الادارة العربية » ترجمة ابراهيم احمد العدوي مراجعة : عبد العزيز عبد الحق ، اشراف وزارة الثقافة العامة - مصر ١٣٧٨ - ١٩٥٨ م .

- الحلبي الشافعي ، علي بن برهان الدين . « انسان العيون في سيرة الامين والمامون » المعروفة بالسيرة الحلبية وبهامشها السيرة النبوية لزيني دحلان ، المطبعة الازهرية بمصر ط ٣ ١٣٥١ هـ / ١٩٣٢ م .

- الحموي ، شهاب الدين ابي عبد الله ياقوت الحموي الرومي البغدادي ، « معجم البلدان » ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .

- الحموي ، « المشترك وضعا والمفترق صقعا » ، مكتبة المثنى ، بغداد .

- حميد الله ، محمد « الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة » ط ٣ بيروت ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .

- الحميري ، محمد بن عبد المنعم « الروض المعطار في خبر الاقطار » تح . احسان عباس ، مكتبة لبنان ، بيروت ١٩٧٥ م .

- الحنبلي ، ابي الفلاح عبد الحي بن العماد ت ١٠٨٩ هـ « شذرات الذهب في اخبار من ذهب » عن نسخة المصنف المحفوظة في دار الكتب المصرية ، ط٣ بيروت ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .

- الحنبلي ، ابي اليمن القاضي مجير الدين ت ٩٢٧ هـ - ١٥٢١ م « الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل » المطبعة الوهبية ، القاهرة ١٢٨٣ هـ .

- ابن حوقل ، ابي القاسم بن حوقل النصيبي « صورة الارض » منشورات مكتبة الحياة ، بيروت .

- الخربوطلي ، علي حسني ، الاسلام والخلافة ، دار بيروت للطباعة والنشر بيروت ١٩٦٩ م .

- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد المغربي ت ٨٠٩ هـ « تاريخ ابن خلدون المسمى بالعبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر » . بتصحيح وعناية : علال الفاسي وعبد العزيز بن ادريس المغربي ، وتعليق الامير شكيب ارسلان ، مصر ١٣٥٥ هـ ١٩٣٦ م .

- ابن خياط ، ابي عمرو خليفة بن خياط شباب العصفري ت ٢٤٠ هـ ، « كتاب الطبقات » رواية ابي عمران موسى بن زكريا التستري ، تح . اكرم العمـري ، مطبعة العاني ، بغداد ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .

- الدباغ ، مصطفى مراد ، « بلادنا فلسطين » ج١ ق٢ ، ط١ ، منشورات دار الطليعة ، بيروت ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦ م .
- الدينوري ، ابي حنيفة احمد بن داود ت ٢٨٢هـ « الاخبار الطوال » ، تح . عبد المنعم عامر ، مراجعة الدكتور جمال الدين الشيال ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، ط١ ، القاهرة ١٩٦٠ م .
- الذهبي ، شمس الدين ابو عبد الله محمد بن احمد ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ ، « دول الاسلام » ، . حيدر اباد الدكن مطبعة المعارف النظامية ١٣٣٧ هـ - ١٩١٨ م .
- الذهبي ، نفسه ، « تذكرة الحفاظ » ط٣ ، المطبعة الهندية ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م .
- الذهبي ، نفسه ، « العبر في خبر من غبر » ج١ تح . صلاح الدين المنجد الكويت ١٩٦٠ م .
- الذهبي ، « ميزان الاعتدال في نقد الرجال »القسم الرابع ، تح . علي محمد البجاوي ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، بت .
- رانسمان ، ستيفن ، « تاريخ الحروب الصليبية» ترجمة الباز العريني ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٧ - ١٩٦٨ م .
- زكي ، عبد الرحمن ، « الجيش المصري في العصر الاسلامي » مطبعة الكيلاني ، القاهرة ١٩٧٠ م .
- سالم ، سيد عبد العزيز ، « تاريخ العرب في العصر الجاهلي» بيروت ، ١٩٧١ .
- السبكي ، تاج الدين ابو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي ، ٧٢٧ - ٧٧١ هـ ، « طبقات الشافعية الكبرى » تح ، محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو ، ط١ ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، مصر ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧ م .
- ابن سعد ، محمد ، « الطبقات الكبرى » دار بيروت ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧ م
- ابن سعيد الاندلسي ، ابي الحسن علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك « نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب » تح . نصرت عبد الرحمن، مكتبة الاقصى عمان ،الاردن ١٩٨٢ م .
- السمعاني ، ابي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي ت ٥٦٢ هـ ١١٦٦ م « الانساب » تصحيح وتعليق الشيخ عبد الرحمن بن يحي المعلمي اليماني ، « امين مكتبة الحرم المكي » دائرة المعارف العثمانية ط ١ ، حيدر اباد ، الهند ، ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م .
- ابن سيد الناس ، فتح الدين ابو الفتح محمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن يحي بن سيد الناس الشافعي ت ٧٣٤ هـ ، « عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير » دار الجيل، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٧٤ م .
- السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر ت ٩١١ هـ « تاريخ الخلفاء » تح . محمد محي الدين عبد الحميد ، ط ٣ ، مطبعة المدني القاهرة ١٣٨٣ - ١٩٦٤ م .

- أبو شامة ، شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي « الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية » ج١ ق٢ تح . محمد حلمي محمد احمد ، مراجعة محمد مصطفى زيادة ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، القاهرة ١٩٦٢ م .

- ابن شداد ، القاضي بهاء الدين ابو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبه ت ٦٣٢ هـ - ١٢٣٤ م . « كتاب سيرة صلاح الدين » المسماة « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » مطبعة التمدن ، القاهرة ١٩٠٣ .

- شيخو ، لويس ، « النصرانية وادابها بين عرب الجاهلية » المطبعة اليسوعية ، بيروت ١٩٢٣ م .

- الطبري ، ابي جعفر محمد بن جرير « تاريخ الرسل والملوك » تح . محمد ابو الفضل ابراهيم دار المعارف ، مصر ١٩٦٠ - ١٩٦٩ م .

- الظاهري ، غرس الدين خليل بن شاهين « زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك » اعتنى بتصحيحه ، بولس راويس ، باريس ١٨٩٤ م

- عاشور ، سعيد عبد الفتاح ، الحركة الصليبية، ط١ ، القاهرة ١٩٦٣ م .

- ابن عبد ربه الاندلسي ، أحمد بن محمد ت ٣٢٨ هـ « العقد الفريد » تح . محمد سعيد العريان، دار الفكر ، بيروت .

- ابو عبيد ، القاسم بن سلام ، ت ٢٢٤ هـ « الاموال » تح . محمد خليل هراس ، ط١ ، القاهرة ١٣٨٨ - ١٩٦٨ م .

- ابن عساكر ، ثقة الدين ابو القاسم علي بن هبة الله الشافعي ت ٥٧١ هـ « تاريخ دمشق » م١ تح . صلاح الدين المنجد ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ، بت . « وتهذيب تاريخ دمشق » هذبه ورتبه الشيخ عبد القادر بدران ، ت ١٣٤٦ هـ ، دار المسيرة ، ط٢ بيروت ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ .

- العماد الاصفهاني ، ابي عبد الله محمد بن صفي الدين ، ابو الفرج محمد بن نفيس ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠ « الفتح القسي في الفتح القدسي » تح . محمد محمود صبح ، القاهرة ١٩٦٥ .

- علي جواد ، « المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام » بيروت ، ١٩٦٨ م

- العلي ، صالح « محاضرات في تاريخ العرب » ، بغداد ١٩٦٨ م .

- كرد علي ، محمد « الاسلام والحضارة الاسلامية » ط٣ ، القاهرة ١٩٦٨ م .

- كرد علي ، محمد ، « كتاب خطط الشام » دمشق ١٣٤٣ هـ - ١٩٢٥ م .

- العمري ، شهاب الدين احمد بن فضل الله ت ٧٤٩ هـ - ١٣٤٨ م ، « مسالك الابصار في ممالك الامصار » ج١ حققه احمد زكي باشا ، مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٠٤ م .

- غوانمة ، يوسف حسن درويش ، « امارة الكرك الايوبية » ط٢ عمان ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م .

- ابو الفداء ، عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر ت ٧٣٢ هـ « تقويم البلدان » . تح . رينود وماك كوكين دي سلان ، باريس ١٨٤٠ .

- ابو الفداء « المختصر في اخبار البشر المسمى بتاريخ ابي الفداء » دار المعرفة بيروت - لبنان .

- ابن الفرات ، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥ م « تاريخ الدول والملوك » نشر باسم تاريخ ابن الفرات تح. قسطنطين زريق ومشاركة نجلاء عز الدين ، المطبعة الاميركانية بيروت ١٩٣٦ - ١٩٤٢ .

- ابن قاضي شهبة ، بدر الدين محمد بن ابي بكر بن قاضي شهبه الاسدي الدمشقي ت ٨٧٤ هـ /١٤٦٩م « سيرة الملك العادل نور الدين الشهيد » مخطوط ، بلدية الاسكندرية رقم ١٣٣٦ب .

- ابن قتيبة ، ابي محمد عبد الله بن مسلم ت ٢٧٦ / ٨٨٩ م « الشعر والشعراء » نسخة ليدن - بريل ١٩٠٢ م .

- ابن قتيبة ، « المعارف » تح . ثروة عكاشة ، ط ٢ ، دار المعارف مصر ١٩٦٩ .

- قدامه بن جعفر « الخراج وصناعة الكتابة » شرح وتعليق محمد حسين الزبيدي ، دار الرشيد للنشر، بغداد ١٩٨١ م .

- القرشي ، يحي بن آدم ت ٢٠٣ هـ « كتاب الخراج » صححه وشرحه الشيخ احمد محمد شاكر ، المطبعة السلفية ، ط٢ ١٣٨٤ هـ .

- القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود ، « آثار البلاد واخبار العباد » دار صادر بيروت ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .

- القلقشندي ، ابو العباس احمد بن علي بن احمد بن عبد الله بن ابي اليمن ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م « صبح الاعشى في صناعة الانشا » القاهرة ١٩٦٣ « نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية » .

- ابن كثير ، عماد الدين اسماعيل بن كثير الدمشقي ابو الفداء ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م . « البداية والنهاية » مكتبة المعارف ، بيروت ومكتبة النصر ، الرياض ط ١ ، ١٩٦٦ م .

- ابن الكلبي ، ابو المنذر هشام بن محمد ت ٢٠٦ هـ « جمهرة النسب » رواية محمد بن حبيب ، مخطوط مصور .

- الكندي ، ابو عمر محمد بن يوسف الكندي المصري « كتاب الولاة وكتاب القضاة » تهذيب وتصحيح رفن كست مطبعة الاباء اليسوعية ، بيروت ١٩٠٨ م .

- أبو المحاسن ، جمال الدين يوسف بن تغري بر دي الاتابكي ، « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٣٤٨ هـ - ١٩٢٩ م .

- المسعودي ، ابي الحسن علي بن الحسين بن علي ت ٣٤٦ هـ « التنبيه والاشراف دار التراث ، بيروت ١٣٨٨ هـ ١٩٦٨ م .

- المقدسي ، شمس الدين ابي عبد الله محمد بن احمد بن ابي بكر البناء البشاري ت ٣٨١ هـ - ٩٩٢ م « احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » دار خياط بالافست عن طبعة بريل ١٩٠٦ .

- المقريزي ، تقي الدين احمد بن علي ، ت ٨٤٥ هـ « اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفا » تح . محمد حلمي محمد احمد ، القاهرة ١٣٩٠ هـ ١٩٧١ م .

- المقريزي ، « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار المعروف بالخطط المقريزية » دار التحرير للطبع والنشر عن طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ .

- المقريزي ، « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية » دار التحرير مطبعة دار الكتب القاهرة ، ١٩٧٠ - ١٩٧٣م .

- المسبحي ، الامير المختار عز الملك محمد بن عبيد الله بن احمد (٣٦٦ - ٤٢٠ هـ / ٩٧٧ - ١٠٢٩م) « اخبار مصر ج ٤٠ » تح . ايمن فؤاد سيد وتياري بيانكي (١) القسم التاريخي ، المعهد العلمي الفرنسي للاثار الشرقية القاهرة ، بت .

- ابن منظور ، ابي الفضل جمال الدين محمد مكرم الافريقي المصري ، « لسان العرب »

- موسل ، دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية مادة « ايلة » .

- نجيب ميخائيل ابراهيم ، مصر والشرق الادنى القديم ، القسم الثالث « سورية » دار المعارف ، ط٣ مصر ١٩٦٦ م .

- النووي ، ابي زكريا محي الدين بن شرف ت ٦٧٦ هـ « تهذيب الاسماء واللغات » ادارة الطباعة المنيرية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- ابن هشام ، ابي محمد عبد الملك ، ت ٢١٣ هـ « السيرة النبوية » تح . مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي ، ط٢ ، مصر ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م .

- الهمداني ، ابي بكر احمد بن محمد المعروف بابن الفقيه « مختصر كتاب البلدان ، طبع في مدينة ليدن ، بمطبعة بريل ١٣٠٢ هـ » .

- الهمداني ، ابي محمد الحسن بن احمد بن يعقوب المتوفى ما بين ٣٥٠ - ٣٦٠ هـ « الاكليل » ج ٨ تح . محمد بن علي الاكوع ، دمشق ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .

- الهمداني « صفة جزيرة العرب » تح . محمد بن علي الاكوع ، دار اليمامة ، الرياض ١٣٩٣ هـ ، ١٩٧٤ م .

- الواقدي ، محمد بن عمر بن واقد ت ٢٠٧ هـ « كتاب المغازي » تح . مارسدن جونس منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ، بيروت ، لبنان .

- ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م . « مفرج الكروب في اخبار بني ايوب » ج١ ـ ٣ تح . جمال الدين الشيال ،المطبقة الاميرية ، القاهرة ١٩٥٣ ـ ١٩٦٠ م ، ج ٤ ـ ٥ تح . حسنين ربيع وسعيد عاشور ،مطبعة دار الكتب القاهرة ١٩٧٢ ـ ١٩٧٧ م .
- ابن الوردي ، زين الدين عمر « تتمة المختصر في اخبار البشر المسمى بتاريخ ابن الوردي » تح . احمد رفعت البدراوي ، دار المعرفة ، ط ١ بيروت ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٧٠ م .
- ولفنسون ، اسرائيل « تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الاسلام » مصر ١٩٢٧ م .
- اليعقوبي ، احمد بن ابي يعقوب بن واضح الكاتب ت ٢٨٤ هـ « كتاب البلدان » ط٢ المطبعة الحيدرية ،النجف ١٣٧٧ هـ ـ ١٩٥٧ م .

المراجع الاجنبية :

1) Conder, G.R. « **The Latin Kingdom of Jerusalem** » London, 1943.

2) Fulcher of chartres, «**A History of the expedition to Jerusalem**»1095-1127, trans. by France, Ritaryan Hew york, 1973.

$3) A. Smith, **Historical Geography at the Holy Land,** (London 1824; 1968)

4) H.W. Glidden, 1. E 2, vol. 1, PP. 783-84.

5) King, E, **The Knights Hospitallers in The Holy-land,** London, 1943.

6) Lane poole, «Stanly» «**Saladin and The Fall of The Kingdom of Jerusalem** Beirut, 1964.

7) Prawer, J « **The latin Kingdom of Jerusalem,** London, 1872.

8) Schlumberger «G» «**Renaul de chatillon,** Paris, 1898.

9) Stevenson, W. D, «**The Crusaders in The East**» Beirut, 1968.

2 Vol., trans. by Emily Atwater Babcock and A.C. Kry, Newyork, Columbia
2vol., trans. by Emily Atwater Babcock and A.C. Kry, Newyork, Columbia
University Press. 1943.

الدوريات

(١) مفيد رائف العابد ، حول مصادر تاريخ العرب، مجله دراسات تاريخية ، دمشق العدد ٦/١٩٨١ م . ص ١٢٩ وما بعدها .

H. W. Glidden, The Mamluk Origin of the fortified Khan At Al-Aqabah, Jordan.

(٢) Archaelogica Orientaliain memoriam, E. Heryfeld, Newyork 1952, pp. 116-118.

(٣) N. Glueck , Bulletin of the American School of oriental Research , 71 (1938) PP. 3f, 75 (1939) 8f.

* * *

حدود الجزيرة الفراتية
عند الاصطخري وابن حوقل
(بين شمشاط وسميساط)

د. عبد المرشد العزاوي

جامعة دمشق

لاحظنا في كتاب مسالك الممالك للاصطخري ، وفي كتاب صورة الارض لابن حوقل ، وفي تقويم البلدان لابي الفداء ، وجود اختلاف فيما اوردوه عن الحدود الشمالية لاقليم الجزيرة الفراتية . فهناك اختلاف بين ما ورد عند الاصطخري وبين ما ورد عند ابن حوقل الاخذ عنه بالنسبة للمكان الذي تبدأ منه الحدود ، واتفاق على المكان الذي تنتهي اليه ، واختلاف كبير بين ما ورد عند الاصطخري وبين ماهو وارد عند ابي الفداء ، كما نلاحظ تناقضا واضحا بين الحدود الواردة عند الاصطخري وبين المبدأ الذي سار عليه في تقسيم العالم الاسلامي الى اقاليم جغرافية ذات حدود طبيعية بارزة .

هذا ولقد تبين لنا بعد البحث ، بأن هذا الاختلاف مختلق ، أحدثه النساخ بخلطهم بين مدينتين من مدن الفرات في اكثر من موضع هما : شمشاط الواقعة على مجرى نهر مراد ، وسميساط الواقعة على مجرى نهر الفرات بعد خروجه من جبال طوروس ولم يتنبه المحققون لهذا الخلط ، فجاءت النصوص عند الاصطخري وعند ابن حوقل على غير حقيقتها . كما واظهر التصويب الذي اجريناه في نصوص الاصطخري وابن حوقل ،بان نظرة الجغرافيين الثلاثة الى الحدود الشمالية للجزيرة واحدة في الاصل ، وهي متفقة في أن القوس المائي الذي يرسمه المجرى الادنى لنهر مراد ومجرى نهر الفرات من مصب نهر مراد الى وصوله الى ملطية هو الحد الطبيعي والاداري للجزيرة في الشمال ، الامر الذي سوف تكون له اهميته في دراسة الكثير من الاحداث التاريخية التي جرت في المنطقة والتي تباينت وجهات النظر في نسبتها الى الجزيرة أو لخارجها .

لذا ، فاننا نتوجه بالرجاء الى لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق ، ان تقوم باعادة طباعة كتابي الاصطخري وابن حوقل ، بعد أن تعيد تحقيقهما تحقيقا دقيقا ، وذلك لما لهذين الكتابين من أهمية جغرافية وتاريخية كبيرة والله الموفق .

* * *

جاء في كتاب الاصطخري « مسالك الممالك » ما يلي : « واما الجزيرة فانها بين دجلة والفرات وتشتمل على ديار ربيعة ومضر ، ومخرج الفرات من داخل بلد الروم من ملطية على يومين **ويجري بينها وبين سميساط** * ويمر على سميساط وجسر منبج وبالس الى الرقة وقرقيسيا ** والرحبة وهيت والانبار وقد انقطع حد الفرات مما يلي الجزيرة ، ثم يعدل حد الجزيرة في سمت الشمال الى تكريت وهي على دجلة حتى ينتهي عليها الى السن مما يلي الجزيرة والحديثة والموصل وجزيرة ابن عمر ثم يتجاوز آمد فينقطع حد دجلة على بعد من حد ارمينية ، **ثم يمتد مغربا الى سميساط** ، ثم ينتهي الى مخرج ماء الفرات في حد الاسلام من حيث ابتدانا ، ومخرج دجلة فوق آمد من حد بلد الارمن وعلى شرقي دجلة وغربي الفرات مدن وقرى تنسب الى الجزيرة وهي خارجة عنها لقربها منها » (١ ، ٢ ، ٣) .

ارض الجزيرة *

واما الجزيرة فانّها ما بين دجلة والفرات وتشتمل على ديار ربيعة ومضر، ومخرج الفُرات من داخل بلد p الروم من ملطية على يومين * ويجرى بينها q وبين سُمَيْسَاط r ويمرّ على سميساط وجسر منبج وبالس الى الرَّقّة، وقرقيسيا والرحبة وهيت والانبار وقد انقطع حدّ الفُرات ممّا يلى الجزيرة ثم يعدل حدّ الجزيرة فى سمت الشمال الى تكريت وهى على دجلة حتّى ينتهى عليها الى السنّ مما يلى الجزيرة والحديثة والموصل وجزيرة ابن عمر ثمّ يتجاوز آمد فينقطع d حدّ دجلة على بعد من حدّ ارمينية ثمّ يمتدّ مغرباً الى سميساط ثمّ ينتهى الى مخرج مآء الفرات فى حدّ الاسلام f من حيث ابتدانا، ومخرج دجلة فوق آمد من حدّ بلد الارمن g وعلى شرقىّ دجلة وغربىّ الفرات مدن وقرى تنسب الى الجزيرة وهى h خارجة عنها لقربها منها؛ *

الشكل (١)

النص كما ورد عند الاصطخري ، تح . دي جوييه ، ص ٧١ — ٧٢

صورة مشابهة لما ورد عند الاصطخري في حدود الجزيرة نراها عند ابن حوقل في كتابه « صورة الارض » ، مع تعديل طفيف حيث يقول :

---

* اشار دي جويه في هامش كتاب مسالك الممالك الى ورودها في المخطوطة (D) باسم شمشاط .

** الاسم الحالي لقرقيسيا هو البصيرة ، ولآمد ، ديار بكر .

« فأما الجزيرة التي بين دجلة والفرات فتشتمل على ديار ربيعة ومضر ومخرج الفرات من داخل بلد الروم على ما شكلته مجتازا من ملطية على **يومين ، ويجري بينها وبين المدينة المعروفة كانت بشمشاط للمسلمين** ، ويمر على سميساط ونواحي جسر منبج على بالس الى الرقة وقرقيسيا والرحبة وهيت والانبار ، وينقطع الحد عن الفرات مما يلي الجزيرة بالانبار ثم **يعود حد الجزيرة الى** سمت الشمال فيكون الحد العراق وتكريت على دجلة وينتهي الحد منها مصاعداً على دجلة الى السن مما يلي الجزيرة والى الحديثة والموصل ، ويصعد بصعود دجلة الى الجزيرة المعروفة بابن عمر ثم يتجاوزها الى آمد ، فيكون مافي غربها من حد ارمينية ، **ثم يعود الحد مغربا على البر الى سميساط** ، ثم ينتهي الى مخرج ماء الفرات في حد الاسلام من حيث ابتداؤه ، وعلى شرقي دجلة . وغربي الفرات مدن وقرى تنسب الى الجزيرة وهي خارجة عنها ونائية منها » ، (٤) .

اما ابو الفداء وهو الثالث بين الجغرافيين العرب الذين ذكروا حدود الجزيرة بالتفصيل فقد قال : « الجزيرة هي البلاد التي بين دجلة والفرات ، وقد ضموا كثيرا من البلاد الفراتية التي في الجانب الاخر من الفرات من بر الشام الى الجزيرة لقربها من البلاد الجزرية مثل الرحبة وغيرها ، **والذي يحيط بالجزيرة الفرات من حدود بلاد الروم وهو طرف الحد الغربي الجنوبي للجزيرة ، فيمتد الحد الجنوبي الغربي مع الفرات الى ملطيه الى سميساط** الى قلعة الروم الى البيرة الى قبالة منبج الى بالس الى الرقة الى قرقيسيا الى الرحبة الى هيت الى الانبار ، ومن الانبار بخرج الفرات عن تحديد الجزيرة ، ثم يعطف الحد من الانبار الى تكريت وهي على **دجلة الى السن الى الحديثة على دجلة الى الموصل الى جزيرة ابن عمر الى آمد** ، ثم يصير الحد غربيا ممتدا بعد أن يتجاوز آمد على حدود ارمينية **الى حدود بلاد الروم الى الفرات عند ملطية من حيث ابتدأنا ، فعلى هذا يكون بعض ارمينية وبعض الروم** غربي الجزيرة وبعض البادية جنوبيها والعراق شرقيها وبعض ارمينية شماليها ، **والجزيرة تشتمل على ديار ربيعة وديار مضر وديار بكر »**(٥) .

في هذه النصوص الثلاثة المبينة لحدود الجزيرة اختلاف في الحد الشمالي ملفت للنظر ، فما ورد في النص عند الاصطخري يدفع بالحدود الشمالية للجزيرة الى الجنوب من حدها المائي الطبيعي المتمثل بالمجرى الادنى لنهر شمشاط (نهر ارسناس كما اسمته الروم ومرادصو كما يسميه الاتراك) وذلك في قوله : **« ثم يعود الحد بعد**

يقول ابن رستة في حديثه عن الاقليم الرابع : « ومن مدنه سرمن رأى والموصل وبلد ونصيبين وآمد ورأس العين وقالي‌قلا وشمشاط وحران ... » ويقول أيضا : « وكور الجزيرة ارزن وميافارقين وآمد وسميساط وقردى وبازبدى وبلد ونصيبين ودارا ورأس‌العين وقرقيسيا والرقةوسروجوحرانورها*وراس كيف **وشمشاط» كما يقول : « ومن كور الجزيرة مما يسمى الثغور شمشاط وملطية وزبطرة ومرعش والحدث وسميساط وحصن منصور ، وتقسم كور الجزيرة كلها الى قسمين: قسم يسمى ديار ربيعة وقسم يسمى ديار مضر » ، (٦) . وأورد ابن خرداذبة مدينه شمشاط في عداد الثغور الجزرية وهي : سلغوس وكيسوم وشمشاط وملطية وزبطرة والحدث ومرعش وكمخ وحصن منصور وقوروس ودلوك ورعبان ، وقال ابو الفداء : « قال في اللباب : وشمشاط بلدة بالثغور الجزرية بين آمد وخرت برت *** (٧) . وادخل ياقوت الحموي مدينة شمشاط في‌الجزيرة في ديار مضر ، حيث عرف ديار مضر بقوله : « وهي ماكان في السهل بقرب من شرقي الفرات نحو حران والرقة وشمشاط وسروج وتل موزن » ، (٨) ، كما قال فيها : « شمشاط مدينة على شاطىء الفرات شرقيها بالوية وغربيها خرتبرت ، وهي الان محسوبة من اعمال خرتبرت »(٩) وقال الاصطخري نفسه عند حديثه عن الشام : « وشمشاط هي ثغر الجزيرة لانها في غربي دجلة وشرقي الفرات ، واما ملطية وما ذكرناه من ثغور الشام فانما نسبناها الى الجزيرة لان اهلها يرابطون بها لقربهم منها ، والا فثغر الجزيرة على الحقيقة شمشاط » (١٠ - ١١) . كما ورد في مخطوطة كتاب الاقاليم للاصطخري وهو الاسم الاخر لكتاب مسالك الممالك ، قوله : « .. .وأما ملطية وماذكرناه من الثغور في ثغر الشام فانها تنسب الى ثغور الجزيرة لان اهل الجزيرة ينتابونها لقربها منهم ، والثغر الذي هو من صلب الجزيرة شمشاط » (١٢) . وقال قدامه في ذكر الطرق والمسافات : « وبين آمد وشمشاط بقرب ثغور الروم سبعة فراسخ » ، (١٣) . فشمشاط كما هو بيّن ثغر من صلب الجزيرة وجزء من أراضيها ويقع داخل‌حدودها، واذا كان الجغرافيون العرب قد اختلفوا في تبعية بعض الثغور الى الجزيرة ، الا أنهم لم يختلفوا في تبعية شمشاط لها . فهم اختلفوا حول تبعية ملطية ، حيث جعلها ابن خرداذبة من الجزيرة وعدها في جملة ثغورها (١٤) ، بينما اخرجها الاصطخري من اقليم الجزيرة وادخلها في اقليم الشام ، وذلك بقوله : « وقد جمعت الى الشام الثغور وبعضه يعرف بثغور الشام وبعضه يعرف بثغور الجزيرة وكلاهما من الشام ،

---

* الرها حاليا هي مدينة اورفة .

** ترد احيانا باسم حصن كيفا .

*** تعرف بحصن زياد واسمها الحالي خربوط .

وذلك ان ماوراء الفرات من الشام وانما سمي من ملطية الى مرعش بثغور الجزيرة لان اهل الجزيرة بها كانوا يرابطون ويغزون لا لانها من الجزيرة » (١٥) . كذلك فعل ابن حوقل الذي أورد النص نفسه تقريبا وذلك في قوله : « قد جمعت الثغور الى الشام وبعض الثغور كانت تعرف بثغور الشام ، وبعضها تعرف بثغور الجزيرة ، وذلك أن كل ماكان وراء الفرات فمن الشام وانما سمي من ملطية الى مرعش ثغور الجزيره لان أهل الجـزيرة بها كانوا يرابطون ويغـزون ، لا لانهـا من الجـزيرة واعمالها »(١٦) . بينما رأى ابو الفداء في تبعية ملطية رأيا آخر حيث اتبعها ببلاد الروم وذلك بقوله :« وقد عد ابن حوقل ملطية في جملة بلاد الشام ... ، وأما نحن فعددناها في بلاد الروم وهو اليق بها (١٧) . كذلك خالف الاصطخري ومن بعده ابن حوقل من سبقه من الجغرافيين والاداريين العرب في ادخال ميا فارقين في الجزيرة مبينا أسباب ذلك بقوله : « وميا فارقين * يعدها قوم من الجزيرة الا أنها دون دجلة وخلفها حد دجلة فيما صورنا مابين دجلة والفرات لذلك جعلناها بارمينية (١٨) .

ان مثل هذا الخلاف عند الجغرافيين والاداريين بالنسبة لتبعية بعض الثغور للجزيرة لانراه الا نادرا بالنسبة لتبعية شمشاط لها ، بل هو في حقيقته تناقض يقع فيه المؤلف نفسه . مثال ذلك مانراه عند ياقوت الحموي ، فهو في تعريفه لديار مضر ادخل شمشاط في الجزيرة كما رأينا قبل قليل ، وفي تعريفه لشمشاط قال : « شمشاط مدينة بالروم على شاطىء الفرات شرقيها بالوية وغربيها خرتبرت »(١٩) ، ثم قال في حديثه عن ارمينية : « وهي ارمينيتان الكبرى والصغرى .. .، وقيل هي ثلاث ارمينيات وقيل اربع ... ، والرابعة بها قبر صفوان بن المعطل صاحب رسول الله (ص) وهي قرب حصن زياد ، ومن الرابعة شمشاط وقاليقلا وارجيش وباجنيس » (٢٠) .

تقع شمشاط على الضفة الجنوبية لنهر حمل اسمها كان يعرف قبل الفتح بنهر ارسناس وكذلك ارسونياس ، ويطلق عليه اليوم اسم نهر مراد أو مرادصو ، وقدعرفها الروم باسم ارموساتا Armosata (٢١) وارساموساتا Arsamosata (٢٢) . وقد ذكر موقعها هذا وذكر نهرها كل من : ابن خرداذبة ، وذلك بقوله : « ومخرج الفرات من قاليقلا ، ويمر بأرض الروم ويستمد من عيون كثيرة ، ويصب فيه نهر ارسناس نهر شمشاط ، ويجيء الى كمخ ويجري على ميلين من ملطية ويجيء الى

---

* تعرف اليوم باسم سيلواني . (الجزيرة السورية بين الماضي والحاضر ، تاليف اسكندر داود ، ص ٨٤) ـ كما تعرف باسم سيلوان . Silvan

جبلتا حتى يبلغ الى سميساط ، فيحمل من هناك السفن والاطواف ويجيء حتى يبلغ السواد . (٢٣) . كما ذكر ذلك سهراب بن سرابيون في معرض حديثه عن الانهار الصابة في الفرات وذلك بقوله : « ويصب في الفرات ايضا نهر يقال له نهر ارسناس هو نهر شمشاط ، واوله من جبل على حد بلد طرون ، ثم يمر بباب مدينة شمشاط ، ثم يمر بالقرب من باب حصن يقال له حصن زياد ، وعلى جانبي هذا النهر حصون ستة ، ثم يصب في الفرات فوق ملطية بمرحلتين في الجانب الشرقي » (٢٤) . كما كرر الاشارة الى موقع شمشاط على نهر ارسناس في حديثه عن الانهار الرافدة الانهار الصابة في الفرات وذلك بقوله : « ارسناس نهر يصب اليه نهر يقال له نهر الذئب ، مخرجه من جبل في ناحية قاليقلا يدور فيمر بحصون كثيرة ويصب في ارسناس فوق مدينة شمشاط بشيء يسير (٢٥) . وقال ابو الفداء : « ويصب في الفرات ويخرج منها انهر كثيرة ، فمن الانهار التي تصب فيها نهر شمشاط وهو نهر يمر على شمشاط ، ثم يمر على حصن زياد وهو خرتبرت ، ثم يصب في الفرات فوق ملطية » (٢٦) .

فتح المسلمون الجزيرة في عهد عمر بن الخطاب بقيادة عياض بن غنم ثم فتحوا ارمينية واخذوا بالتوغل عبر الدروب في جبال طوروس ، وتمكنوا في العصر الاموي من دفع خط الحدود مع البيزنطيين بعيدا عن الشاطىء الغربي لنهر الفرات ، وكانت معظم حروب الامويين مع البيزنطيين حروب استقرار ، حيث كانوا يعمرون مايحتلونه من اراضي ويقيمون فيها الجند ويبنون الحصون لمنع العدو من استرجاعها . ثم استلم العباسيون الثغور التي اسسها الامويون وكانت تتألف من اعداد كبيرة من الحصون والقلاع والمدن المحصنة (٢٧) ، منها شمشاط وحصن زياد على نهر ارسناس وكمخ وملطية على الفرات ، وقام ابو جعفر المنصور باعادة بناء ماتخرب منها ، وبتنظيم الصوائف والشواتي وشحن الثغور بالرجال والعتاد ، وجعل من منطقة الجزيرة كيانا اداريا مستقلا . وقد تابع المهدي سيرة والده وكذلك فعل الرشيد ، مضيفا الى ذلك تأسيس اقليم مشابه لاقليم الاطراف البيزنطي على حدود البلاد الاسلامية الشمالية اطلق عليه اسم العواصم ، كانت عاصمته منبج ثم انطاكية ، ورتب له جيشا دائما يرابط على طول حدوده (٢٨) . *

ظلت المواقع الحدودية المتقدمة في اسيا الصغرى قوية طوال العهد العباسي الاول ، الا ان انشغال الخلافة العباسية بتفاقم الثورات الكبيرة التي نشأت فيها ، مثل ثورة الزنج ، التي ظهر صاحبها للناس في سنة ٢٥٥ هـ ، وشغل الخلافة العباسية

* ان الترتيب الاداري الذي اوجده الرشيد للثغورلم يدم طويلا .

في قتاله أربع عشرة سنة وأربعة اشهر (٢٥٥ – ٢٧٠ هـ) ، فكانت مصيبة عظيمة على أهل الاسلام (٢٩) ، وذلك في فترة حكم الخليفة المعتمد (٢٥٦ – ٢٧٩ هـ) ، ثم ثورة القرامطة التي بدأت في سنة ٢٧٨ هـ واستمرت الى سنة ٣٧٨ هـ (٣٠) ، وقصر الفترة التي حكم فيها الطولونيون بلاد الشام ، مكن باسيل الاول مؤسس الاسرة المقدونية من أن يدفع المسلمين شرقا على طول خط الحدود ، وان يستولي تدريجيا ما بين سنتي ٢٥٨ – ٢٦٩ هـ / ٨٧١ – ٨٨١ م على جميع المعابر التي كانت تنفذ منها جيوش المسلمين الى آسيا الصغرى (٣١) . الا ان المسلمين استطاعوا في فترة حكم المعتضد وفي فترة حكم المكتفي وفي معظم الفترة التي حكم فيها المقتدر (٢٩٥ – ٣٢٠ هـ) من الظهور على الروم ، حيث تمكنوا من فتح عدد كبير من الحصون البيزنطية ، وتوغلت الصوائف الى اماكن متقدمة في أراضي بيزنطة ، فأخربوا قونية في سنة ٢٩٤ هـ ، واحرق رستم امير الثغور حصن مليح الارمني في آسيا الصغرى في سنة ٢٩٩ هـ ، وفي سنة ٣٠٢ هـ سار وزير المقتدر علي بن عيسى لغزو الصائفة فلم يتيسر له غزاها ثانية في برد شديد وثلج ، وغزا أيضا بشر والي طرسوس بلاد الروم ففتح فيها وغنم واسر مائة وخمسين بطريقا ، (٣٢) . واستمرت الحال على ذلك حتى عام ٣٠٥ هـ حيث جاءت رسل من ملك الروم للخليفة المقتدر يطلبون المهادنة والفداء فاجيبوا الى ذلك ، وامتدت الهدنة من عام ٣٠٥ هـ – ٣١٠ هـ . هذا وتشير قائمة الجباية التي اعدها علي بن عيسى وزير المقتدر لسنة ٣٠٦ هـ/٩١٨ م ، الى انه لم يخرج من يد المسلمين من الثغور الجزرية الا ثغر كمخ ،بينما ظلت البقية في ايديهم ، حيث وردت فيها مقادير الجباية في شمشاط وحصن منصور وكيسوم وارزن وميافارقين وغيرها من ثغور الجزيرة(٣٣) . وفي سنة ٣١٢ هـ عاد رسل ملك الروم مرة ثانية بطلب الهدنة وتقرير الفداء فاجيبوا الى ذلك ، ثم غدر الروم بالصائفة فدخل المسلمون بلادهم فأثخنوا فيها ، الا أن الثغور ضعفت بعد ذلك عن دفع الروم ، لانشغال المقتدر بالفتن الداخلية ، فاستولى الروم على ملطية في سنة ٣١٤ هـ ، ثم ملكوا خلاط وبدليس صلحا في سنة ٣١٦ هـ ، وفارق اهل أرزن بلادهم خوفا من الروم(٣٤) . (اورد ابن حوقل استيلاء الروم على ملطية في سنة ٣١٩ هـ/٩٣١م وقال في ذلك : « فكانت أول مصيبة دخلت على الاسلام من جهة الثغور » (٣٥)) .

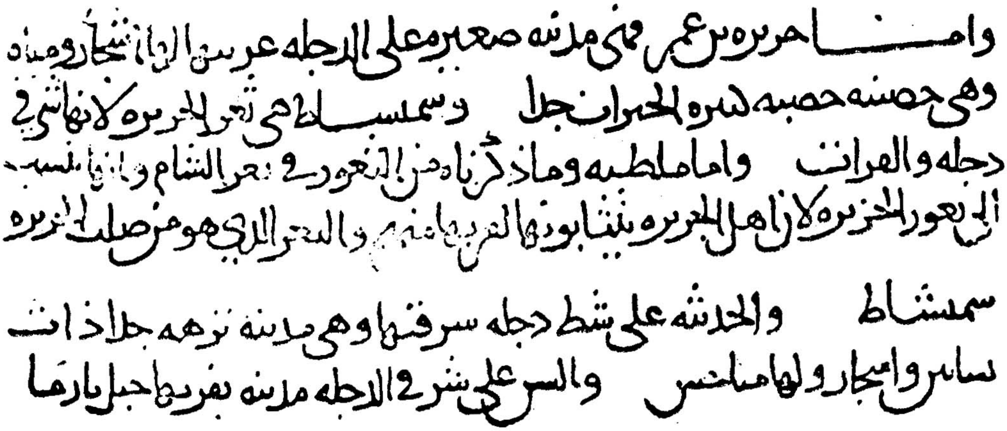
قدر الباحثون فترة وضع الاصطخري لكتابه مسالك الممالك فيما بين سنة ٣١٨ و ٣٢١ هـ /٩٣٠ – ٩٣٣ م (٣٦) ، اي في أواخر عهد المقتدر . فاذا اخذنا بما كتبه الاصطخري عن الثغور في فصل « ذكر ارض الشام » والذي يقول فيه : « ... ومما يلي الروم الثغور وهي ملطية والحدث ومرعش والهارونية والكنيسة وعين زربة والمصيصة واذنة وطرسوس » (٣٧) ، وكذلك قوله : « واما العواصم فاسم الناحية وليس موضع

بعينه يسمى العواصم ، وقصبتها انطاكية وهي بعد دمشق انزه بلد بالشام ... وملطية مدينة كبيرة من اكبر مدن الثغور التي دون جبل اللكام وتحتف بها جبال كثيرة الجوز وسائر الثمار مباح لا مالك له وهي من قرى بلد الروم على مرحلة ، وحصن منصور حصن صغير فيه منبر وزروعه عذي ، والحدث ومرعش وهما مدينتيان صغيرتان عامرتان ... ، واما زبطرة فانه حصن كان من اقرب هذه الثغور الى بلد الروم خربه الروم ، والهارونية من غربي جبل اللكام .. ، واسكندرونة حصن على ساحل بحر الروم صغير به نخل وبياس مدينة صغيرة على شط بحر الروم ذات نخل وزروع خصبة ، والبثنيات * حصن على شط البحر ايضا فيه يجمع خشب الصنوبر الذي ينقل الى الشامات والى مصر والثغور ، والكنيسة ، والمثقب حصن صغير بناه عمر بن عبد العزيز به منبر ومصحف له ، وعين زربة بلد يشبه مدن الغور بها نخيل وهي خصبة واسعة الثمار والزروع والرعي ، والمصيصة مدينتان احداهما تسمى المصيصة والاخرى تسمى كفر بيا على جانبي جيحان وبينهما قنطرة حجارة حصينة جدا .. ، واذنة مدينة تكون مثل احد جانبي المصيصة على نهر يسمى سيحان وهي مدينة خصبة عامرة .. ، وطرسوس مدينة كبيرة عليها سوران من حجارة تشتمل على خيل ورجال وعدة وهي في غاية العمارة والخصب وبينها وبين حد الروم جبال هي الحاجز بين المسلمين والروم .. ، وأولاس حصن على ساحل البحر وهي آخر ما على بحر الروم من العمارة للمسلمين » (٣٨). وبأن المسلمين استطاعوا في سنة ٣١٩هـ غزو بلاد الروم في الشتاء بقيادة ثمال والي طرسوس واسروا نحوا من ثلاثة آلاف من الروم ، ثم غزاها ثمال في الصيف فبلغ عمورية وقد فارقها الروم ، وأوغل المسلمون في بلاد الروم ينهبون ويقتلون ويخربون حتى بلغوا انقرة(٣٩) . ومما اوردته الدكتورة امينة بيطار عن حروب الحمدانيين المظفرة ضد البيزنطيين في الجبهة الارمنية وفي اقليم الجزيرة والتي امتدت من سنة ٣١٩ هـ الى سنة ٣٣٣ هـ/٩٣١ م الى ٩٤٤ - ٩٤٥ م ، تمكن الحمدانيون فيها من تحقيق النصر على البيزنطيين في معظمها ، فاستعادوا ملطية في سنة ٣١٩ هـ ، وحطموا بقيادة سيف الدولة مقاومة البيزنطيين بين حصن سلام وحصن زياد ، ونزل سيف الدولة على قلونية في العمق البيزنطي واحرق رساتيقها وسلب ضياعها (٤٠) ، ادركنا بأن الثغور الشامية والجزرية بما فيها شمشاط كانت في حوزة المسلمين في الفترة التي وضع فيها الاصطخري كتابه ، ولم تسقط شمشاط في أيدي الروم الا بعد وفاة الاصطخري التي كانت في سنة ٣٤٦ هـ /٩٥٧ م ، أو في منتصف القرن الرابع الهجري على ابعد تقدير (٤١) ، اي في فترة ضعف الامارة

* وردت في بعض المصادر باسم التينات وفي مصادر اخرى باسم الثنيات .

الحمدانية ورجحان كفة البيزنطيين ، ومن هنا جاء قول ابن حوقل : « ويجري بينها وبين المدينة المعروفة كانت بشمشاط للمسلمين * » واذا اضفنا الى كل ماقدمناه من شواهد جغرافية وتاريخية عن تبعية شمشاط للجزيرة طبيعيا واداريا وسياسيا في الفترة التي وضع فيها الاصطخري كتابه ، التجديد الذي جاء به الاصطخري والذي **تمثل في تقسيمه العالم الاسلامي الى اقاليم تقسيما يقوم على اساس جغرافي لا اداري،** وهو الامر الذي لم يسبقه اليه احد على مايبدو (٤٢) ، سهل علينا توقع وجود تصحيف في النص أدى الى الخلط بين شمشاط وسميساط واستبدال الواحدة بالاخرى في حالات كثيرة ، وقع النساخ فيه ، ولم ينتبه اليه المحققون المحدثون في بعض الحالات ، وقد كانت دلائل هذا التصحيف عديدة نورد منها ما يلي :

في النسخة المصورة عن مخطوطة كتاب الاقاليم الاصطخري وهو الاسم الآخر لكتاب مسالك الممالك كما اشرنا من قبل ، التي نشرها الدكتور ج.ن مولر Dr. J. H. Moeller ، والموجودة في مكتبة كلية الاداب بجامعة دمشق برقم (١٤٧) نجد **ما يلي : « وسمساط هي ثغر الجزيرة لانها شرقي دجلةوالفرات ، واما ملطية وماذكرناه** من الثغور فهي ثغر الشام وانها تنسب الى ثغور الجزيرة لان أهل الجزيرة ينتابونها لقربها منهم والثغر الذي هو من صلب الجزيرة سمشاط » (ص ٤١) .



الشكل (٣) من مخطوطة كتاب الاقاليم للاصطخري

---

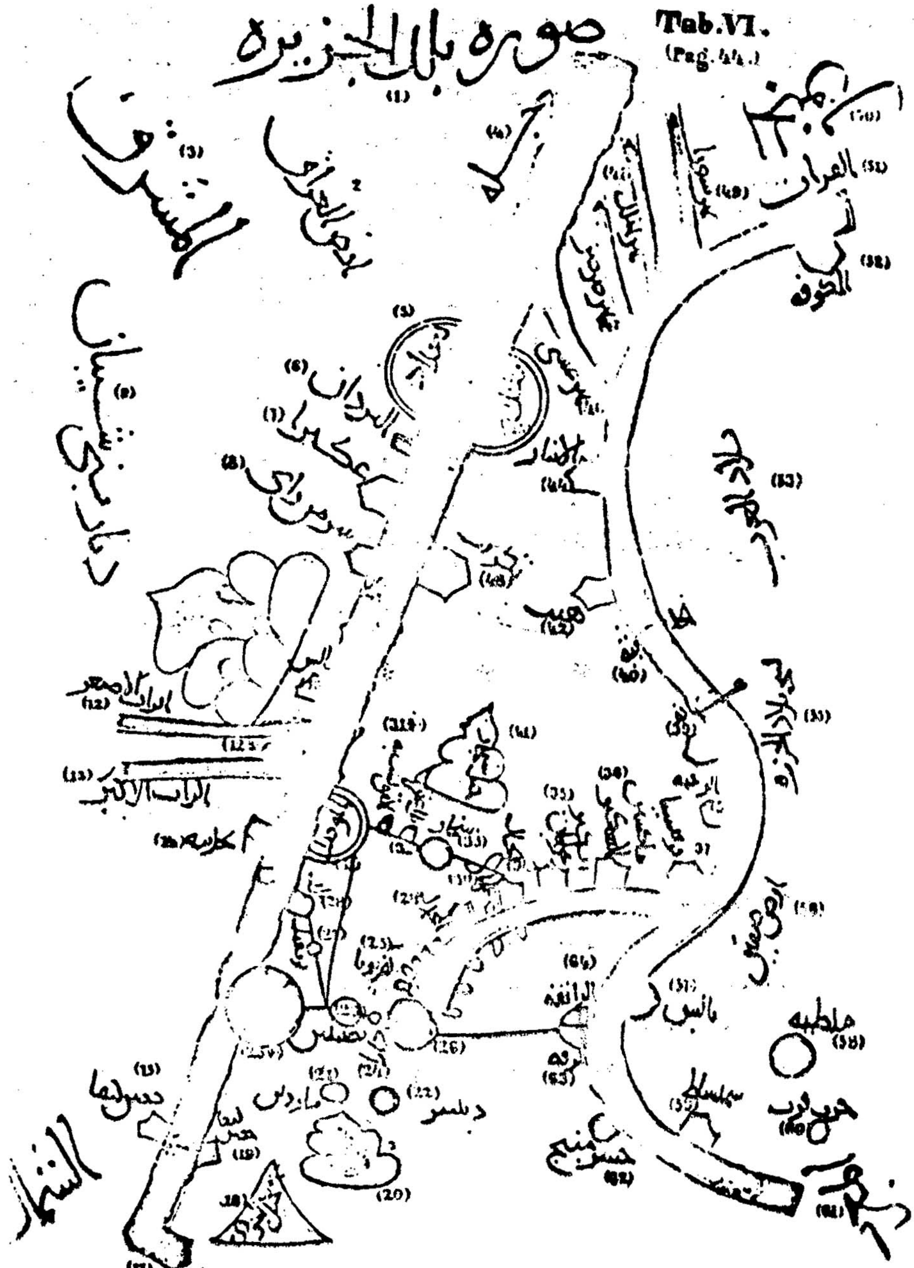
* انظر تغيرات الحدود في منطقة الثغور في هذه الفترة في خريطة مصر وسورية من اطلس توبنغر Tubinger Atlas الطولونيون والاخشيديون والحمدانيون .

من الواضح ان سمساط الواردة في أول الفقرة هي شمشاط وقد حذفت نقاطها، ذلك ان سميساط تقع الى الغرب من الفرات لا في شرقيها ، كما تبعد كثيرا عن دجلة . كما حذفت نقاط الشين الاولى من كلمة شمشاط الواردة في آخر الفقرة . وفي صورتي الشام والجزيرة من المخطوطة نفسها نجد في صورة الجزيرة وبالقرب من الرمز الدال على جسر منبج على الشاطيء الغربي للفرات رمزا لمدينة كتبت بجانبه عبارة سمساط ، وفي صورة الشام وفي الموقع نفسه وللمدينة ذاتها كتبت الى جانب الرمز عبارة شميشاط . وفي كتاب صورة الارض لابن حوقل وفي الحديث عن جبل اللكام واتصاله بجبال طوروس وزاغروس حيث نجد : « ... ولا يزال هـذا الجبل يستمر من اعمال آمد ونواحي دجلة الى الفرات فيكون سميساط فيه ويتصل بحدود مرعش » (ص ١٥٧) ، فالمقصود هنا شمشاط لا سميساط ، ذلك ان سميساط تقع على الفرات بعد خروجه من جبال طوروس وبعيدا عنها . اضف الى ذلك مانراه في اشارات محققي المخطوطات المختلفة عن وجود مثل هذا الخلط والتي تبين في الهوامش عند طباعتها ، كما في كتاب مسالك الممالك للاصطخري وفي كتاب الخراج لقدامه بن جعفر وفي تقويم البلدان لابي الفداء وفي أحسن التقاسيم للمقدسي .

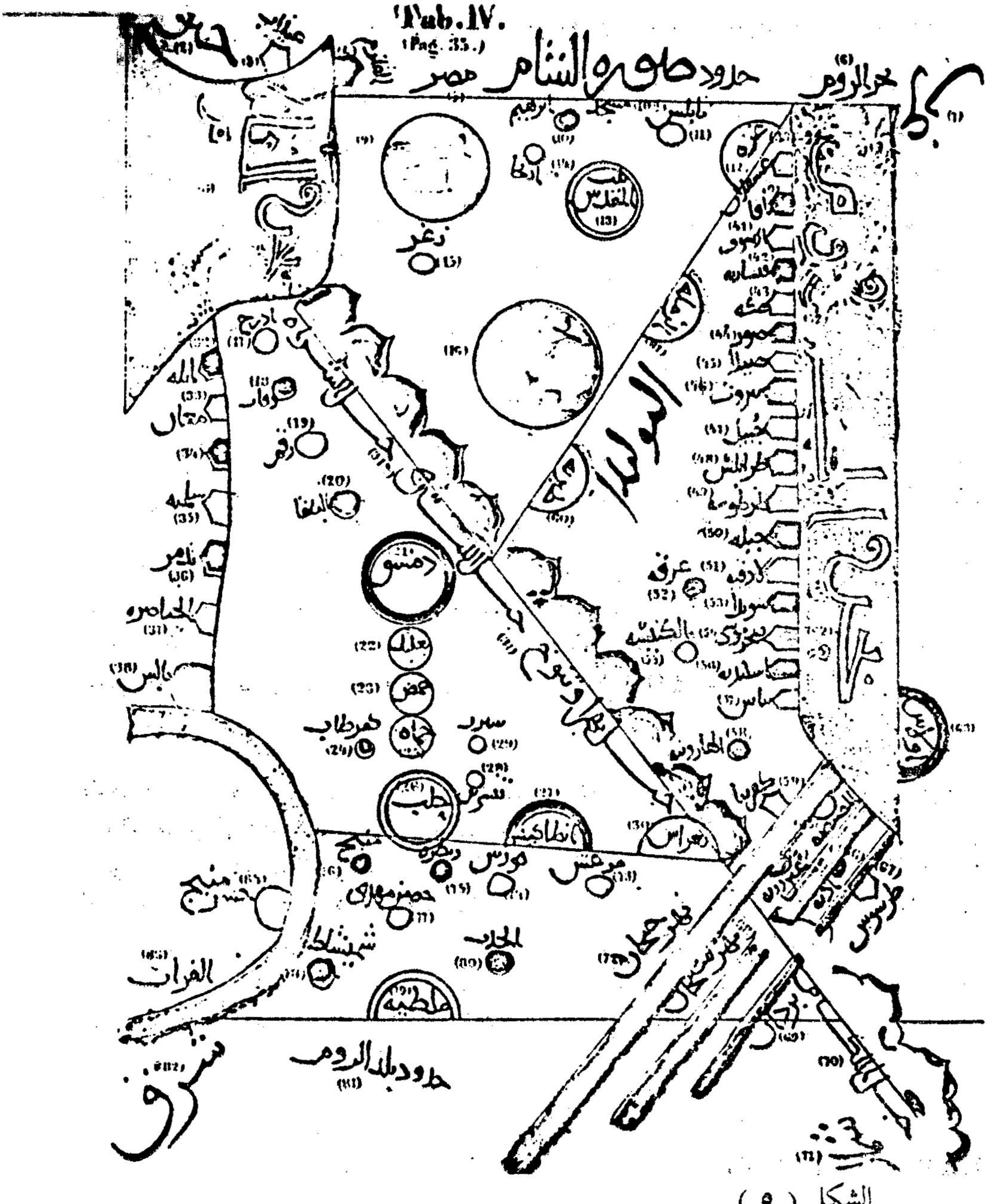
* * *

اخيرا لننظر في النصوص التالية :

في كتاب مسالك الممالك للاصطخري تحقيق دي جويه **M. J. De Goeje** وطباعة عام ١٩٢٧ ورد النص التالي : « واما العواصم فقصبتها انطاكية ... ، واما الثغور فانه لاقصبة لها وكل مدينة قائمة بنفسها ومنبج قريبة الى الثغور ومن منبج الى ملطية ٤ ايام ومن منبج الى سميساط يومان ومن منبج الى الحدث يومان ومن سميساط الى شمشاط يومان ومن **شمشاط الى حصن منصور** يوم ومن حصن منصور الى ملطية يومان » ص ٦٧ (٤٣) .



الشكل (٤)


Tab. IV.
(Pag. 33.)
حدود صورة الشام
مصر
بحر الروم
بيت المقدس
دمشق
بعلبك
حمص
حماه
حلب
الفرات
حدود بلد الروم

الشكل (٥)

ومنبج قريبة الى[h] الثغور ومن منبج الى الفرات مرحلة خفيفة ومن منبج
الى قورس مرحلتان ومن منبج الى ملطية ٤ ايام ومن منبج *الى سميساط
يومان ومن منبج الى الحدث يومان ومن سميساط الى شمشاط يومان
ومن شمشاط الى حصن منصور يوم ومن حصن منصور الى ملطية يومان
*ومن حصن منصور الى زبطرة يوم ومن حصن منصور الى الحدث يوم[k]
ومن الحدث الى مرعش يوم *ومن ملطية الى مرعش ٣ مراحل كبار[l] فهذه
مسافات ثغور الجزيرة، واما الثغور الشامية فمن اسكندرونة[m] الى بياس مرحلة
خفيفة[n] ومن بياس الى المصيصة مرحلتان ومن المصيصة الى عين زربة يوم

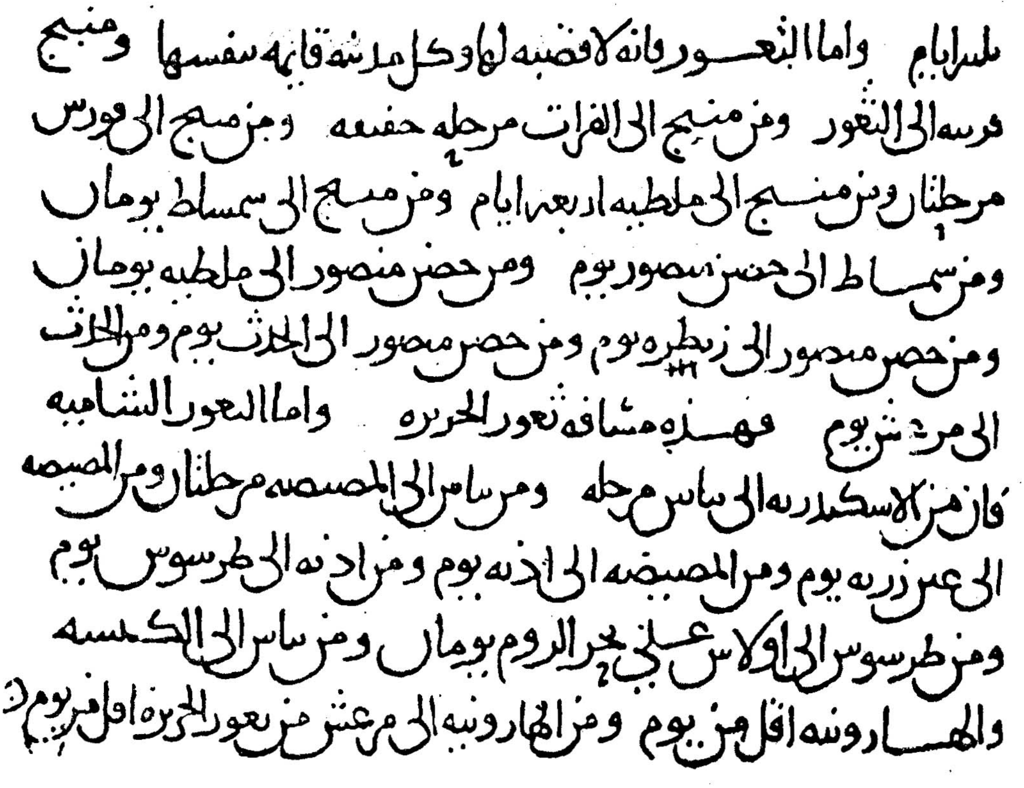
الشكل (٦) : النص كما ورد في المسالك والممالك للاصطخري ، ص ٦٧

وفي كتاب مسالك الممالك للاصطخري تحقيق الدكتور **محمد جابر عبد العال الحيني** ومراجعة محمد شفيق غربال ورد النص نفسه حيث جاء فيه : « واما العواصم فقصبتها انطاكية . . ، واما الثغور فانه لاقصبة لها وكل مدينة قائمة بنفسها ومنبج قريبة من الثغور ومن منبج الى الفرات مرحلة خفيفة ومن منبج الى قورس مرحلتان ومن منبج الى ملطية ٤ ايام ومن منبج الى سميساط يومان ومن منبج الى الحدث يومان ومن سميساط الى شمشاط يومان ومن **شمشاط الى حصن منصور** يوم **ومن حصن منصور الى ملطية يومان . . .** » (ص٤٩) (٤٤) .

وفي كتاب صورة الارض لابن حوقل تحقيق كريمرز **J. H. Kramers** **طبعة دار الحياة البيروتية) يتكرر النص نفسه تقريبا اذ ورد فيه : « وقد مر في ذكر العواصم ما صارت اليه من ملك الروم لها ما يغني عن اعادة فيها . والعواصم قصبتها انطاكية . . . ، والثغور فلا قصبة لها وكلٌ مدينة قائمة بنفسها ومنبج مدينة قريبة من الثغور ومنها الى** الفرات مرحلة خفيفة ومن منبج الى قورس مرحلتان ومنها الى ماطية اربعة ايام ومن منبج الى سميساط يومان ومن منبج الى الحدث يومان ومن سميساط الى شمشاط مرحلتان **ومن شمشاط الى حصن منصور** يوم ومن حصن منصور الى ملطية يومان . . »
(ص ١٧٢) .

اما في مصورة مخطوطة كتاب الاقاليم الوارد ذكرها اعلاه فقد جاء النص على الشكل التالي : واما العواصم فان قصبتها انطاكية . . . ، **واما الثغور فانه لاقصبة**

لها وكل مدينة قايمة بنفسها ومنبج قريبة الى الثغور ومن منبج الى الفرات مرحلة خفيفة ومن منبج الى قورس مرحلتان ومن منبج الى ملطية اربعة ايام ومن منبج الى سمساط يومان **ومن سمساط الى حصن منصور يوم** ومن حصن منصور الى ملطية يومان » (ص ٣٧) .


ملسرابام واما الثغور فانه لاقصبه لها وكل مدينه قايمه بنفسها ومنبج
قريبه الى الثغور ومن منبج الى الفرات مرحله خفيفه ومن منبج الى قورس
مرحلتان ومن منبج الى ملطيه اربعه ايام ومن منبج الى سمساط يومان
ومن سمساط الى حصن منصور يوم ومن حصن منصور الى ملطيه يومان
ومن حصن منصور الى زبطره يوم ومن حصن منصور الى الحدث يوم ومن الحدث
الى مرعش يوم فهذه مسافه ثغور الجزيره واما الثغور الشاميه
فان من الاسكندريه الى بياس مرحله ومن بياس الى المصيصه مرحلتان ومن المصيصه
الى عين زربه يوم ومن المصيصه الى اذنه يوم ومن اذنه الى طرسوس يوم
ومن طرسوس الى اولاس على بحر الروم يومان ومن بياس الى الكنيسه
والهارونيه اقل من يوم ومن الهارونيه الى مرعش من ثغور الجزيره اقل من يوم

الشكل (٧) من مخطوطة كتاب الاقاليم

يظهر لنا في النصوص الثلاثة الاولى خلط واضح بين شمشاط وسميساط وقع فيه المحققون الثلاثة : دي جويه والحيني وكريمرز ، ذلك أن مسافة اليوم الواردة بين شمشاط وحصن منصور هي في حقيقة الامر بين سميساط وحصن منصور ، أي كما جاءت في النص الوارد في مخطوطة كتاب الاقاليم ، ذلك ان المسافة بين سميساط وحصن منصور لاتزيد عن الخمسين كيلو مترا ، بينما يصل البعد بين حصن منصور وبين شمشاط وفي خط مستقيم الى المائة والخمسين كيلو مترا وذلك

حسب القياس الذي اجريناه في خريطة مصر وسورية ـ الطولونيون والاخشيديون والحمدانيون ـ من اطلس توبنفر مقياس ٤٠٠٠٠٠٠/١ ، وفي خريطة تركيا من اطلس العالم مقياس ٢٥٠٠٠٠٠/١ ،بعد أن حددنا عليها مواقع كل من شمشاط وحصن منصور ، وفي خريطة سورية في عصر نور الدين مقياس ١٠٠٠٠٠٠/١ لنيكيتا اليسييف . فاذا اخذنا بما أورده الدكتور احمد سوسه من ان طول الميل العربي كما حسبه نللينو C.A. Nallino يساوي ١٩٧٣ر٣ مترا (٤٥) ، وبما أورده ياقوت الحموي من أن الميل جزء من ثلاثة اجزاء من الفرسخ (٤٦) ، وأن الفرسخ بالتالي معادل لـ ٥٩١٩ر٩ مترا ، فان المسافة بين سميساط وحصن منصور هي اكثر من ثمانية فراسخ بقليل ، وان المسافة بين حصن منصور وشمشاط في خط مستقيم هي حوالي ٢٥ فرسخا ، ثم اذا اخذنا بما ذكره ابو الفداء من قول البيروني : « ان تعريجات الطرق والتواءها بحسب الجبال والوعر وغير ذلك يكون الخمس بالتقريب ، فاذا كان بين البلدين خمسون فرسخا بحسب سير السائر فيكون على خط مستقيم اربعين فرسخا » (٤٧) ، فان المسافة بين شمشاط الواقعة الى الشمال من جبال طوروس وبين حصن منصور الواقع على السفوح الجنوبية من هذه الجبال الوعرة هي :

$$٢٥ + \frac{٢٥}{٥} = ٣٠$$

فرسخا . ثم اذا اخذنا بما ذكره ابو الفداء من أن الفقهاء قدروا الستة عشر فرسخا مسيرة يومين فكل ثمانية فراسخ مسيرة يوم بالسير الوسط (٤٨) ، تبين لنا أن المسافة بين حصن منصور وشمشاط أربعة أيام بالسير الوسط أو ثلاث مراحل كبيرة ، وليست يوما واحدا كما وردت في النصوص المحققة ، يؤكد هذا ما أورده ابن خرداذبة من أن المسافة بين سميساط وحصن منصور هي ستة فراسخ وما أورده قدامة بن جعفر من ذكر للمسافات بين الرقة والثغور الجزرية والتي جاءت على الشكل التالي : ... من سميساط وهي مدينة على الفرات من الجانب الشامي الى حصن منصور ستة فراسخ وهي ثغر ، ومنها الى ملطية في عقاب شديدة عشرة فراسخ وهي ثغر ايضا الى مدينة تسمى كمخ وكانت ثغرا استولى عليه العدو أربعة فراسخ .

من كل ما تقدم نستطيع أن نصل الى النتائج التالية :

١ ــ لامجال للشك في أن الحدود الشمالية للجزيرة كما أوردها الاصطخري في الاصل ، تبدأ من المكان الذي تقترب فيه منابع دجلة من مجرى نهر ارسناس بالقرب من مدينة شمشاط ، ثم تساير النهر حتى مصبه في عمود الفرات .

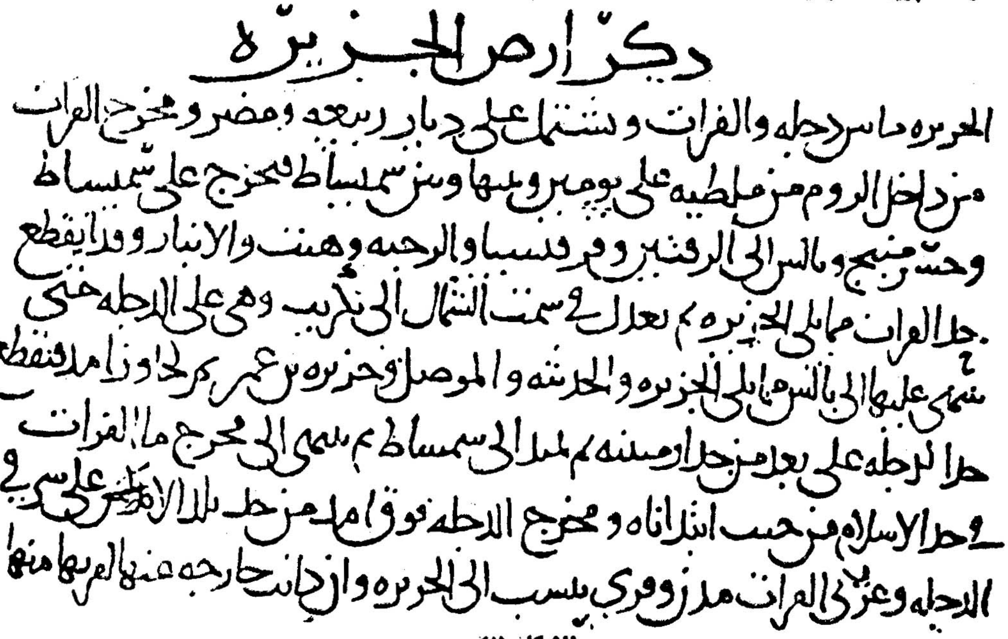
٢ ــ من غير المعقول أن يخالف الاصطخري المبدأ الذي اختطه لعمله والمتمثل في

تقسيم العالم الاسلامي على اسس جغرافية واعتماد الحدود الطبيعية اساسا في التقسيم ، فلا يأخذ بمجرى نهر شمشاط (نهر مراد) حدا شماليا للجزيرة ، علما بأنه لايوجد كما بينا ما يحول دون ذلك لا اداريا ولاسياسيا .

٣ ـ بالرغم من مشاعر المرارة وخيبة الامل التي نراها عند ابن حوقل في النسخة الثانية من كتابه صورة الإرض التي انهى كتابتها حوالي عام ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م ورفعها الى ابي السري الحسن بن الفضل بن أبي السري الاصبهاني بسبب ماوصلت اليه حالة سكان العواصم والثغور من سوء نتيجة لضعف المسلمين وتخاذل حكامهم ، (النسخة الاولى رفعها الى سيف الدولة قبل وفاة الاخير في سنة ٣٥٦ هـ) ، وبالرغم من وجود العامل السياسي والاداري الذي تمثل باستيلاء الروم على العواصم والثغور من جبلة الى شمشاط ، فانه لم يخالف التجديد الذي جاء به الاصطخري في تقسيم العالم الاسلامي تقسيما جغرافيا ، وحافظ على الحدود الطبيعية لبلاد الشام المتمثلة باعالي جبال طوروس ، كما وحافظ في بداية النص على الحدود الطبيعية للجزيرة في الشمال المتمثلة بمجرى نهر شمشاط .

٤ ـ وجود تصحيف واضح في النصوص الخاصة بالحدود الشمالية للجزيرة في مؤلفي الاصطخري وابن حوقل ، وخلط واضح بين شمشاط وبين سميساط في حالات كثيرة سهل حدوثه تشابه الاحرف في اسمي المدينتين عند كتابتها بدون نقط وبخاصة عندما يجري حذف الياء من كلمة سميساط وهو امر كثير الحدوث(٤٩)، كما سهل حدوثه عدم اهتمام بعض الجغرافيين العرب بالتمييز بين المجرى الرئيسي لنهر الفرات (عمود الفرات) حيث تقع مدينة سميساط وبين رافده الاكبر نهر شمشاط (مرادصو) حيث تقع مدينة شمشاط وتسميتهم للنهرين باسم واحد هو الفرات ، وهو مارأيناه عند ابن حوقل في قوله : « ومخرج الفرات من داخل بلد الروم على ما شكلته مجتازا من ملطية على يومين ، ويجري بينها وبين المدينة المعروفة كانت بشمشاط للمسلمين » ، وما نراه عند ياقوت الحموي في قوله : « شمشاط مدينة على الفرات شرقيها بالوية وغربيها خرتبرت » .

بعد الذي بيناه ، فاننا نرى بأن التحقيق السليم للنص الخاص بحدود الجزيرة عند الاصطخري ، والذي نورد صورة عنه مأخوذة من مخطوطة كتاب الاقاليم ، يجب أن يأخذ الشكل التالي :


ذكر ارض الجزيرة
الجزيرة ما بين دجلة والفرات وتشتمل على ديار ربيعة ومضر ومخرج الفرات
من داخل الروم من ملطية على يومين وبينها وبين شمشاط فيخرج على سميساط
وجسر منبج وبالس الى الرقتين وقرقيسيا والرحبة وهيت والانبار وقد انقطع
حد الفرات مما يلي الجزيرة ثم يعدل في سمت الشمال الى تكريت وهي على الدجلة حتى
ينتهي عليها الى السن مما يلي الجزيرة والحديثة والموصل وجزيرة ابن عمر ثم يجاوز امد فينقطع
حد الدجلة على بعد من حد ارمينية ثم يمتد الى سميساط ثم ينتهي الى مخرج ماء الفرات
في حد الاسلام من حيث ابتدأناه ومخرج الدجلة فوق امد من حد بلد الارمن وعلى شرقي
الدجلة وغربي الفرات مدن وقرى ينسب الى الجزيرة وان كانت خارجة عنها لقربها منها

الشكل (٨)

من مخطوطة كتاب الاقاليم

« الجزيرة مابين دجلة والفرات ، وتشتمل على ديار ربيعة ومضر . ومخرج **الفرات** من داخل بلد الروم من ملطية على يومين ويجري بينها وبين **شمشاط** ، فيخرج على سميساط وجسر منبج وبالس الى الرقتين وقرقيسيا والرحبة وهيت والانبار وقد **انقطع حد الفرات مما يلي الجزيرة** ، ثم يعدل في سمت الشمال الى تكريت وهي على الدجلة حتى ينتهي عليها الى السن مما يلي الجزيرة والحديثة والموصل وجزيرة ابن عمر ، ثم يجاوز آمد فينقطع حد الدجلة على بعد من حد ارمينية ثم يمتد مغربا الى **شمشاط** ثم ينتهي الى مخرج ماء الفرات في حد الاسلام من حيث ابتدأناه ، ومخرج الدجلة فوق آمد من حد بلد الارمن ، وعلى شرقي دجلة وغربي الفرات مدن وقرى تنسب الى الجزيرة وان كانت خارجة عنها لقربها منها » .

وبهذا يستقيم الامر فينطبق الحد في الشمال على الحد الطبيعي للجزيرة المتمثل بمجرى نهر مراد (نهر شمشاط) ويصحح الخطأ الذي وقع فيه كل من دي جويه وكريمرز والحيني .

* * *

الحواشـــي :

(١) الاصطخري ، مسالك الممالك ، تحقيق دي جويه،(ص ٧٢) .

(٢) الاصطخري ، مسالك الممالك ، تحقيق الدكتورمحمد جابر عبد العال الحيني ، (ص٥٢).

(٣) الاصطخري،كتاب الاقاليم (مخطوطة) وفي النص بعض الاختلاف عن المطبوع (ص ٤).

(٤) ابن حوقل ، صورة الارض ، (ص ١٨٩) .

(٥) أبو الفداء ، تقويم البلدان ، (ص ٢٧٣) .

(٦) ابن رستة ، الاعلاق النفيسة ، المجلد السابع (ص ١٠٦) .

(٧) ابو الفداء ، تقويم البلدان ، (ص٢٧٧) .

(٨) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، (ص٤٩٤) المجلد الثاني .

(٩) المصدر السابق ، (ص٣٦٢) ، المجلد الثالث .

(١٠) الاصطخري ، مسالك الممالك ، تحقيق دي جويه ص ٧٥) .

(١١) المصدر نفسه ، تحقيق الحيني ، (ص٥٤) .

(١٢) الاصطخري ، كتاب الاقاليم (مخطوطة) (ص ٤١) .

(١٣) قدامه بن جعفر ، الخراج وصنعة الكتابة ص(٢١٥)

(١٤) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، (ص٢٣٥).

(١٥) الاصطخري ، مسالك الممالك ، تحقيق دي جويه (ص ٥٥) .

(١٦) ابن حوقل ، صورة الارض (ص١٥٤).

(١٧) ابو الفداء ، تقويم البلدان (ص٢٣٥).

(١٨) الاصطخري ، مسالك الممالك ، تحقيق دي جويه(ص ١٥٤) .

(١٩) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، المجلد الثالث(ص ٣٦٢) .

(٢٠) المصدر السابق ، المجلد الاول (ص١٦٠).

(٢١) ديلابورت ، اطلس التاريخ الجزء الاول ، خريطة (رقم ١٨) .

(٢٢) هينز هالم ، اطلس توبنغن ، خريطة مصر وسوريا ، الطولونيون ، الاخشيديون ، الحمدانيون (مقياس ١/٤,٠٠٠٠٠٠)

(٢٣) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك (ص ١٧٤).

(٢٤) سهراب ، عجائب الاقاليم السبعة (ص ١٢٠).

(٢٥) المصدر السابق ، (ص١٢٢) .

(٢٦) ابو الفداء ، تقويم البلدان (ص٥١).

(٢٧) امينة بيطار ، الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام ص ٢٥٦) .

(٢٨) المصدر السابق (ص ٢٥٧).

(٢٩) احمد دحلان ، الفتوحات الاسلامية ، المجلد الاول (ص ٢٦٨).

(٣٠) المصدر السابق ، (ص ٢٧٩).

(٣١) فتحي عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، المجلد الثاني (ص ٢٣٠).

(٣٢) احمد دحلان ، الفتوحات الاسلامية ، المجلد الاول ، (ص٢٧٦ ـ ٢٧٨).

(٣٣) امينة بيطار ، الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام (ص٣٢٤ ـ ٣٢٥).

(٣٤) احمد دحلان ، الفتوحات الاسلامية ، المجلد الال (ص ٢٦٨).

(٣٥) ابن حوقل ، صورة الارض (ص ١٦٦).

(٣٦) احمد سوسة ، الشريف الادريسي في الجغرافيا العربية ، المجلد الاول (ص ١٧٩) .

(٣٧) الاصطخري ، مسالك الممالك ، تحقيق دي جويه (ص ٥٥).

(٣٨) المصدر السابق ، (ص ٦٢ ـ ٦٣).

(٣٩) احمد دحلان ، الفتوحات الاسلامية (ص ٢٨١) .

(٤٠) امينة بيطار ، الحياة السياسية واهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام (ص ٢٨٤) .

(٤١) احمد سوسة ، الشريف الادريسي في الجغرافيا العربية ، المجلد الاول ، ص ١٧٢ .

(٤٢) المصدر السابق ، (ص ١٦١).

(٤٣) نشر دي جويه كتاب الاصطخري من خمس مخطوطات رمز لها بالاحرف A. B. C. D. E. وذلك في سنة ١٨٧٠ م .

(٤٤) يقول الدكتور محمد جابر عبد العال الحيني في مقدمة كتاب مسالك الممالك للاصطخري ، الذي قام بتحقيقه بتكليف من وزارة الثقافة المصرية،« وهذه النسخة التي اقومها هي ثمرة المراجعة على مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية برقم ١٩٩ جغرافيا ، وعلى مصورتين لمخطوطتين محفوظتين بدار الكتب المصرية ...، وقد حاولت جهدي ان اصل الى نص الاصطخري مستعينا بالمخطوطات على ضوء كتاب ابن حوقل ، لانه كما ذكرنا يكاد يكون صورة اخرى لكتاب الاصطخري (ص١١). كما اشار الى ان ناسخ المخطوطة التي كانت في حوزة المرحوم علـــي باشا مبارك امتاز بخصلـــة فريدة ، هي انه كثيرا ما يجعل للباء او للتاء في اول الكلمة راسا مستغنيا بها عن النقط.

(٤٥) احمد سوسة ، المرجع السابق ، المجلد الاول ص ١١٢).

(٤٦) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، المجلد الاول(ص ٣٦) .

(٤٧) ابو الفداء ، تقويم البلدان ، (ص ٧٤) .

(٤٨) المصدر السابق ، (ص ٧٤).

(٤٩) الواقدي ، فتوح الشام (ص ٨٥) .

المصـــادر :

١ ـ ابن حوقل ، صورة الارض ، دار الحياة ، بيروت .

٢ ـ ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، مكتبة المثنى ، بغداد .

٣ ـ ابن جعفر قدامة ، الخراج وصنعة الكتابة ،مكتبة المثنى ، بغداد .

٤ ـ ابن رستة ، الاعلاق النفيسة ، ليدن ١٨٩١ .

٥ ـ ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، دمشق ١٩٧٨ الجزء الثالث .

٦ ـ ابن سرابيون سهراب ، عجائب الاقاليم السبعة ، فيينا ١٩٢٩ .

٧ ـ ابو الفداء ، تقويم البلدان ، مكتبة المثنى، بغـــداد .

٨ ـ الاصطخري ، مسالك الممالك ، دار القلم ١٩٦١ .

٩ ـ الاصطخري ، مسالـــك الممالـــك ، منشورات مؤسسة النصر .

١٠ ـ الاصطخري ، كتاب الاقاليم (مصورة لمخطوطة) مكتبة المثنى ،بغداد .

١١ ـ الحموي ياقوت ، معجـــم البلـــدان ، بيروت ١٩٥٧ .

١٢ ـ المسعودي ، التنبيـــه والاشـــراف ، بيروت ١٩٦٥ .

١٣ ـ المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ليدن ، ١٩٠٦ الطبعة الثانية .

١٤ ـ الواقدي ، فتوح الشام ، القاهرة ، الطبعة الرابعة .

المراجع :

١٥ ـ اسكندر داود ، الجزيرة السورية بين الماضي والحاضر ، دمشق ١٩٥٩ .

١٦ ـ بيطار امينة ، الحياة السياسية واهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام ، دمشق ١٩٨٠ .

١٧ ـ دحلان احمد ، الفتوحات الاسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية القاهرة ، ١٩٦٨ .

١٨ ـ سوسة احمد ، الشريف الادريسي في الجغرافيا العربية ، نقابة المهندسين العراقيين ١٩٧٤ .

١٩ ـ عثمان فتحي ، الحدود الاسلامية البيزنطية دار الكاتب القاهرة .

٢٠ ـ مادون محمد علي ، خريطة اثر روما في بادية الشام ، مقياس ١/١٠٠٠٠٠٠ ، ١٩٨٠ .

٢١ ـ Atlas Historique Larouss; Paris 1978.

٢٢ ـ Atlas Tubinger (Tavo), Universitat Tubingen.

٢٣ ـ Atlas Historique. I. L'Antique; Par. L.Delaporte, Paris. 1948.

٢٤ ـ The World Atlas. Moscow 1967.

٢٥ ـ Carte de la Syrie a L'epoque de Nur Ad - Din , par Ellisséeff M . N . Echelle : 1000000.

* * *

تعريب النّقد

وأثره على العلاقات العربيّة البيزنطيّة والوضع الاقتصادي

د . نجدة خمّاش

جامعة دمشق

كان بين الدولة البيزنطية والدولة الساسانية معاهدة خاصة بالعملة تقضي بان يضرب الساسانيون نقودا من الفضة فقط ، وبالا يتخذوا عملة ذهبية سوى العملة الرومية ، ولهذا كانت عملة بلاد الفرس الجارية هي الدراهم الفضية التي بقيت مستخدمة في العراق والمشرق ، بينما شاعت العملة الذهبية في البلاد الاسلامية التي كانت سابقا تابعة للدولة البيزنطية (١) .

وعرف عرب الجزيرة النقود الذهبية والنحاسية البيزنطية لصلتهم الوثيقة بعرب الشام ، فقد كانت التجارة بينهم موسمية منتظمة ، يحمل التجار من عرب الجزيرة حاصلات اليمن والحبشة والسواحل الافريقية ، وربما بعض ما يرد من الهند الى الشام ، ويعودون بمنتجات الشام والنقود البيزنطية ، وكانت النقود البيزنطية المتداولة ، قبل الاسلام وبعده ، نقود فوكاس (٦٠٢ ـ ٦١٠ م) ونقود هرقل (٦١٠ ـ ٦٤١) ولا بد ان تكون نقود الاباطرة السابقين موجودة ايضا ، بدليل أن النقود المقلدة من قبل العرب تحمل صورهم(٢) .

وبالرغم من ان الجيوش العربية الاسلامية نجحت في تحرير الشام ومصر في العهد الراشدي ، الا انها لم تستطع القضاء على الامبراطورية البيزنطية ، بينما نجحت في القضاء على الامبراطورية الساسانية ودخلت المناطق التي كانت تابعة لها ضمن نطاق الدولة الاسلامية . ولذلك فقد استمرت الحروب بين العرب والبيزنطيين ، لان الروم في نظر العرب هم العدو الذي طرده القادة الفاتحون من الشام ومصر ، ثم اخذوا يتعقبونه ، بحرا في قبرص ورودس ، بل قدر لهم أن يقهروه ويهزموه في أول معركة بحرية خاضها الاسطول العربي . ولما قامت الدولة الاموية اندفعت الجيوش والاساطيل الاسلامية حتى بلغت ابواب القسطنطينية مرة اولى وثانية وثالثة ، واستمرت الدولة فيما بين هذه الحملات ماضية في ارسال الصوائف والشواتي سنويا ، ولم تكف عن ذلك حتى بعد اخفاق الغزوة الثالثة ، اذ أن الخلفاء بعملهم هذا كانوا يتابعون عملية

الجهاد ضد اعداء المسلمين ، كما ان هذه الحملات كانت تكسب الامراء هالة من المجد، بالاضافة الى ان عملية الجهاد هذه كانت تمكنهم من ان تحافظ جيوشهم الشامية على ما تتمتع به من نظام وسجايا ، لان بني امية ، كما يقول البلاذري ، كانت تغزو الروم بأهل الشام والجزيرة صائفة وشاتية مما يلي ثغور الشام(٣) . ولكن حالة الحرب هذه لم تكن تستدعي بالضرورة توقف جميع العلاقات ، لاننا لا نستطيع ان نسبغ على حياة القرون الوسطى ظواهر هي من طبيعة العلاقات السياسية الحديثة ، فابن جبير في رحلته مثلا يتحدث عن اتصال تجاري مزدهر كان يقوم بين المدن الاسلامية في الشام وميناء الصليبيين في عكا خلال الحروب الصليبية(٤) ، وهو اتصال لم يكن يتأثر اطلاقا بالاعمال العسكرية الناشبة حينئذ بين الامراء المتنازعين وجيوشهم ، الا ان قلة المعلومات المتعلقة بالشام في مصادرنا قد تؤدي الى الظن بان فتح العرب الشام ومصر كان عاملا في توقف العلاقات التجارية بين العرب والبيزنطيين ، في حين ان الفتح العربي لم يؤد الى تغييرات اقتصادية حاسمة ولعل رواية ابي عبيد في كتابه ــ الاموال ــ تشير الى هذا الاستمرار في التبادل التجاري ، فهو حين يتطرق الى موضوع الضريبة المفروضة على تجار الثغور أو أهل الحرب يذكر انه كان من مذهب عمر فيما وضع من ذلك ، انه كان يأخذ من التجار المسلمين من كل مائتين خمسة دراهم ، ومن أهل الذمة نصف العشر ، ويأخذ العشر على تجارة أهل الحرب ، وانه انما فرض عليهم العشر لانهم كانوا يأخذون من تجار المسلمين مثله اذا قدموا بلادهم . وبعد هذا ببضعة سطور يحدد من هم التجار اهل الحرب على نحو لايقبل اللبس فيقول : « الروم كانوا يقدمون الى الشام »(٥) .

كما يذكر البلاذري وابن قتيبة ان القراطيس كانت تدخل بلاد الروم من ارض العرب وتأتي من قبلهم الدنانير(٦) . فاذا أضفنا الى هاتين الروايتين الواردتين في مصادرنا العربية ، ان العرب تركوا ممارسة التجارة البحرية في الشام ومصر لمن كانوا يمارسونها سابقا من سكان الاسكندرية أو سكان مدن السواحل الشامية ، واعتماد معاوية ويزيد على النصارى(٧) ، وبقاء اللغة اليونانية في الشام لغة دواوين الخراج، وتسامح الامويين مع النصارى من أهل البلاد ، واحتفاظ اوراق البردي التي كان يصنعها الاقباط في مصر بالشارات والتعابير المسيحية التي كانت مستخدمة في العهد البيزنطي ، وانتقال دور الطراز في تنيس وتونة ودمياط والتي كانت تحتكرها الدولة البيزنطية الى ايدي العرب(٨) ، واستمرار دور الضرب البيزنطية في سك العملة الذهبية التي بقيت حتى عام ٦٩٢م ــ ٧٣هـ النقد الاساسي المتداول في مصر والشام (٩)، وبقاء النقد الذهبي البيزنطي النقد العالمي المستخدم في المعاملات التجارية في عالم البحر المتوسط (١٠) ، امكننا القول بوجود نوع من الاستمرار للماضي البيزنطي ، بالرغم من التغييرات السكانية في منطقة الساحل الشامي (١١)، والحروب المتكررة مع الدولة

البيزنطية ، وان الفتح العربي لم يؤد الى تغييرات اقتصادية حاسمة في تجارة عالم البحر المتوسط .

ولكننا لا نستطيع ان ننكر ان الفتح ادى الى بعض التغييرات ، من أهمها ايقاف ما كان يرسل الى القسطنطينية من مصر من حبوب والتي أصبحت ترسل الى مكة والمدينة ، مما اضطر هرقل الى ايقاف توزيع القمح مجانا في العاصمة والاعتماد على مناطق اخرى تمد العاصمة بما تحتاجه ، وهذا بدوره أدى الى استفادة سكان بعض المناطق الاخرى التابعة للدولة البيزنطية ، كالمناطق الزراعية في البلقان واسيا الصغرى ، وجنوبي روسيا ، لانها وجدت اسواقا جديدة لمنتجاتها (١٢).

اما التغيير الثاني ، فهو التنحي عن كثير من القوانين التي سنها جستنيان ، فيما يتعلق بالتصدير والاستيراد في القرن السابق . ذلك ان العرب عندما سيطروا على المناطق التي كانت تحت النفوذ الساساني ، وسيطروا كذلك على الشام ومصر ، لم يعد للمراكز الجمركية القديمة التي كانت موجودة بين الدولتين من أهمية ، كما ان حكام القسطنطينية في هذه الفترة ، كما تشير الى ذلك الادلة المختلفة ، لم يمنعوا التجارة مع الشام ومصر الا فيما يتعلق بالخشب المستخدم في بناء السفن ، لان المنع يعني الاعتراف بخسرانهم لهاتين الولايتين نهائيا . ويبدو ان الحكام البيزنطيين ، حتى سنة ٦٩٢م – ٧٣هـ ، كانوا يرفضون الاعتراف بان الشام ومصر ولايات خارجة عن نطاق الامبراطورية ، ولذلك لم يطبق على المنتجات المرسلة من هاتين الولايتين قانون جستنيان ، وان كانت الضرائب الجمركية تفرض بالطبع على هذه المنتجات المستوردة ، كما ان قوانين الملاحة والتجارة الصارمة التي كانت مطبقة سابقا ، يبدو وكأنها اختفت في هذه الفترة ، واصبح التجار احرارا لا رقابة من الدولة عليهم بعد ان توقف اصدار القمح من الاسكندرية الى العاصمة (١٣). وظهر قانون الملاحة الروداني الذي اصبح بموجبه ربابنة السفن احرارا في ان يتوجهوا الى المكان الذي يريدونه من اجل اخذ حمولتهم (١٤) . ولذلك فان القرن السابع بشكل عام يمكن اعتباره عهد التجارة الحرة غير المقيدة في البحر المتوسط (١٥)، كما ان كلا من الشام ومصر كانتا مزدهرتين اقتصاديا في حوالي ٧٠٠ م – ٨١ هـ ، فعلاقات مصر التجارية مع الجنوب والشرق ازدادت ، لان الساسانيين الذين هددوا في نهاية القرن السادس توسع التجارة المصرية في البحر الاحمر والمحيط الهندي تحطمت قوتهم على أيدي العرب ، فعادت لهذا الطريق أهميته ، واستفادت دمشق من فائض الاموال التي كانت ترسل الى بيوت اموالها (١٦) ، ومن اخماس الغنائم التي كان يرسلها القادة من الشرق والغرب (١٧). كما ان ازالة الحواجز التجارية القديمة بين منطقة العراق والشام قد ساعد على ازدهار التجارة مع الشرق ، ولعل الساحل الشامي فقط هو

الذي كان يعاني احيانا من تمرد السكان الجراجمة مثلا ، ومن هجمات الاسطول البيزنطي احيانا اخرى ، فلم يصل الى المستوى المرتفع في الثروة التجارية والصناعية التي كانت تتمتع بها الاقسام الداخلية . ومع ذلك لابد من الحذر قبل اعطاء احكام قطعية ، فان هذه المنطقة الساحلية كانت ولا تزال قادرة على أن تمد الاسطول العربي باعداد كبيرة من الافراد ، كما ان قبرص بالرغم من الغزوات كانت قادرة على ان ترسل جزية سنوية مقدارها سبعة الاف دينار الى دمشق ، ومبلغا مماثلا الى الى القسطنطينية ، وهذا بدوره يشير الى ازدهار تجاري(١٨) .

واذا كانت السنوات الخمسون من حكم العرب للشام ومصر لم تؤد الى نتائج سلبية بالنسبة الى الحياة الاقتصادية في القسم الشرقي من البحر الابيض المتوسط ، فان الدلائل كذلك تشير الى عدم تدهور الاقتصاد في الغرب . ويقدم لوبيز (Lopez) ادلة قيمة على استمرار تجارة غير مضطربة نسبيا في كل البحر الابيض المتوسط خلال القرن السابع (١٩) . ونجد في شمال افريقيا مثالا واضحا ، فالبرغم من ان ولاية افريقية البيزنطية قد عانت من غزوات العرب ابتداء من ٦٤٧ م — ٢٧ هـ ، فان الدلائل لا تشير الى تحطيم في قدراتها الانتاجية او ازدهارها التجاري ، وقد دهش العرب عندما قاموا بغزوتهم بغنى افريقية ، اذ كان اكثر اموالهم من الذهب والفضة « وكانت توضع بين يدي عبد الله بن سعد بن سرح اكوام الذهب والفضة ، فقال للافارقة : من اين لكم هذا ، فجعل رجل منهم يلتمس شيئا في الارض حتى جاء بنواة زيتون ، فقال : من هذا اصبنا الاموال لان أهل البحر والجزر ليس لهم زيت فكانوا يشترون الزيت من هنا »(٢٠) واذا صدقت رواية ابن عذاري فقد كان سهم الفارس بعد معركة سبيطلة ثلاثة الاف دينار وسهم الراجل الف دينار (٢١)، وفي الفترة ما بين ٦٩٥ — ٧٠٥ م/٧٦ — ٨٧ هـ كانت ولاية افريقية لاتزال قادرة على ان تبهر العرب بثروتها من الذهب والفضة والجوهر والياقوت، وانواع الدواب والرقيق والامتعة(٢٢) وفي هذا دليل على ازدهار الشواطىء الافريقية في القرن السابع الميلادي .

وتقدم ايطاليا دليلا اخر على استمرار التجارة مع الشرق ، ولاسيما رافينا (Ravenne) (٢٣)، التي كانت لها علاقات وثيقة مع القسطنطينية والاسكندرية(٢٤) . كما أن السوريين كانوا معروفين على نطاق واسع ، فأربعة من البابوات في أواخر القرن السابع واوائل القرن الثامن كانوا سوريين ، كما وجد دير للسوريين في روما . وهذا كله يشير الى ان العلاقات مع الشام هي اقوى مما كان يعتقد(٢٥) . اما فرنسا فقد كانت المركز التجاري الاساسي للتجار السوريين ، وحتى ٧١٦ م — ٩٨ هـ كان جنوب فرنسا يستورد التوابل الشرقية واوراق البردي ، ومنتجات اخرى ، ونجد دليلا على ذلك ، كما يقول بيرين (Pirenne) ، في الامتياز الذي منحه الملك الميروفنجي في تلك

السنة لدير كوربي (Corbie)باستيراد البضائع الشرقية دون دفع ضريبة في ميناء فوس (Fos) ان هذا الامتياز يؤكد ما كان قد منح من امتيازات في القرن السابق (٢٦) ومع ذلك فهنالك شواهد تشير الى ازمة اقتصادية في فرنسا واسبانيا في اواخر القرن السابع واوائل القرن الثامن الميلاديين . ومهما كانت عوامل هذه الازمة فقد انعكست على النقد المستخدم عند القوط والميروفنجيين ، اذ ازدادالاعتماد على النقد الفضي ، بينما اخذ النقد الذهبي بالتضاؤل(٢٧) .

ان الادلة السابقة تشير الى ان حوض البحر المتوسط كان لا يزال وحدة مزدهرة سنة ٧٠٠م – ٨١هـ . فاذا درسنا الوضع الاقتصادي سنة ٧٥٢م –١٣٥هـ، نجد مصر والشام في حالة من الفوضى والاضطراب ، وكذلك شمال افريقيا واسبانيا، وفرنسا راكدة ، ولا نجد اثرا للسوريين والمصريين في الاسواق الغربية ، ونجد ان الاسرة الكارولنجية هي المسيطرة بدلا من الميروفنجيين في اكس لاشابل (Aix la Chapelle) والعباسيين بدلا من الامويين وعاصمتهم بغداد ، وكلتا العاصمتين تبعدان عن شواطىء البحر المتوسط ، ولا شك ان امرا هاما قد حدث وادى الى مثل هذه الثورة الاقتصادية والسياسية العميقة(٢٨) .

قد نجد تفسيرا لهذه التغيرات الاقتصادية والسياسية في التبدل الذي اصاب طبيعة النزاع بين الامويين والبيزنطيين مابين ٦٩٢ – ٧٥٢ م/٧٣ – ١٣٥ هـ. ذلك أن الاسلوب الذي اتبعه العرب في محاولاتهم الاستيلاء على القسطنطينية كان عسكريا بحتا في البدء . اما في محاولتهم الثالثة للقضاء عليها فنرى تداخل العامل الاقتصادي، فبالاضافة الى العداء العسكري والبحري اضيفت الحرب الاقتصادية .

وقد بدات هذه الحرب الاقتصادية عندما ضرب عبد الملك بن مروان الدنانير الذهبية المعربة . ويجمع المؤرخون العرب على ان عبد الملك هو اول من ضرب الدراهم والدنانير العربية في الاسلام ، وان كا ن المؤرخون يختلفون في سنة ضربها فان عددا كبيرا يؤكد ان ذلك تم سنة ٧٦هـ (٢٩). ولكن البلاذري يذكر عن محمد بن سعيد عن ابي الزناد عن ابيه ان عبد الملك اول من ضرب الذهب عام الجماعة سنة اربع وسبعين ، ويعود هذا الاختلاف في الواقع ان ان تعريب النقد مر بمراحل قبل ان يصبح عربيا خالصا ، فقد وجد دينار في سورية حوالي عام ١٩٥٤ وانتقل الى لبنان ومنه اقتني لصالح متحف كراتشي حيث هو محفوظ الان. وهذا الدينارالعربيالجديد يعود الى سنة ٧٤هـ ، وهو يمثل على الوجه شخص عبد الملك واقفا متقلدا سيفا مرتديا ملابس مزركشة ، وكتب في المدار حوله حسب اتجاه حركة عقرب الساعة « بسم الله ، لا اله الا الله وحده ، محمد رسول الله » وعلى الظهر بدا في الوسط الصليب البيزنطي المحور، وكتب حوله حسب اتجاه حركة عقرب الساعة ايضا

« بسم الله » « ضرب هذا الدينار سنة ٧٤ هـ » . هذا الدينار لايزال فريدا في العالم وقد ضرب على نمطه دنانير في السنوات ٧٥ ، ٧٦ ، هـ(٣٠) . ويرى علماء الاثار ان هذا الدينار يمثل الخطوة الخامسة من مراحل تطور النقود الذهبية نحو التعريب ، اذ كان التعريب واضحا ، وان كان التأثير البيزنطي لايزال موجودا . امـا الدنانيـر العربية الخالصة فلا تحمل صورا للخليفة ، بل مأثورات عربية صرفة ، فاذا كان هذا الدينار الذي ضرب سنة ٧٤هـ يمثل الخطوة الخامسة ، فمعنى ذلك وجود دنانير معربة قبل عام ٧٤هـ وبالاستناد الى ذلك يمكننا تقبل رواية تيوفانس التي تذكر ان جستنيان الثاني نقض الهدنة سنة ٦٩٢م ـ ٧٣هـ مع عبد الملك ، متخذا من مسألة الدنانير تعلة لنقض الصلح(٣١) ، لانه اعتبر سك عبد الملك للدنانير افتئاتا على امتيازات الامبراطور. فاذا اضفنا الى ذلك ان عبد الملك امر أن تزال الشارات والتعابير المسيحية من اوراق البردي وان تضاف التعابير الاسلامية(٣٢) ، لاتضح لنا ان عبد الملك اراد بعمله هذا ان يحرر الدولة الاسلامية من السيطرة البيزنطية اقتصاديا وان يقيم وحدة اقتصادية مستقلة ، وربما اراد بعمله هذا ان يحقق نوعا من الضغط الاقتصادي لاسيما وان رواية المدائني عن مسلمة بن محارب ان خالد بن يزيد اشار على عبد الملك بتحريم دنانير الروم ومنع التعامل بها ، ومنع دخول شيء من القراطيس بلاد الروم « فمكث حينا لا يحمل اليهم »(٣٣) .

اذا كانت العوامل السابقة تعلل اصدار عبد الملك للعملة الذهبية المعربة ، فانها لا تكفي لتعليل اصدار العملة الفضية ـ الدراهم ـ في العراق ، وهذا يعني وجود اسباب اخرى ، وان للمسألة جذورا أعمق تتصل بالحياة الاقتصادية ، وتتعلق بها اعتبارات دينية. فقد كانت النقود مختلفة الاوزان والقيم(٣٤) دون ان يكون هناك مقياس ثابت موحد في جميع انحاء الدولة يمكن من تحديد النسب بينها ، فكانت حالة النقد هذه عائقا للنشاط التجاري ، كما ان الافراد المسلمين كانوا يلقون حرجا عند اداء واجب الزكـاة (٣٥) .

وكذلك كانت الدولة تَجد صعوبة اذا ارادت ان تستـوفي حقوقها من الجزية والخراج ، مثال ذلك أن الخليفة عمر قسط الخراج في العراق ورقا وعينا ، والدراهم تؤدى فيه عددا ، ففسد الناس فكانوا يؤدونه بالطبرية ووزن الدرهم اربعـة دوانق (كل دانق قيراطان ونصف) ويستبدون بالوافي ووزنه مثقـال (مثقال الفضة في العراق ١٢ قيراطا)(٣٦) . فلما ولي زياد بن ابيه طلب اداء الوافي فشق ذلك علـى الناس (٣٧) . فلما استوثق الامر لعبد الملك بن مروان بعد مقتل مصعب وعبد الله ابني الزبير فحص عن النقود والاوزان والمكاييل وضرب الدنانير والدراهم ، فجعل وزن الدينار اثنين وعشرين قيراطا الا حبة بالشامي ، وجعل وزن الدرهم خمسة

عشر قيراطا سوى (أي لا زيادة فيه ولا نقصان) وجعل عبد الملك الذهب الذي ضربه دنانير على المثقال الشامي(٣٨) . (المثقال الشامي ٢٤ قيراطا) .

كان اصلاح عبد الملك اصلاحا حاسما ، قضى على المفاسد التي كانت موجودة واوجد النقد القومي العربي للدولة الاسلامية ، وبقي عمله لانه قام على أساس علمي. ولكن اذا كان تعريب الدرهم لم يثر ردود فعل فهذا أمر طبيعي ، لان الدولة العربية كانت قد قضت على الدولة الساسانية وامتد الحكم العربي الى كل المناطق التي كانت سابقا تحت نفوذها ، أما الدولة البيزنطية فكانت لا تزال قائمة . واذا كان الاباطرة في البلاط البيزنطي قد رفضوا ، طيلة الفترة السابقة ، الاعتراف بأن الشام ومصر ولايات خارجة عنهم ، فان التعريب الذي تم في عبد الملك ، سواء في مجال النقد أم القراطيس ، ثم في دواوين الخراج فيما بعد ، يدل بوضوح على أن الامور التي حاكى فيها الخلفاء الادارة البيزنطية ، أو نقلوها بعد التعديل ، انما هي محاولة عامدة منهم غايتها دراسة الحيثيات واعداد أنفسهم للسيطرة على مقدرات دولتهم ، ومن ثم فان بيزنطة لن تقف مكتوفة الايدي أمام هذه التدابير ، وكان جواب جستنيان على الدنانير المعربة التي أرسلها له عبد الملك نقض الهدنة واعلان الحرب ، فالتقى المسلمون بالجيوش البيزنطية بالقرب من قيصارية (Caesarea) في معركة سيباستبولس (Sebastapolis) ، وهزم جستنيان هزيمة شنيعة كاد معها أن يخسر آسيا الصغرى بكاملها (٣٩) . ولا شك أن جستنيان قام من ناحية اخرى ببعض التدابير لقطع التجارة مع أعدائه ، وربما كان هذا هو التفسير الوحيد لذلك التهجير الوحشي الاجباري لسكان قبرص الذين كانوا يتاجرون مع الشام ، فاذا كان هذا التعليل صحيحا فانه يفسر كذلك ثورة الاسطول في بند كبير هايوت (Kibyrrhaeot) (٤٠) الذي يعتمد الى حد كبير في تجارته على مصر ، وسيره نحو القسطنطينية لخلع خليفة جستنيان الثاني (٤١) . وقد يفسر لنا كذلك لماذا أسهم تجار (رافينا) وهم الذين كانوا يمدون مصر بالاخشاب، في سقوط ذلك الامبراطور. (٤٢) كما انه مما يثير الانتباه ان من أول أعمال تبيريوس الثالث (Tiberius Apsimarus) ٦٩٨ ـ ٧٠٥م/٧٩ ـ ٨٧ هـ ، والذي كان حاكم بند (الكبيرهايوت) انه عمد الى ارسال ثلاثة من أشراف قبرص يرافقهم موظف امبراطوري كبير لاعادة القبارصة الموجودين في رومانيا (Romania) وسيزيكس (Cyzicus) وفي البندين الكبيرهايوت وتراقيا (Thracia) كما حاول ارجاع اولئك الذين كانوا قد هربوا الى الشام ، وذلك رغبة منه في اعادة سكان قبرص ٦٩٨م/٧٩هـ (٤٣) . وربما حقق تيبيريوس بذلك نوعا من السلم الاقتصادي مع الامويين ، لاننا لا نشاهد ضغوطا اقتصادية تمارس من قبل الخليفة في دمشق في عهد ذلك الامبراطور .

ولكن ما أن عاد جستنيان الى السلطة سنة ٧٠٥م/٨٧هـ حتى نلاحظ عودة الى ظهور حرب اقتصادية مرة ثانية ، فنرى من جهة استمرار الوليد بن عبد الملك في عملية التعريب التي كانت قد تمت في الشام والعراق في خلافة عبد الملك ، والتي لم يتم تطبيقها في مصر الا في عهد الوليد(٤٤) . وتشير أورا ڤالبردي ، ان الاوراق المعربة تماما تعود الى ٧٠٩م/٩١هـ ، وأن آخر ورقة بردي تحمل اللغتين اليونانية والعربية تعود الى ٧١٩م/١٠١ هـ (٤٥) . كما أن الوليد هو الذي طبق ، في السنة نفسها (٩١ هـ) ولأول مرة ، الرقابة على سكان مصر . فقد أوجد نظاما صارما أجبر فيه الافراد على حمل سجلاتهم، والزم كل فرد يريد الانتقال من جهة الى أخرى في انحاء القطر المصري ، أو يريد ركوب سفينة أو النزول منها ، أن يحمل سجله ، وأمر الوالي بالقبض على كل شخص لا يحمل سجله معه ، اما من فقد سجله ، أو اتلفه ، فقد كان الوالي يلزمه الحصول على سجل آخر مقابل دفع غرامة قدرها خمسة دنانير (٤٦) . كما أن مخطوطة سيريانية لمؤلف مجهول تشير الى أن الوليد أصدر عام ١٠٢٠ سلوقي /٧٠٨م/٩٠هـ امرا باحصاء المقيمين ، وكذلك كل مسافر يعود الى منطقته أو أرض أجداده أو مكان تولده(٤٧) . فنلاحظ تشديدا على تحركات الرعايا ، نجد ما يقابله عند حكام بيزنطة الذين بدأوا يتشددون كذلك مع رعاياهم الذين يريدون التوجه الى الاراضي العربية (٤٨) . الا أن الاجراءات الاقتصادية التي اتخذها جستنيان الثاني وخلفاؤه هي التي كان لها أكبر الاثر ، ومن الصعب اعطاء صورة متكاملة للنظام الذي طبق ، في حين يمكن رسم الخطوط العريضة له ، في العودة الى النظام التجاري المقيد الذي كان متبعا في عهد جستنيان الاول وخلفائه ضد الامبراطورية الساسانية ، حيث كانت طرق التجارة والبضائع المستوردة كلها موجهة بدقة لمصلحة الامبراطورية والدفاع عن مصالحها كما أن بيزنطة استخدمت اسطولها لدعم ذلك النظام . وهنالك من الاسباب ما يدفع الى الاعتقاد بأن بيزنطة طبقت في حوالي ٧١٥ ، ٧١٦ م / ٩٧ ، ٩٨ هـ الحرب الاقتصادية المدعومة بالقوى البحرية على الولايات الاموية وبعض المناطق المجاورة ، والافتراض ، كما يقول هايد (Heyd) بأن هذا النظام قد طبق على الولايات العربية يقوى عندما نعلم أن اخر حمولة ضخمة من البضائع الشرقية تسجل في ميناء فوس (Fos) كانت سنة ٧١٦ م/٩٨ هـ ، كما ان مملكة لومبارديا اوقفت استخدامها لاوراق البردي(٤٩) ، أي ان البيزنطيين اغلقوا البحر المتوسط في وجه الملاحة البحرية المنطلقة من الاراضي العربية ، الا اذا اتبعت هذه السفن الطرق والتنظيمات المفروضة من قبل بيزنطة ، وقد يفسر هذا توجه أسطول اسلامي ضخم في اواخر ٩٩ هـ نحو القسطنطينية(٥٠) اذ أن الحصار البيزنطي كان يعني تهديدا للحياة الاقتصادية والتجارية في الشام ومصر (٥١) .

الا أن بيزنطة لم يكن باستطاعتها أن تتخلى عن منتجات العالم العربي ، كما أن

التوابل وبضائع الشرق ، التي كان يتاجر بها التجار المسلمون ، كانت موادا أساسية في حياة بيزنطة الاقتصادية . ولذلك سمح حكام بيزنطة لمرفأ أو مرفأين مراقبين باستقبال التجار المسلمين ، منهما مرفأ طرابزون [(Trebizond ، الذي كان يسمح فيه بالادخال كل التجارة العربية مع بيزنطة (٥٢) ويعلق لوبيز [(Lopez انه بالرغم من اننا لانملك دليلا واقعيا ، الا انه ليس ثمة ما يمنعنا من الافتراض أن هذا الاجراء قد يعود الى ٧١٦ م – ٩٨ هـ ، أو قبل ذلك ، لان اختيار طرابزون كمركز للتجارة العربية البيزنطية كان يحقق عدة أهداف لحكام بيزنطة ، فطرابزون مرفأ أمين على البحر الاسود غير مهدد . وباتخاذهم طرابزون كمحطة نهائية للتجارة العربية ، سحبوا تجارة الحرير والتوابل التي كانوا بحاجة ماسة اليها من مصر والشام ، المركزين البحريين لمنافسيهم الامويين ، الى بلاد العراق ، التي لم تكن تشكل خطرا عليهم . وربما كانت القسطنطينية المرفأ التجاري الثاني الذي كان يسمح للتجار بدخوله والخروج منه ، لاننا ، اذا نظرنا الى التعليمات الواردة في كتاب صادر في القرن التاسع الميلادي والمتعلقة بتجارة العاصمة ، نجد ان هذه التعليمات تشير بصراحة الى أن التجار العرب كانوا يشجعون على المجيء الى المدينة من القرن الذهبي، حيث كانوا يعطون امتيازات تجارية خاصة(٥٣) . وربماكان هذا الوضعمطبقامنذ العام ٧١٨ م – ١٠٠ هـ ، فالجامع الذي يقال ان ليون الايسوري قد بناه في القسطنطينية قد يؤيد هذا الافتراض .

غير أن وضع نظام لتقييد التجارة شيء ، وفرضه على الاعداء العرب أمر آخر . الا أن عاملين اثنين سهلا تنفيذه أكثر مما كان متوقعا ، العامل الاول ، هو قوة الاسطول البيزنطي الذي خرج منتصرا ١٠٠ هـ ، واخذ يمخر عباب البحر المتوسط ، وسيطرة بيزنطة على عدد كبير من الجزر في هذا البحر ، كجزر البليار ، وساردينيا، وكورسيكا ، التي تشكل سلسلة من الجزر الحاجزة تجاه الشمال الافريقي والساحل الاسباني ، بالاضافة الى سيطرة بيزنطة على مضيق مسينا وعلى مدخل البحر الادرياتيكي . ولذلك كان من السهل جدا منع أي سفينة تتوجه غربا أو شرقا من الاستمرار . أما العامل الثاني الذي ساعدهم ، فهو أن الطريق البحري المتبع هو طريق كريت قبرص الساحل الجنوبي لاسيا الصغرى . وبالرغم من أن الخطالبحري المباشر من الاسكندرية الى كريت كان مستخدما كذلك ، الا أن قوة الاسطول البيزنطي مكنته من ان يقطع بشكل فعال التجارة ، ليس مع الغرب فقط ، وانما بين الشام ومصر وشمالي افريقيا (٥٤) واذا استطاعت سفينة أن تفلت من رقابة الاسطول البيزنطي في نقطة معينة ، فهناك احتمال كبير ان يعترضها هذا الاسطول في مكان آخر، ونظرة الى شواطىء البحر المتوسط في هذه الفترة تبين لنا أن هذا الحصار الاقتصادي قد طبق بشكل فعال ، لاننا اذا اتجهنا بأنظارنا الى الشرق ، حيث كانت

الاجراءات الاقتصادية والبحرية موجهة ضد مصر والشام بالدرجة الاولى ، نلاحظ أن الشام ٧٥٢ م / ١٣٥ هـ قد خسرت مركزها التجاري الهام ، وبقيت مدن الساحل الشامي عاجزة مدة عشرين عاما عن تشكيل اسطول (٥٥) وانتقل الحكم الى العباسيين حيث أصبحت العراق الولاية المركزية التي يمر بها الخط التجاري المتوجه نحو طرابزون ، وخسرت الشام مكانتها كمركز للخلافة الاسلامية .

هذا في الشرق ، أما في الغرب ، فاننا نجد فرنسا ، التي كانت تعتمد في حياتها الاقتصادية على التجارة مع الشام ومصر ، تمر بفترة ركود اقتصادي بعد سنة ٧١٦ م ، اذ لم تعد ترى تجارا سوريين في موانيها الجنوبية أو تجارا من مناطق اخرى . كما أن المدن التي هدمها الكارولنجيون بقيت مهدمة ، وتوقف سك النقود الذهبية مدة خمسين سنة ، ابتداء من منتصف القرن الثامن الميلادي (٥٦) وهكذا نرى أن البيزنطيين ، في حربهم حتى الموت ضد الامويين ، استخدموا الاجراءات الاقتصادية والبحرية للوصول الى النصر في الفترة مابين ٧١٥ – ٧٥٢ م ٩٧ – ١٣٥ هـ وقد ساعدت الظروف السياسية واضطراب الامر في الشام ، وقيام الثورة العباسية، ساعدت بيزنطة على تحقيق مآربها ، وبعملها هذا حطمت بيزنطة النمط الاقتصادي القديم للحياة في بلدان البحر المتوسط وهيأت المجال لظهور نمط جديد .

* * *

الحواشي

(١) آدم ميتز ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، تعريب محمد عبد الهادي أبو ريده ، القاهرة ، ١٩٤٠ ، ج٢ ص ٣١٦ . ويذكر آدم ميتز انه كان بين بيزنطةوبين كلودفيج ملكالفرنجة معاهدة كذلك .

(٢) محمد أبو الفرج العش ، النقود العربيةالاسلامية ، مصدر وثائقي للتاريخ والفن ، المؤتمر الدولي لبلاد الشام ، الجامعة الاردنية ، ١٩٧٤ ، ص ٢٧٢ .

(٣) البلاذري ، فتوح ، ص ١٦٧ . مؤرخ مجهول ، العيون والحدائق ، ص ٨٩ .

(٤) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، دار صادر ، بيروت ١٩٥٩م ص ٢٦٠ ، ٢٧٦ .

(٥) أبو عبيد ، كتاب الاموال ، الفقرة ١٦٥١ ، ١٦٥٥.

(٦) ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، القاهرة ، ١٩٢٥ ، ج١ ص ١٦٨ . البلاذري ، فتوح ، ص ٢٤١ .

(٧) خليفة بن خياط ، ج١ ص ٢٧٦ . الطبري ، ج٥ ص ٣٣٠ . الجهشياري ، الوزراء والكتاب ، ص ٢٤ ، اليعقوبي ، تاريخ ، ج٢ ص ٢٢٣ . تهذيب تاريخ دمشق ج٦ ص ٧٣ ، ٢٧٨ . ابن العبري تاريخ مختصر الدول ص ١٩٤ .

(٨) البلاذري ، فتوح ، ص ٢٤١ .

Grohman, **Allgemeine Einfuhrung der Arabischen Papyri**, Vien, 1924, pp. 77, 92.

The Kurra Papyrie from Aphrodite, The Oriental Institute, Chicago, 1936, pp. 70 - 72.

(٩) Archibald Lewis, **Naval Power in the Mediterranean, 500 - 1100**, p. 79.

(١٠) Ibid, p. 81.

(١١) البلاذري ، فتوح ، ص ١٢٤ ، ١٦٦ ، ٣٦٩ .

(١٢) Vernadsky, G., **Sur L'Origine de la loi Agraire**, Byzantium, 1925, IV pp. 169 - 180.

(١٣) Charanis, p., **The Social Structure Of The Later Roman Empire**, Byzantium, 1944 - 1945 XVII pp. 50 - 51.

(١٤) Archibald Lewis, **op. Cit**, p. 83.

يشير اندرياديس الى ان البعض ينسب هذا القانون الى الاباطرة الايسوريين ، ولكن أوستروغورسكي Ostrogorsky يبين انه لا يمكن ان نقول اكثر من ان هذا القانون صدر ما بين ٦٠٠ و ٨٠٠ م . وهناك اشارة في الموسوعة البريطانية الى هذا القانون ولكن دون ايضاح دقيق .

(١٥) The largely mythical body of law attributed to the Rhodian mariners has been constructed from a Few scattered references in the Digest. E.B.ed., 1970, Art. Maritime Law. Andre M. Andreades, The Economic Life of the Byzantine Empire, Byzantium II p.65.Archibald Lewis, **Op. Cit**. p. 83.

(١٦) اليعقوبي ، تاريخ ، ج٢ ص ٢٣٤ . ابن عبدالحكم ، فتوح ص ١٠٢ . المقريزي ، الخطط ، ج١ ص ٥١٤ . شاويرس ، ج٥ ، ص ١٨٩ .

البلاذري ، انساب ، القسم الرابع ج١ ص ٢١٨ . ابن الاعثم ، فتوح ، ج٤ ص ١٨١ .

(١٧) ابن الاعثم ، فتوح ، ج٢ ص ١٢٣ ، ج٧ ص١٨٢ ، ١٨٨ ، ١٩٣ . ابن الاثير ، الكامل ، ج٥ ص ١٥٦ .

(١٨) صالح معاوية قبرص بعد غزوته الثانية على سبعة الاف دينار ولم يزل أهل قبرص على صلح معاوية حتى ولي عبد الملك بن مروان فزادعليهم الف دينار ، فجرى ذلك الى خلافة عمر بن عبدالعزيز فحطها عنهم ، فلما ولي هشام بن عبد الملك ردها، فاستمر الامر على ذلك حتى خلافة ابي جعفر المنصور الذي ردهم الى صلح معاوية .

(١٩) Lopez , Mohammed & Charelemagne, A Rivision is Speculum , 1943 , XVIII, p. 22.

(٢٠) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج١ ص ٨ .

(٢١) المصدر السابق ، ص٨.

(٢٢) المصدر السابق ص ٣٠ .

(٢٣) Diehl, ch., **Etude Sur L'Administration dans L'Exarchat de Ravenne**, Paris, 1888, pp. 279 - 280.

(٢٤) **Ibid.**, pp. 279 - 280.

(٢٥) **Ibid.**, pp. 255 - 256.

(٢٦) Pirenne, H. **Mohammed & Charlemagne**, New York, 1939, p. 88.

(٢٧) Ibid., pp. 84 - 85.

(٢٨) Archibald Lewis, p. 88.

(٢٩) الدينوري ، ص ٣١٦ . ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٢٤١ . الطبري ج ٦ ص ٢٥٦ . ابن الاثير ج٤ ص ٥٤. القلقشندي ، ج١ ص ٤٢٤ . السيوطي تاريخ الخلفاء ، ص ٢٣٧ .

(٣٠) Miles, The Earliest Arab Gold Coinage, 1967, p. 212.

(٣١) Theophanes, sixth year of Justinian, A. M. 6183, A.C. 692, Bonn, pp. 558 - 559.
George Hill, The History of Cyprus, vol. I, p. 287.

(٣٢) البلاذري ، فتوح ، ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

(٣٣) المصدر السابق ، ص ٢٤٢ .

(٣٤) المصدر السابق ، ص ٤٥١ ـ ٤٥٢ .

(٣٥) أوضح هذا السبب المقريزي في رسالته عن النقود ، مجموعة النقود العربية وعلم النميات ، نشرة الاب انستاس الكرملي ، القاهرة ، ١٩٣٩ ، ص ٣٦ـ٣٧ .

(٣٦) ولترهينتس Water Hintz المكاييل والاوزان الاسلامية وما يعادلها بالنظام المتري ترجمة الدكتور كامل العسلي ، منشورات الجامعة الاردنية ، ص ٩ .

(٣٧) ابو هلال العسكري ، الاوائل ، ج٢ ص ٣٢ .

(٣٨) انستاس الكرملي ، النقود العربية . البلاذري ، ص ١٠ . المقريزي ص ٣٤ .
وكان الدينار البيزنطي (Solidus) يزن ٤٫٤٨ غ تقريبا ، (Ostrogorsky p. 217)
اما الدينار الاسلامي فكان وزنه ٤٫٢٠ او ٤٫٣٠ غ، وهو اقل من وزن الدينار العربي المضروب حسب النمط البيزنطي ، وكان ذلك ضروريا من اجل ايجاد نسبة عادلة بين الدينار الذهبي والدرهم الفضي وزنا وقيمة .

(٣٩) George Hill. Op. Cit, p. 287.

(٤٠) يضم بند الكبيرهايوت الساحل الجنوبي من آسيا الصغرى والجزر القريبة منه .
Ostrogorsky, p. 139.

(٤١) Archibald Lewis, Op. Cit., p. 89.

(٤٢) Diehl, Exarchat, p. 279 - 80.

(٤٣) George Hill, Op. Cit. pp. 288 - 89.

(٤٤) الكندي ، الولاة والقضاة ، ص ٥٨ .

(٤٥) Archibald Lewis, p. 90.

(٤٦) سايروس ، سير الاباء البطاركة ، ج٥ ص٧٠.

(٤٧) ص ١٧٦ من المخطوطة السريانية المترجمة الى اللاتينية ، ص ٢٢٣ من المخطوطة الاصلية . (مكتبة جامعة لانكستر) .

(٤٨) Archibald Lewis p. 91.

(٤٩) Heyd, **Histoire du Commerce du Levant,** Leipsig, 1885, pp. 89 - 92.

(٥٠) يذكر تيوفانس Theophanes ان الاسطول العربي الذي توجه في خلافة سليمان بن عبد الملك لدعم القوات البرية ولاحكام الحصار على القسطنطينية برا وبحرا كان يتالف من ١٨٠٠ سفينة منها سفن حربية واخرى لنقل المؤن ،وكان حصار المسلمين للقسطنطينية حصارا قاسيا شديدا نتيجة للثلوج التي هطلت مدة مائة يوم في ترافيا ، مما عرقل عملية الحصار ، واضطر المسلمون الى تحمل الكثير من المشاق والجهد . وفي الربيع وصلت نجدات برية وبحرية لمسلمة بن عبد الملك ، فقد وصل اسطول من مصر يتالف من ٤٠٠ سفينة ، واسطول اخر من افريقيا مؤلف من ٣٦٠ سفينة ، الا أن معظم هذه السفن ، كما يقول تيوفانس ، دمرت نتيجة لاستخدام البيزنطيين النار الافريقية .

Theophanes, Tr. Leopold Breyer, p. 27 - 28.

(٥١) Lopez, **Op. Cit.** pp. 26 - 28.

(٥٢) Lopez, **Silk Industry in the Byzantine Empire,** Speculum, 1945, XX pp. 26 - 27

(٥٣) **Ibid,** p. 27.

(٥٤) Archibald Lewis 95.

(٥٥) George Hill, **Op. Cit.** p. 290.

(٥٦) Archibald Lewis, p. 97, Prou. M.
Catalogue de Monnaies Carolingienne de la Bibliothèque Nationale

* * *

أضواء على الصناعة والتجارة في مدن بلاد الشام ودورها في التجارة العالمية في العهد البيزنطي
من خلال المصادر اليونانية واللاتينية المعاصرة

د . نعيم فرح

جامعة دمشق

تركت حملة الاسكندر المكيدوني أثرا كبيرا في التاريخ والادب التاريخي . لقد ظلت شعوب الشرق الوثنية قرونا عديدة تتحدث عن المدن التي بناها الاسكندر وتتناقل القصص التي نسجت حولها . أما الاسباب الرئيسية لحملة الاسكندر وتوغلها في الشرق فهي الرغبة في تحقيق المصالح الاقتصادية للامبراطورية المكيدونية ـ اليونانية . وحاربت روما أيضا في بداية العهد الامبراطوري من أجل السيطرة على طرق التجارة مع الشرق . لقد فرضت سيطرتها العسكرية على آسيا الصغرى وأرمينيا ، ثم احتلت سورية وفلسطين ومصر وقضت على دولة الانباط ودولة تدمر. وامتدت الطرق التجارية البرية من شواطىء البحر الابيض المتوسط الى مدن الصين الشمالية ، فانتقل الحرير الخام والمصنوعات الحريرية من بلد الى بلد ومن تاجر الى آخر حتى وصلت الى عاصمة العالم العظمى ـ روما . والاهتمام بالصين رافقه اهتمام بالهند لكثرة بضائعها وتنوعها ، بالاضافة الى كونها بلدا وسيطا في بيع حرير الصين .

ومع نهاية روما القديمة وسقوطها ولدت روما الجديدة « القسطنطينية » واصبحت عاصمة للامبراطورية الرومانية « البيزنطية » . كانت بيزنطة دولة بحرية كبرى تسيطر على موانى كثيرة تنتشر في سواحل أوروبا وآسيا وافريقيا وفي الجزر، كما تسيطر على أنهار كبرى ، مثل النيل و الفرات والدانوب . وصارت القسطنطينية

★ قدم هذا البحث للمؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام ، الجامعة الاردنية عمان ، ٩ ـ ١٤ محرم ١٤٠٤ هـ ٢٠ ـ ٢٥ تشرين اول ١٩٨٣ .

بعد قرن من نشوئها اكبر سوق عالمية تلاقت فيها خيوط الاقتصاد العالمي والسياسة الدولية . وقد اهتمت بيزنطة ببضائع الهند والصين ، فسعت الى السيطرة على الطرق التجارية البرية والبحرية والمؤدية الى الشرق الاقصى . وأدى تطور الصناعة في المدن البيزنطية الشرقية ، وبخاصة مدن مصر وبلاد الشام ، الى ازدياد النشاط التجاري ، كما افضى النشاط التجاري الى تطور الصناعة في تلك المدن . لقد اتحدت مصر البطلمية مع سورية السلوقية وغيرها من بلدان الشرق الاوسط تحت السيادة الرومانية ــ البيزنطية ، مما أدى الى نمو التبادل التجاري ، حيث صارت بضائع سورية ومصر تصل الى الهند والصين ، كما صارت خيوط الحرير الصينية وافاويه الهند تصل الى المدن البيزنطية . وكان التجار البيزنطيون والتجار الفرس تجارا وسطاء تاجروا ببضائع الشعوب الخاضعة لسلطتهم والشعوب المجاورة لهم .

امتدت الخطوط التجارية من سواحل البحر الابيض المتوسط الى الهند والصين عبر آسيا ، ولكن هذه الخطوط لم تكن تخضع لسلطة دولة واحدة أو يسيطر عليها شعب واحد ، وانما ساهمت في التجارة العالمية شعوب عديدة منها : اليونان والسوريون والفرس والسغد والاتراك والهنود والصينيون والعرب . كانت روما قد سيطرت على الخطوط التجارية في آسيا الصغرى وبلاد الشام وشمال بلاد النهرين . وقد دأبت القسطنطينية على أن تحافظ على النفوذ الروماني ــ اليوناني في هذه المناطق . غير أن السياسة التوسعية لكل من بيزنطية وفارس أدت الى تصادم حربي دائم بين الطرفين ، مما عرقل الحركة التجارية على الخطوط البرية عبر آسيا الوسطى . وعلى هذا اخذت بيزنطية توجه اهتمامها الى الطريق البحرية المؤدية الى الهند والمعروفة منذ العهد الروماني القديم . لقد أدركت بيزنطية أهمية الطريق البحرية عبر البحر الاحمر والمحيط الهندي ، لذلك سعت الى تدعيم نفوذها السياسي في اليمن والحبشة . وعلى هذا نشطت الدبلوماسية البيزنطية في سبيل اقامة علاقات حسنة مع الحبشة والممالك الحميرية في اليمن والامارات العربية الصغيرة المنتشرة على طول الطريق التجارية الممتدة من سورية الى جنوب الجزيرة العربية . ولتدعيم هذه العلاقات شجع الاباطرة البيزنطيون المبشرين على نشر الدين المسيحي في اليمن والحبشة ، كما قدموا المساعدات المالية في هذا السبيل . وكان الهدف الرئيسي للاباطرة البيزنطيين الاستغناء عن وساطة التجار الفرس في جلب بضائع الهند والصين والاعتماد على التجار الاحباش واليمنيين في هذا المجال . وعلى هذا سعى ساسة بيزنطة الى توحيد الحبشة واليمن في دولة واحدة تكون موالية لهم ، فدفعوا الاحباش الى احتلال اليمن . غير أن الفرس لم يقفوا مكتوفي الايدي تجاه الاطماع البيزنطية في السيطرة على الطريق البحرية المؤدية الى الهند ، وانما بذلوا ما في وسعهم لطرد الاحباش من اليمن وتقليص النفوذ البيزنطي فيها ، فاستطاعوا تحقيق ذلك ،

اذ انهم فرضوا سيطرتهم العسكرية على اليمن في أواخر القرن السادس الميلادي . ودامت تلك السيطرة حتى ظهور الاسلام ، حيث تمكن العرب المسلمون من تحرير اليمن من الاحتلال الفارسي وضمه تحت لواء الدولة العربية الاسلامية الناشئة .

* * *

ان أهم عوامل الجذب التي أدت الى نقل عاصمة الرومان من ضفاف التيبر الى شواطىء البوسفور تتمثل بتمركز الثقل الاقتصادي (الصناعي والتجاري والزراعي) في الولايات الشرقية من الامبراطورية الرومانية ، وبخاصة في مصر وسورية (بلاد الشام) . ومن جهة ثانية فقد دفع نقل العاصمة من روما الى القسطنطينية عجلة التطور الاقتصادي في الشرق الى الامام . ومدينة القسطنطينية « بيزنطيوم » لم تكتسب لقب « الجسر الذهبي » بين الشرق والغرب الا بعد ان صارت عاصمة سياسية للامبراطورية الرومانية الشرقية . على أن مدن سورية (بلاد الشام) ومصر وآسيا الصغرى ظلت تحافظ على نشاطها الاقتصادي بعد نشوء القسطنطينية حتى الفتح العربي الاسلامي . والمصادر التاريخية والجغرافية المتنوعة المعاصرة لتلك المرحلة تؤكد على استمرار الازدهار الاقتصادي والعلمي والثقافي في مدن مصر وسورية (بلاد الشام) بشكل خاص .

ان قوة المصالح الاقتصادية للطبقات المهتمة بالتجارة الخارجية هي التي دفعت بعض المتنورين الى كتابة نصوص تاريخية وجغرافية ورسم خرائط جغرافية ليتعرف من له منفعة في ذلك على الطرق البرية والبحرية المؤدية الى الهند والصين ، وعلى البضائع المتنوعة من نباتية وحيوانية ومعدنية وغيرها مما تنتجه تلك البلاد والبلدان المجاورة لها أو التي تقع في الطريق اليها . ومن تلك النصوص التاريخية ـ الجغرافية سنتعرف على : الطبغرافية المسيحية لمؤلفها قزما الملاح الهندي ، الطرق من جنة آدم حتى الرومان ، الوصف الكامل للعالم والشعوب ، تاريخ أميانوس ماركيلينوس، تاريخ الكنيسة لمؤلفه فيلوستورغيوس ، تاريخ بروكوبيوس الكيساري ، وغيرها . وعدا هذه النصوص التاريخية ـ الجغرافية المذكورة فان الاكتشافات الاثرية وكثرة العملة البيزنطية المكتشفة على طرق الحرير المؤدية الى الهند والصين تؤكد أيضا على نشاط التجارة البيزنطية الخارجية منذ نشوء بيزنطة حتى ظهور الاسلام .

من أي وسط اجتماعي خرجت تلك الكتابات التاريخية ـ الجغرافية التي تشهد على ازدهار التجارة البيزنطية منذ بداية القرن الرابع حتى أواخر القرن السادس ، وماهي الاسباب التي أدت الى ظهور مثل هذه الكتابات ؟ . ان تطور

التبادل البضائعي والمالي في الشرق الاوسط في العصر الامبراطوري الروماني وبداية العصر البيزنطي أدى الى تشكل طبقة واسعة من الصناع والتجار . وان تجمع الاموال الكثيرة لدى بعض التجار الكبار واصحاب المصانع اتاح لهم امكانية الاستيراد وعقد صفقات تجارية كبيرة ، ولذا اهتموا بأمر التجارة الخارجية الى جانب اهتمامهم بالتجارة الداخلية . وتذكر المصادر البيزنطية ايضا وجود التجار الوسطاء الذين يحصلون على المواد الخام ويبيعونها للصناع واصحاب الورش الصناعية ، ثم يشترونها من هؤلاء ثانية بعد تصنيعها وتحويلها الى مصنوعات جاهزة للاستعمال ، فيبيعونها في الاسواق الداخلية والخارجية . وهكذا نلاحظ أن فئات متعددة من المجتمع في الامبراطورية البيزنطية قد اهتمت بأمور التجارة : التجار الكبار والصغار، الصناع ، أصحاب الورش والمصانع ، البحارة ، أصحاب السفن ، رجال القوافل التجارية ، أصحاب الاراضي الزراعية الذين اهتموا بتجارة الحبوب والمحاصيل الزراعية ، المرابون الذين يقرضون القروض للتجار ، المستهلكون الاغنياء والفقراء ، واخيرا الدولة التي تهتم بجمع الضرائب من الصناع والتجار لتمويل الخزانة . وتطلب ازدهار التجارة المعرفة المتنوعة : معرفة الكتابة والحساب لتسجيل البضائع وأثمانها وارباحها ، ومعرفة البضائع الموجودة في كل بلد من البلدان التي يمكن المتاجرة معها، بالاضافة الى البضائع التي يمكن بيعها في أسواقها ، ومعرفة الطرق البرية والبحرية المؤدية الى البلدان التي تتاجر معها الامبراطورية البيزنطية ، والظروف الطبيعية والاجتماعية التي تحيط بالطرق والبلدان التي تمر بها القوافل أو السفن ، بالاضافة الى معرفة امور اخرى عديدة .وهكذاجاءت الكتابات التاريخية ــ الجغرافية التي اشرنا اليها ، والتي سنتحدث عنها فيما يلي ، تلبية لحاجات المهتمين بأمور التجارة الخارجية ، ولتؤمن لهم المعارف والمعلومات المتنوعة المطلوبة .

وكان تطور المدارس والجامعات في تلك المرحلة التاريخية (منذ القرن الرابع حتى القرن السابع) له علاقة الى حد كبير بتطور التجارة والعلاقات التجارية . ففي المدن البيزنطية الكبرى مثل : (القسطنطينية ، الاسكندرية ، انطاكية ، بيروت ، الرها ، نصيبين) نشأت مدارس وجامعات متعددة تقدم المعارف المتنوعة لطلاب العلم ، رغم أن التعليم اكتسب طابعا دينيا بصورة عامة ، حيث أشرف عليه رجال الكنيسة بالدرجة الاولى . هذا وقد استغلت الحكومات البيزنطية تأثير الكنيسة المسيحية ونفوذها في البلدان الخارجية التي تتاجر معها ، بغية تأمين مصالحهاالتجارية وتسهيل عملية المبادلات .

من خلال المصادر التاريخية ــ الجغرافية البيزنطية المعاصرة ، التي سنسلط عليها بعض الاضواء في هذا البحث ، نلاحظ ان التجارة البيزنطية العالمية كانت

مزدهرة وتنشطة في المرحلة التاريخية مابين القرنين الرابع والسابع الميلاديين . كما نلاحظ ايضا ان مدن بلاد الشام كان لها دور بارز في الصناعة والتجارة العالمية . ولكن هذه التجارة ستتعرض للتقلص والانكماش في أواخر القرن السادس والقرن السابع بسبب توتر الصراع البيزنطي ــ الفارسي أولا ، ثم الصراع البيزنطي ــالعربي ثانيا . على أن التجارة العالمية ستنشط من جديد بدءا من القرن الثامن الميلادي وتبلغ اقصى ازدهارها في العهد العباسي .

* * *

المصادر التاريخية ــ الجغرافية

٢ ــ « الوصف الكامل للعالم والشعوب » « Expositio totius mundi et gentium »

وصلت الينا مخطوطة « الوصف الكامل للعالم والشعوب » «... Expositio » في نسختين . وقد صنفت النسخة الاولى القديمة بحرف « A » وطبعت سنة ١٦٢٨ على يد العالم يعقوب غوتفريد . اما النسخة الثانية الاحدث منها فقد صنفت بحرف « B » ووجدت منها مخطوطتان طبعتا في سلسلة « الجغرافيات اليونانية الصغيرة » في باريس سنة ١٨٦١ .
«Geographi graeci minores, ed. C. Mullerus, Paris, V.2, 1861 »

ونحن في بحثنا هذا نقتبس عن النسخة الثانية « B » التي نشرها مولر ونعتمد عليها من حيث الترقيم وترتيب الصفحات . ولدى مقارنة النسختين القديمة والاحدث منها : « A » و « B » ، من قبل بعض المؤرخين وعلماء اللغات تبين لهم ان النسخة القديمة « A » كتبت بلغة لاتينية ركيكة جدا ، بينما كتبت النسخةالثانية « B » بلغة لاتينية افضل من لغة النسخة الاولى ، ولكنها ليست لغة نحوية صرفة . وعلى هذا افترض بعض العلماء ان المخطوطة مترجمة بالاصل عن اليونانية ، ثم افترض البعض الآخر أن مؤلف المخطوطة سوري أو مصري . وأخيرا أكدت المؤرخة السوفييتية نينا بيغوليفسكايا أن مؤلف المخطوطة سوري الاصل(١) .

تقول نينا بيغوليفسكايا : نستطيع ان نتعرف على مؤلف المخطوطة وتاريخها من خلال المعلومات الواردة في المخطوطة نفسها . فالنسخة الثانية « B » من المخطوطة تحتوي على (٦٨) فقرة : منها احدى عشرة فقرة مخصصة لاخبار سورية ، من فقرة ٢٣ ــ ٣٣ ، بينما خصصت اربع فقرات فقط لاخبار مصر . ويذكر مؤلف

المخطوطة التقسيم السياسي في سورية (بلاد الشام) ، كما يذكر أسماء عشرين مدينة سورية ، بينما لم يتحدث المؤلف في أخبار مصر سوى عن مدينة الاسكندرية فقط . ومما يؤكد ايضا ان مؤلف المخطوطة تاجر سوري اهتمامه الخاص بأخبار سورية (بلاد الشام) ومعرفته الدقيقة بمدنها الساحلية والداخلية ، اضافة الى تقديره للتجار السوريين تقديرا رفيعا ، حيث يصفهم بأنهم مهرة اغنياء ويتحلون بمكارم الاخلاق . ومن خلال هذه المعطيات وغيرها يتبين لنا ان المؤلف سوري الاصل وليس مصريا . والم المؤلف باللغة اللاتينية واللغة اليونانية الماما بسيطا ، فكان يكتب المعلومات بلغته السريانية اولا ثم يترجمها الى اللغة اللاتينية . ومن خلال دراسة الاحداث التي ورد ذكرها في المخطوطة يتبين لنا ان المخطوطة قد كتبت في منتصف القرن الرابع (حوالي سنة ٣٥٠ ميلادية) .

اطلق بعض الباحثين على مخطوطة « الوصف الكامل للعالم والشعوب » اسم : « الجغرافية الاقتصادية أو التجارية للامبراطورية البيزنطية في القرن الرابع » ، حيث وردت فيها معلومات وفيرة وصحيحة عن اهم القضايا الاقتصادية في مختلف المدن البيزنطية ، كما انها وضعت بيد كاتب وصف ما شاهده بعينيه أو عرفه معرفة تامة أو سمعه من شهود عيان . لقد تحدث مؤلف المخطوطة عن النواحي الاقتصادية في مدن ايطاليا واسبانيا وموريتانيا ونوميديا وشبه جزيرة البلقان وآسيا الصغرى ومصر وسورية وغيرها . فالفقرات الاولى من المخطوطة (من فقرة ١ ـ ٢٠) تحدث فيها المؤلف عن شعوب الشرق وبلدانه الواقعة خارج حدود الامبراطورية البيزنطية ، وبصورة خاصة عن الهند . أما الفقرات التالية (من فقرة ٢١ ـ ٦٧) فقد خصصها المؤلف للتحدث عن النواحي الاقتصادية داخل حدود الامبراطورية البيزنطية .

واهتم مؤلف مخطوطة « الوصف الكامل للعالم والشعوب » بالتحدث عن الحياة الاقتصادية في مدن بلاد الشام بشكل خاص . لقد تحدث المؤلف عن عاصمة سورية الساحلية ـ مدينة انطاكية ـ التي امتازت بنشاط تجارتها ووفرة ثروتها وتنوع بضائعها . ونستدل من حديثه أيضا ان صور وصيدا وبيروت وسلوقية وانطاكية واللاذقية كانت مراكز صناعية تجارية هامة وشهدت ازدهارا اقتصاديا في العهد البيزنطي . ويذكر مؤلف المخطوطة اسماء مدن كثيرة في بلاد الشام مثل : سكيفو بوليس ، اللاذقية ، بيبلوس (جبيل) ، تير (صور) ، بيريتس (بيروت) ، قيسارية ، نيابوليس ، اللد ، ايرخون ، دمشق ، هيليوبوليس ، عسقلان ، غزة ، طرابلس ، اليفتيروبوليس ، كما يقول عن هذه المدن أنها تمتاز بمناخ معتدل ونشاط تجاري وفيها رجال اغنياء في كل شيء : في الكلام الجميل الفصيح ، في العمل ، في الاحسان واعمال الخير . ويذكر المؤلف أن جميع هذه المدن توجد فيها الحبوب

والخمور والزيوت بوفرة ، كماتزرع حولها اشجار النخيل ، الا ان النخيل الذي يزرع حول دمشق وايرخون هو من اجود الانواع ؛ كما تزرع حول هاتين المدينتين ايضا اشجار الجوز والتفاح المتنوعة (٢) .واما مدينتا عسقلان وغزة فتمونان بالخمور كلا من سورية ومصر . هذا ويشبه المؤلف النشاط التجاري في مدن بلاد الشام بغليان الماء (in negotio bullientes) (٣) . وبالاضافة الى الصناعات الزراعية المذكورة اعلاه اشتهرت مدن بلاد الشام ايضا بصناعة مختلف انواع الالبسة . مؤلف المخطوطة يذكر أن الالبسة الكتانية كانت تصدر من المدن التالية : (بيبلوس ،صور ، بيروت ، سكيفوبوليس ، اللاذقية) الى جميع انحاء العالم ، كما ان الاقمشة المصبوغة بالارجوان الحقيقي كانت تصنع في المدن التالية : (ساربتا ، قيسارية ، نيابوليس ، اللد) (٤) .

استمر النشاط الاقتصادي ، الذي تحدث عنه مؤرخ القرن الرابع ، في مدن بلاد الشام في القرون اللاحقة . غير أن الاجراءات التي اتخذها الامبراطور البيزنطي جستنيانوس الاول في القرن السادس ، المتمثلة باحتكار الدولة لتجارة خيوط الحرير ورفع أسعارها ، قد ألحقت الضرر بمصانع النسيج الصغيرة الخاصة الموجودة في مختلف مدن بلاد الشام ، فاضطر معظم أصحاب هذه المصانع الى اغلاق مصانعهم ، حيث لم يعد باستطاعتهم الحصول على خيوط الحرير اللازمة لتشغيل هذه المصانع (٥) .

اضافة الى اهتمام مؤلف المخطوطة بالقضايا الاقتصادية اهتم ايضا ببعض النواحي الفنية والثقافية في مدن بلاد الشام . لقد تحدث المؤلف عن الامور المتعلقة بالعروض المسرحية واعمال السرك التي كانت تجري في انطاكية واللاذقية وصور وبيروت وقيسارية وغيرها ، فذكر أن أفضل سائقي خيول السباق وجدوا في اللاذقية ، ومنها توزعوا الى مختلف المدن . اما في بيروت وصور فقد وجد افضل الممثلين التنكريين ، كما وجد في قيسارية أجود الممثلين الصامتين ، وفي غزة أقدر الفنانين والمصارعين ، وفي عسقلان وكاستابيتيا اقوى اللاعبين الرياضيين ، وفي هليوبوليس أمهر العازفين على الناي والمزمار وأجمل النساء اللواتي ورثن جمالهن عن فينوس (الهة الحب والجمال) التي لاتزال تعيش (حسب تصور المؤلف) في جبال لبنان قرب هليوبوليس (٦) . وفي هذه المدن كان يتم تدريب مختلف الفنانين كالموسيقيين والممثلين وسائقي خيول السباق الذين يشتركون في تقديم المشاهد الفنية في السرك او الملعب . وفي الغالب شارك بعض التجار في استخدام وتشغيل هؤلاء الفنانين ، حيث كانت العاب السرك تشكل المكان والزمان المناسبين لبيع البضائع المتنوعة .

واثارت مدن بلاد الشام اعجاب المؤلف ، فكتب عنها وصفا يعبر عن غبطته وابتهاجه بجمالها ومآثرها الحضارية . ذكر المؤلف أن مدينة انطاكية تكثر فيها التماثيل الفنية والابنية الجميلة ، كما كانت كثيرة السكان وافرة الثروة . أما مدينة قيسارية فكانت رائعة بموقعها ومخطط عمرانها وامتازت بوجود نخاسها المربع الفريد من نوعه ★ . واشتهرت مدينة سلوقية بمينائها المريح المدهش الذي أعيد بناؤه في عهد الامبراطور قسطنطين الكبير ، هذا الميناء الملائم لاعمال التجارة وللامور العسكرية الستراتيجية معا (٧) . وتفتخر مدينة بيروت بمدارس الحقوق التي يتخرج منها رجال القانون ويتوزعون في جميع ولايات الامبراطورية ، كي يسهروا على حسن سير المحاكم ويحرسوا القانون (٨) . هذا وتتحدث مصادر تاريخية اخرى عن مساهمة اساتذة بيروت الحقوقيين في صياغة المجموعات القانونية المتعددة للامبراطورية البيزنطية مثل مجموعة جيرموجينيوس Codex Germogenianus ومجموعة تيودوسيوس Codex theodosianus ومجموعة جستنيانوس Codex Justinianus وقال مؤلف المخطوطة عن مدينة بصرى الشام أنها ذات تجارة واسعة ، Quae negotia maxima habere dicitur لانها قريبة من العرب والفرس .

وذكر المؤلف كلمة ارابيا Arabia لتدل على الولاية العربية الرومانية . اما كلمة ساراكينوي Sarakenoi فقصد بها البدو الرحل من العرب ، الذين كانت لهم علاقات تجارية مع مناطق الحدود البيزنطية ، كما قال عنهم أيضا « انهم يرغبون أن يقضوا حياتهم في الغزو وجمع الغنائم » Rapina Sperantium Suam Vitam transigere ويروى عنهم تحكمهم بالنساء (٩) .

وتحدث مؤلف المخطوطة عن بعض المدن التجارية الواقعة على الحدود البيزنطية الفارسية في بلاد النهرين مثل مدينة نصيبين ومدينة اديسا (الرها) ، اللتين بفضل « حكمة الالهة والاباطرة » وقفتا صامدتين في وجه الفرس . وقال المؤلف عن سكان هاتين المدينتين انهم كانوا حاذقين في الاعمال التجارية in negotio Valde acutos فاحتكروا التجارة مع الفرس ، حيث اشتروا منهم بضائعهم وباعوها في جميع الولايات البيزنطية ، في حين باعوا للفرس بضائع ومنتوجات الامبراطورية الرومانية ، عدا النحاس والحديد (١٠) ، ذلك أن الحكومة البيزنطية حظرت بيع هذه المعادن للفرس

★ النخاس : ج نخس وهو نصب للذكاري على شكل عمود .

وغيرهم من الاعداء ، كيلا يستخدموها في صناعة الاسلحة ، وقد استمر هذا الحظر حتى القرن السادس الميلادي .

وهكذا حصلنا من يد مؤلف مخطوطة « الوصف الكامل للعالم والشعوب » على وصف عام للتجارة الداخلية والخارجية في مدن بلاد الشام في القرن الرابع الميلادي . وباعتبار أن مؤلف المخطوطة تاجر سوري فقد كتب عن الامور التي تهمه كالبضائع وانواعها الجيدة في هذه المدينـــة او تلك . ان تطور قوى الأنتـــاج في الامبراطورية البيزنطية قد تم تحت تأثير هذا التبادل التجاري النشيط . ونحن نعلم أن تطور التجارة وازدياد راس المال التجاري يؤديان الى تطور الانتاج . وهكذا فان اللوحة الاقتصادية التي رسمها لنا مؤلف المخطوطة على عجل تبين لنا صورة العلاقات الاقتصادية في المجتمع البيزنطي الذي لاتزال فيـــه جذور علاقات العبودية قوية . ولكن بعد مرور ثلاثة قرون على هذه الصورة سيتغير شكلها ، حيث ستتفسخ علاقات العبودية وتولد علاقات جديدة تؤثر على حياة المدن وتجارتها .

ب ـ « تاريخ اميانوس ماركيلينوس » « Ammianus Marcellinus .. Historia »

عاش المؤرخ اليوناني اميانوس ماركيلينوس في مدينة انطاكية السورية في القرن الرابع الميلادي (٣٣٠ ــ ٤٠٠ م) . امتهن اميانوس في شبابه الحياة العسكرية ، فاشترك في حملات الامبراطور البيزنطي جوليانوس (المرتد عن المسيحية الى الوثنية) ضد الفرس . وفي الستين من عمره بدأ أميانوس بتدوين مؤلفه « التاريخ » المعروف تحت عنوان ــ Res Gestae ــ أي « الاعمال » . وقد دون أميانوس تاريخا مؤلفا من واحد وثلاثين جزءا بقي منها ثمانية عشر جزءا فقط (من الجزء ١٤ ــ ٣١) تغطي احداث الفترة مابين سنتي ٣٥٣ ــ ٣٧٨ م . ورغم أن لغته الاصلية كانت اليونانية فقد دون كتاباته باللاتينية ، مما جعل اسلوبه غامضا أحيانا . كان أميانوس معاصرا للاحداث التي كتب عنها أو شاهد عيان ، كما كان أمينا في تسجيل الاخبار والمعلومات، وتمتع بفكر نقدي وقدرة على تصوير الوقائع والاحداث المختلفة . ويجدر بنا أن نذكر له قوله : « ان المؤرخ الذي يطمس الوقائع عن قصد ليس اقل مغالطة من الذي يختلق مالم يكن » ــ (Historia, XXIX, 1,5) . ولم تقتصر مهمة أميانوس على ذكر الوقائع والاحداث ، بل عمل على جمعها وربطها بالاحداث الكبرى محاولا ان يهتدي الى تفسير منطقي للتاريخ .

يتوافق حديث المؤرخ اميانوس ماركيلينوس مع حديث مؤلف مخطوطة « الوصف الكامل للعالم والشعوب » عن مدن سورية وفينيقية وفلسطين (بلاد الشام) ، حيث يذكر عددا كبيرا من هذه المدن ويقول عنها : « هذه المدن تتشابه بعضها مع البعض الآخر بازدهارها وحسن تنظيم مرافقها العامة وتوفر أسباب الراحة فيها » . ويذكر أميانوس أن الولاية العربية التي نظمها الامبراطور الروماني تراجان وجد فيها عدد من المدن الكبيرة المحاطة بأسوار منيعة ، كما وجدت فيها البضائع والسلع التجارية بوفرة (١١) .

ولم يقتصر نشاط مدن بلاد الشام الاقتصادي على التجارة الداخلية وتبادل المنتوجات والبضائع المحلية فقط ، بل كانت بضائع الهند والصين تصل الى هذه المدن ومنها توزع الى مختلف ولايات الامبراطورية البيزنطية . فالمؤرخ اميانوس ماركيلينوس يتحدث عن التجارة الخارجية في مدينة باتنان السورية الواقعة في منطقة اريموز على طريق القوافل القديمة التي تصل بين انطاكية في الغرب ومدينة اديسا (الرها) في الشرق، كما أنها تتوسط بموقعها بين حلب(بيرو) ومنبج(هيروبوليس) . وبما أن مدينة باتنان لاتبعد كثيرا عن مجرى نهر الفرات فقد وصلت اليها البضائع بطريق مائية من الخليج العربي . ويقول أميانوس أن مدينة باتنان كانت تعج بالتجار الاغنياء Refertum mercatoribus opulentis ، كما كان يقصدها الناس الاغنياء لشراء البضائع في أيلول من كل عام ، حيث يقام فيها في هذا الشهر معرض تجاري . والى مدينة باتنان كانت تصل بضائع تجارية من الهند عن طريق البر والبحر (١٢) . هذه المعلومات التي يسردها المؤرخ أميانوس ماركيلينوس توضح لنا صورة التبادل التجاري الخارجي النشيط بين مدن بلاد الشام والبلدان البعيدة في القرن الرابع الميلادي .

ج ـ فيلوستورغيوس ـ تاريخ الكنيسة : Philostorgius --- Historia Ecclesiastica

تعتبر كتابات فيلوستورغيوس ، وبخاصة كتابه « تاريخ الكنيسة » من المصادر التاريخية الهامة التي تلقي ضوءا ساطعا على تجارة بيزنطة الخارجية في القرنين الرابع والخامس الميلاديين . غير أن هذا الكتاب لم يصلنا بشكل كامل ، بل وصل الينا على شكل مقتطفات في كتابات (مكتبة) فوتيوس بطريرك القسطنطينية في اواخر القرن

التاسع . وقد نشر كتاب فيلوستور غيوس « تاريخ الكنيسة » في ليبزغ سنة ١٩١٣ على يد الناشر بيدز تحت عنوان :

Philostorgius, Historia Ecclesiastica, ed. Bidez, Leipzig, 1913.

ولد فيلوستورغيوس سنة ٣٦٨ م ، فلما بلغ العشرين من عمره ذهب الى القسطنطينية وقضى فيها فترة من حياته . وقد أحب فيلوستورغيوس الترحال فزار فلسطين وانطاكية ، كما كان عالي الهمة شديد الملاحظة فحصل على ثقافة متنوعة في مجال الفلك والجغرافية . انهى فيلوستورغيوس كتابه المسمى : Historia Ecclesiastica حوالي سنة ٤٣٠ م . ولما كانت آراؤه العقائدية تتناقض مع العقيدة الاورثوذوكسية فقد استخف الاورثوذوكسيون بكتاباته وأهملوها .

من خلال « تاريخ الكنيسة » هذا نلمس مساعي الاباطرة البيزنطيين (في القرن الرابع) لتوطيد علاقاتهم السياسية مع اليمن والحبشة وغيرهما من البلدان الواقعة على الطريق التجارية المؤدية الى الهند ، وذلك بنشر الديانة المسيحية في تلك البلدان بغية كسب شعوبها وملوكها حلفاء للبيزنطيين وحماة لمصالحهم التجارية . يتحدث فيلوستورغيوس عن اليمن فيسميها بلاد الحميريين الواقعة الى جوار المحيط (الهندي) ، ويذكر انها تنتج محصولين في السنة الواحدة ، ولذا أطلق عليها القدماء اسم « العربية السعيدة » (١٣) . كذلك يذكر فيلوستورغيوس أن الحميريين يعبدون كواكب السماء كالشمس والقمر وغيرهما من الآلهة المحلية ، كما يوجد بينهم عدد من اليهود (١٤) . هذه المعلومات التي ينقلها فيلوستور غيوس تتوافق تماما مع النقوش الحميرية وبعض المصادر السورية (السريانية) واليونانية الاخرى (١٥) .

في عهد الامبراطور كونستانتيوس بن قسطنطين الكبير (٣٣٧ — ٣٦١) قدمت الى بلاد حمير سفارة بيزنطية على راسها شخص يدعى تيوفيلوس الهندي . ويذكر فيلوستورغيوس أن تيوفيلوس الهندي كان في شبابه رهينة عند الامبراطور قسطنطين الكبير (٣٢٤ — ٣٣٧) واصله من جزيرة ديف ، كما يقول : « ان بلاد الديفيين عبارة عن جزيرة ، لكن الديفيين يطلق عليهم اسم الهنود » . هذا وتطلق جميع المصادر البيزنطية المتقدمة اسم ديف او سيليديف على جزيرة سيلان . أما قزما الملاح الهندي فيطلق (في كتابه : الطبغرافية المسيحية) على جزيرة سيلان اسم « تابروبان » . كما أن فيلوستورغيوس يطلق في مكان آخر اسم تابروبان على جزيرة سيلان ، ومن هنا يظن أنه يقصد من اسم ديف جزيرة سقطرة (ديوسكوريد) التي هو منها أصلا . وكان المسيحيون الموجودون في

جزيرة سقطرة في زمن قزما الملاح (القرن السادس) على المذهب النسطوري ، حيث رسم كهنتهم على أيدي الفرس ـ اي على ايـدي الأساقفة المسيحيين النساطرة الموجودين في فارس (١٦) .

كان تيوفيلوس مسيحيا فنال رتبة دياكون ثم صار أسقفا فالقيت على عاتقه مهمات دبلوماسية كلفة بها الاباطرة البيزنطيون . لقد أوفد الامبراطور كونستانتيوس الاسقف تيوفيلوس على راس سفارة الى اليمن تحمل معها هدايا ثمينة من بينهـا مئتا حصان كابادوكي من أجود السلالات . وبالاضافة الى الهدايا حمل السفيـر البيزنطي تيوفيلوس مبلغا من المال قدمه الى ملك الحميريين ، الذي أطلق عليه لقب « حاكم الشعب اليمنـي ــ اتنارخوس » ، وطلب منه أن يصرف هذا المال على بناء كنيسة للمسيحيين في مدينة ظفار عاصمة الحميريين . لقد نجحت البعثة الدبلوماسية البيزنطية في تحقيق مهمتها ، حيث طلبت من ملك الحميريين ، عدا بناء الكنيسة ، تنفيذ أشياء كثيرة أخرى . ويفهم من هذا أن البعثة الدبلوماسية عملت على تطوير العلاقات التجارية وترسيخ النفوذ السياسي البيزنطي في اليمن . فعدا كنيسة ظفار بنيت كنيسة ثانية في عدن ، الميناء التجاري الهام على الساحل الجنوبي للجزيـرة العربية ، كذلك بنيت كنيسة ثالثة عند مصب الخليج العربي في المحيط ، في مدينـة تدعى « السوق الفارسية » (١٧) . وذكـر فيلوستورغيوس أن هـــذه الكنائـس بنيـت علـى حساب ملـك الحميريين لانـه اعتنق المسيحيـة ، كمـا قـدم الامبراطور كونستانتيوس اعانة مالية من اجل هذا الغرض .

بعد أن انهى السفير البيزنطي الاسقف تيوفيلوس الهندي مهمته في اليمن توجه الى الحبشة ، حيث نفذ بعض المهمات السياسية التي كلفه بها الامبراطور البيزنطي . لكن تيوفيلوس قبل أن يذهب الى الحبشة زار ، في الغالب ، مسقط راسه جزيرة ديف (سقطرة أو سيلان) . واخير عاد تيوفيلوس من أكسوم عاصمـة الاحباش الى القسطنطينية .

اهتم فيلوستور غيوس كمعاصريه بالتحدث عن مكان الجنة في الارض ، التي تجري فيها الانهار التالية : فيسون (الغانج) ، النيل ، دجلة ، الفرات ، وهذا الامر لايهمنا في هذا المكان . واهتم فيلوستورغيوس ، بصورة خاصة ، بالتحدث عـن البلدان الواقعة الى الجنوب والجنوب الشرقي خارج حدود الامبراطورية البيزنطية مثل : الحبشة ، اليمن ، الهند ، سيلان ، فهو يذكر ثرواتها الطبيعية ونباتاتهـا وحيواناتها . وقد عرف فيلوستورغيوس اليمن والحبشة معرفة جيدة ، فأطلق علـى اليمن اسم « بلاد حمير » وعلى الحبشة اسم « دولة اكسوم » . أما اسم الهند عنده

فيقصد به الهند نفسها او الهند العظمى . هـذا وكانت معلوماته الجغرافية عن حوض البحر الاحمر واضحة وصحيحة ، فهو يذكر ميناءين كبيرين على خليجي البحر الاحمر الشماليين وهما ميناء كليزما (القلزم) وميناء ايلة (ايلات) ، كما يذكر ميناء اكسوم على الشاطىء الحبشي .

من اهم المعلومات الطريفة التي أوردها فيلوستورغيوس انتشار السوريين (تجار من بلاد الشام) على السواحل الى الشرق من الاحباش وحتى المحيط الخارجي (المحيط الهادي) . وقال فيلوستورغيوس : ان هؤلاء التجار السوريين مازالوا يتكلمون اللغة السورية ، لكن بشرتهم اسودت لانهم يعيشون تحت أشعة شمس حارة . وترجمة النص حرفيا هي على الشكل التالي : « قبل هؤلاء الاحباش وباتجاه الشرق حتى المحيط الخارجي يعيش السوريون ، كما يعرفون بهذا الاسم لدى السكان المحليين . وكان الاسكندر المكيدوني قد نقلهم من سورية واسكنهم هناك ، وهم حتى الآن يتكلمون لغتهم السورية » (١٨) . هذه المعلومات تدل على وجود مستعمرات تجارية سورية في سواحل الهندوستان الغربية « حيث توجد القرفة والفيلة بكثرة ، وحيث يتواجد السوريون الذين حافظوا على لغتهم » ، كما توضح لنا مدى التأثير السوري في تلك المناطق . واكد صحة هذه المعلومات قزما الملاح الهندي (في كتابه : الطبغرافية المسيحية) ، حيث تحدث عن انتشار المستعمرات السورية في الموانىء التجارية والمدن الواقعة على سواحل الهند ، كما تحدث عن انتشار الديانة المسيحية في سواحل الهند الشرقية وسيلان وآسيا الوسطى بواسطة المبشرين والتجار السوريين (١٩) .

ذكر فيلوستور غيوس الحيوانات المتنوعة التي تعيش في الهند وجنوب أفريقيا ووسطها ومنهـا : الفيلة والثيران الكبيرة ، والافاعي ، وحيد القرن ، السعادين المتنوعة ، الزرافة ، والحمار الوحشي . وذكر ايضا استخراج الذهب من مناجم أواسط افريقيا (بلاد ساسو) وحوض نهر الغانج في الهند .

هذا المصدر التاريخي « تاريخ الكنيسة » لمؤلفه فيلوستورغيوس له أهمية خاصة ، حيث وردت فيه معلومات مفيدة واضحة عن التبادل التجاري وعلاقات بيزنطة الخارجية في النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي . ان ارسال السفارات والوفود الدبلوماسية الى اليمن والحبشة يدل على اهتمام الدولة البيزنطية بالتقرب والتحالف مع هذين البلدين ، كما أن مساعيها لنشر الديانة المسيحية تعتبر احدى الوسائل لتمتين علاقاتها مع البلدان الواقعة على طريق الهند التجارية . والهدف الاساسي من هذه السياسة هو تحقيق مصالح بيزنطة الاقتصادية . ولكن عندما

سيطر الفرس على جنوب الجزيرة العربية (في النصف الثاني من القرن السادس) لم تعد بيزنطة تهتم ببذل المساعي الدبلوماسية في تلك المنطقة . ولهذا المصدر التاريخي **اهمية خاصة أيضا كونه يوضح لنا انتشار الجاليات السورية التجارية في موانى** الهند ، مما يدل على الدور الهام الذي لعبه التجار العرب السوريون (تجار بلاد الشام) في التجارة البيزنطية الداخلية والخارجية .

* * *

د ــ قزما الملاح الهندي ــ ((الطبغرافية المسيحية)) :
Cosmas Indiocopleustes --- The Christian topography

يعتبر كتاب « الطبغرافية المسيحية » لمؤلفه قزما ــ الملاح الهندي ــ من المصادر التاريخية الهامة التي تفيدنا بمعلومات وفيرة عن تجارة بيزنطة في القرن السادس الميلادي . وقد انتشرت نسخ كثيرة من هذا الكتاب في العصور الوسطى ، كما ترجمت النسخ الاصلية اليونانية الى عدة لغات منها اللاتينية والسلافية . وقزما الملاح الهندي اصله من مصر ، وفي الغالب ، من مدينة الاسكندرية ، حيث شاع كثيرا مثل هذا الاسم في مصر . تحدث قزما الملاح الهندي في كتابه عن نفسه وحياته باختصار ، فذكر انه عرف اللغة اليونانية ، ولكنه لم يتقن فصاحتها جيدا بسبب انشغاله بمشاكل الحياة اليومية الصاخبة (٢٠) .

اشتغل قزما الملاح الهندي بالتجارة فطاف في بحار ثلاثة هي : البحر الرومي (المتوسط) ، البحر الاريتيري (المحيط الهندي) ، البحر الفارسي (الخليج العربي) . وذكر قزما أن المعلومات التي نقلها الينا في كتابه أخذها مباشرة عن سكان المناطق والبلدان التي زارها (٢١) . لقد أبحر قزما من جزيرة سنفيدون الواقعة في مدخل المحيط الهندي باتجاه الهند ، فتعرض لعاصفة بحرية شديدة ، لكنه لم يذكر اذا كان قد وصل الى الهند أم لا . غير أن الوصف الدقيق الذي عرضه في الفصل الحادي عشر من كتابه عن جزيرة سيلان يدل على انه من تأليف شاهد عيان . وقد حل قزما **في الحبشة سنة ٥٢٢ او ٥٢٥ في عهد ملكها الاصبح ، الذي عاصر عهد الامبراطور** البيزنطي جوستين الاول (٢٢) . وفي الحبشة زار قزما مدينة أدوليس (عدول) التي كانت مرفأ تجاريا يقصده التجار من مختلف الجنسيات . وفي هذه المدينة نسخ قزما نقشين : النقش الاول كان على لوح من المرمر ويخلد ذكرى حملة بطليموس الثالث **ملك مصر (٢٤٧ ــ ٢٢٢ق.م) على الحبشة . أما النقش الثاني فكان تخليدا** لتنصيب أحد الملوك الاحباش على العرش (في القرن الثاني أو الثالث الميلادي) ،

الذي يحمل لقب « نيجوس » ـ النجاشي ـ ولكن اسمه لم يذكر . وزار قزما أيضا مدينة أكسوم عاصمة الحبشة التي كانت مركزا تجاريا هاما . وتحدث قزما عن الزرافة Camelo Paradalis فقال لاتعيش الا في الحبشة ، ويوجد بعض منها في حديقة القصر الملكي في أكسوم ، كونها من الحيوانات النادرة (٢٣) .

تجول قزما في ساحل افريقيا الجنوبي الشرقي فوصل الى شبه جزيرة الصومال. وربما وصل قزما أيضا الى بلاد ساسو عند منابع النيل الجنوبية ، حيث ذكر أن ملك أكسوم اقام علاقات تجارية مع بلاد ساسو فاستورد منها الذهب (٢٤) . وحل قزما أخيرا في صحراء سيناء وترهب في دير هنـاك يسميه رايتوي ، فقضى فيه بقية حياته منصرفا لكتابة الكتب . ونستدل على رهبنته من احدى نسخ كتابه « الطبغرافية المسيحية » المحفوظة في فلورنسيا ، حيث ورد اسمه فيها « قزما الراهب »

وعدا عن « الطبغرافية المسيحية » كتب قزما بعض الكتب الاخرى ولكنها فقدت ولم تصل الينا ، ومنها كتاب يذكر المؤلف انه كتبه لشخص يدعى قسطنطين وصف فيه المعمورة في جهة المحيط ـ من الاسكندرية الى المحيط الجنوبي (نهر النيل) ـ مصر كلها ، الحبشـة ، البحـر العربـي والمناطـق المحيطـة بـه ، المـدن ، الاقاليم ، الشعوب التي يحيـط بهـا المحيـط وتقع في داخل القارة ـ وهـذا يعني انه وصف في ذلك الكتاب جميع مناطق أفريقيا الشرقية ودون فيـه ملاحظاته الشخصية وما شاهده بعينيه . (٢٥) . كذلك كتب قزما الملاح كتابا في الفلك لكاهن يدعى هومولوغوس Homologos ، لكنه لم يصلنا ، كما لم يصلنا أيضا ماكتبه في شرح « قصيدة القصائد » (٢٦) .

يتألف كتاب « الطبغرافية المسيحية » من اثني عشر فصلا ، لكن هذه الفصول تختلف بمحتوياتها . الفصول الخمسة الاولى تحتوي آراء قزما ـ الملاح الهندي ـ حول نشوء المعمورة . اما الفصول الخمسة الثانية ـ (أي من ٥ ـ ١٠) فتحتوي معلومات في الفلك وعلم الفضاء ، ولكنها غير واضحة وغير دقيقة . وأهم فصول الكتاب هو الفصل الحادي عشر الذي يتحدث فيه عن جزيرة سيلان كشاهد عيان . وعرض قزما في الفصل الثاني عشر آراء الكتاب الوثنيين القدماء حول قيمة التوراة وقدمها . هذا وقد كتب قزما كتابه « الطبغرافية المسيحية » بين سنتي ٥٤٧ ـ ٥٥٠ ميلاديـة (٢٧) .

وتتطابق آراء قزما حول نشوء المعمورة مع آراء النساطرة السوريين . كما أن

تجارة بيزنطة مع بلدان الشرق : الحبشة ، جنوب افريقيا ، الهند ، كان لا بد لها ان تشد قزما الى مجال التأثير السوري ، حيث قبض السوريون النساطرة الذين يعيشون تحت النفوذ الفارسي على زمام التجارة ، كما كانت اللغة السورية هي لغة التجارة الاولى في الشرق (٢٨) . ومما يدل على التأثير السوري النسطوري على آراء قزما أنه عندما عدد مذاهب الهراطقة المسيحيين لم يذكر النساطرة بين الهراطقة . هذا وقد وردته أخبار من الاوساط السورية تفيد بأن كهنة جزيرة سقطرة (ديوسكوريد) كان يتم تعيينهم من فارس — أي من قبل رجال الدين النساطرة الخاضعين للنفوذ الفارسي (٢٩) .

يشاهد في كتاب « الطبغرافية المسيحية » بعض الصور ، خاصة في أقدم مخطوطة محفوظة في الفاتيكان تحت رقم (٦٩٩) (٣٠) . ويؤكد الباحثون أن قزما — الملاح الهندي — كان قد رسم تلك الصور بيده . لقد ذكر قزما أنه رسم الزرافة كما شاهدها في حديقة قصر اكسوم الملكي . وقد رسم قزما أيضا بعض المدن على شكل حصن له سور حوله . ومن المدن التي رسمها قزما بيده مدينة دمشق .

ويستحسن أن نذكر هنا الكلمات الجميلة التي اختتم بها العالم الروسي سريزنفسكي ترجمة كتاب قزما « سعى بعض الناس الى جمع الذهب ، في حين اغتصب بعضهم الاراضي او اللؤلؤ أو غيره من الثروات . أما صاحب هذا الكتاب الحكيم (قزما) فلم يبحث عن الذهب أو اللؤلؤ أو غيره من الكنوز ، بل سعى الى وصف العالم بشكل لائق ، فجمع بذلك ثروة لاتزول . ان الكلمة وحدها هي ذخر كل ما في الارض » (٣١) .

* * *

هـ — « الطرق من جنة آدم حتى الرومان » « Odoiporiai apo Edem... »

عثر الباحثون على مخطوطة صغيرة مكتوبة باللغة اليونانية تحتوي معلومات جغرافية وتاريخية ترجع الى ما قبل القرن السابع الميلادي . كما عثر الباحثون أيضا على مخطوطة أخرى مكتوبة باللغة الكروزينية (لغة بلاد الكرج) قريبة الشبه بمحتواها من المخطوطة اليونانية المذكورة . وتحمل المخطوطة اليونانية هذا العنوان : « الطرق من جنة آدم حتى الرومان » وأول من نشر هذه المخطوطة هو العالم كلوتز سنة ١٩١٠ .

A. Klotz. Odoiporiai apo Edem. Rheinisches Museum für Philologie, t. 65, 1910, PP.608 — 610.

... ثم نشر المخطوطة بعده العالم أفاليشفيلي سنة ١٩٢٨ .

Z. Avalichvili. Géographie et legende. Revue del'Orient chrétien, 26, 1928, PP. 280 - 283.

كذلك وجدت العالمة السوفيتية نينا بيغوليفسكايا نسخة من المخطوطة باللغة اليونانية في المكتبة العامة الوطنية في مدينة لينينغراد تحمل الرقم (٢٢٥) ومؤرخة بتاريخ سنة ١٦٦١ ، فنشرتها مع ترجمة لها باللغة الروسية في ملحق كتابها : بيزنطة على طرق الهند ، موسكو ١٩٥١ ،ص ٤٠٨ – ٤١٠ .

مخطوطة « الطرق من جنة آدم حتى الرومان » اصغر بكثير من مخطوطة « الوصف الكامل للعالم والشعوب » (Expositio...) ، لكن المخطوطتين تتشابهان في ذكر أسماء البلدان والاقاليم وتحديد المسافات بين الاقاليم بعدد مراحل السير لقطع المسافات برا أو بحرا . وعدا عن صغرها تتميز مخطوطة « الطرق من جنة آدم ... » عن مخطوطة « الوصف الكامل ... » بطابعها المسيحي ، حيث يكثر فيها ذكر المسيحيين في مختلف اقاليم الشرق ، بينما لا نلاحظ الطابع المسيحي في مخطوطة « الوصف الكامل ... » .

ان الفقرات الاولى من مخطوطة « الوصف الكامل ... » ومخطوطة « الطرق من جنة آدم ... » تدل على أن الطريق البحرية الى الهند والمسافات بين الموانىء والمراكز التجارية الرئيسية على هذه الطريق كانت معروفةفي بيزنطة في القرن الرابع الميلادي . في النص اليوناني والنص الكروزيني لمخطوطة « الطرق من جنة آدم ... » تبدأ الطريق من الهند ، اول مركز في الشرق يصدر البضائع ، عبر ايران ، فتصل الى روما عبر البحر الابيض المتوسط ، ومن روما تنقل الى غاليا (فرنسا) . ليس من شك ان خلف كتابة هذه المخطوطة اليونانية (الجغرافية – التاريخية) تكمن مصالح تجارية عالمية . هذا وقد لعب التجار السوريون (تجار بلاد الشام) الدور الاول في تلك التجارة العالمية ، ومما يشهد على ذلك شواهد القبور الكثيرة المكتشفة في فرنسا والتي كتبت عليها كتابات باللغة السورية (السريانية) ترجع الى القرنين السادس والسابع الميلاديين .

تطلق مخطوطة « الطرق من جنة آدم حتى الرومان » على الفرس صفة عباد النار ، كما تذكر العرب باسم ساراكينوي دون أن تذكر الاسلام ، وهذا يدل على أن المخطوطة كتبت قبل ظهور الاسلام في القرن السابع . أما ذكر المسيحيين لدى الهون (في آسيا الوسطى) وفي جزيرة سيلان والهند الكبرى فهذا يدل على ان المخطوطة قد كتبت

في الفترة التي نشط فيها تبشير البعثات الدينية السورية النسطورية في بلدان الشرق في المرحلة مابين القرنين الخامس والسابع الميلاديين .

وعدا ذكر الطرق البحرية والمناطق الساحلية فقد ورد في مخطوطة « الطرق من جنة آدم حتى الرومان » ذكر الطرق البرية والمناطق القارية مثل : جنة آدم ، بلاد البراهمة ، بلاد الهون . على أن التصورات عن جنة آدم والهند الشمالية والصين وبلاد الهون جاءت في مخطوطة « الطرق من جنة آدم حتى الرومان » غامضة ومبهمة . اما في كتاب قزما ــ الملاح الهندي ــ « الطبغرافية المسيحية » فقد وردت المعلومات عن البلدان المذكورة بشكل أوضح واكثر واقعية . ولا يعترف قزما بوجود جنة آدم على الارض . أما الصين عنده فهي بلاد في الشرق يقع خلفها المحيط الكبير ، وللوصول الى هذه البلاد توجد طريقان : الاولى بحرية في الجنوب ، والثانية برية في الشمال . وينفي قزما ــ الملاح الهندي ــ وجود جنة آدم في الارض قائلا : « ما من أحد عرف جنة آدم على الارض أو وصل اليها ، فلو كان من الممكن الوصول الى جنة آدم لذهب اليها الكثيرون ، ذلك أن الناس يذهبون الى أقاصي الارض للحصول على الحرير الخام ، فكيف لايذهبون الى جنة آدم لو كانت موجودة في الارض فعلا ! » .

تعريب المخطوطة اليونانية « الطرق من جنة آدم حتى الرومان »

(ورقة ٦٧ ب) حول طرق جنة آدم .

من آدم الى دراجنان تتأرجح المراحل (موناي) على طول النهر المسمى فيسون . من دراجنان الى ابيلات سبعون مرحلة ، هناك يزرعون ويحصدون ، وكل شيء يملكونه مشترك لاقسمة فيه ، والناس هناك مسيحيون . من ابيلات الى ارمين (ايمير) أربعون مرحلة .

من ارمين الى نيكوس اثنتان وثلاثون مرحلة .

من نيكوس الى ديسيمانيس مرحلتان ، ومنها الى هنا المسافة غير محسوبة ويروي ارضهم نهر فيسون ، ولاتوجد عندهم اصنام ، وهم لايتبعون المسيح وليسوا معه ، لكنهم يخشون الله وصادقون .

بعد ديسيمانيس يعيش شعب يدعى خوناي (الصينيون) . ذلك الشعب كبير جدا ، (وأرضه واسعة) يلزم لاجتيازها ثمانية اشهر . ولديه ارض بدون مـاء

Рукопись Государственной Публичной библиотеки в Ленинграде, греческая, № 252

(Текст печатается по неизданной рукописи № 252 с разночтениями издания „Подорожных". Klotz. Ὁδοιπορία ἀπὸ Ἐδνέμ. Rheinisches Museum für Philologie (1910) N. F., 65 B. H. 4, p. 608—610) (Л. 67 б). Περὶ ὁδοιπορίαι τῆς Ἐδὲμ τοῦ παραδείσου.[1]

Ἀπὸ Ἀδάμ[2] ἕως Δραγμὰν[3] μοναί, εὐ δομήντα[4] παρὰ τὸν ποταμὸν τὸν λεγόμενον Φυσὼν καὶ ἀπό Δραγμὰν[5] ἕως Ἐβηλὰτ[6] μοναὶ ō ἐκεὶ σπέρνουν[7] (л.68-а) καὶ δερίζουν· ἔχουσιν δὲ τὰ πάντα κοινὰ καὶ ἀμέριστα- οἱ δὲ ἄν[θρωπ] οι[8] χριστιανοί· ἀπὸ Ἐβηλὰτ ἕως Ἑρμὴν[9], μοναὶ μ̄ ἀπὸ Ἑρμὴν[10] ἕως Νέκους, μοναι λ̄β̄ ἀπὸ Νέκους ἕως Δισιμάνεις[11] μοναι β[12] ἕως ὧδε ἀμέριστα· ποτήξεται δὲ ἡ γῆ αὐτῶν τοῦ Φυσὼν ποταμοῦ[13] εἴδολα ἐν αὐτοῖς οὐ κέκτηνται· οὔτε[14] πρὸ τοῦ Χ[ριστο]ῦ οὔτε[15] μετὰ του Χριστοῦ· ἀλλὰ πάντα[16] θεοσεβεῖς καὶ ἀγαθεῖς· ἀπὸ Δισιμάνεις ἔθνος λεγόμενον Χῶναι· τὸ δὲ ἔθνος τοῦτο μέγα· ἔχων[17] ὁδοιποροίαν μην[ῶν] ῆ[18] ἔχει δὲ καὶ τόποις ἀνήδροις μηνῶν κθ. ἀπὸ Ἀβὰ παραπλέη τὸν αἴγυαλῶν. και[19] ἔρχεται εἰς τὴν Ἰνδίαν τὴν μεγάλην· πλέον μήνας ζ εἰδὲ[20] Χριστιανοι καὶ Ἕλληναις· ἀπὸ Ἰνδίας εἰς Ἀξομίαν παραπλέε· μήνας ζ[21] καὶ ἀπὸ Ἀξομίς[22] (л. 68-б) παραπλέει τὴν Ἐρυθρὰν θάλασσαν[23] ἔρχεται εἰς τὴν Ἰνδιάν τὴν μακρὰν[24] διὰ μηνῶν ε̄ εἰσὶν δὲ καὶ Ἕλληναις καὶ Χριστιανοί.[25] ἀπὸ Ἰνδίας παραπλέει ἕως Περσίδος μήνας γ̄.. νυ...ηης[26] οἱ ἄνομοι μάγοι καὶ φάρμακοί· ἀπὸ Περσίδος εἰς Σαρακηνίαν[27] μοναι β. ἀπὸ Σαρακηνὴν πλέει εἰς τὴν Ἐβιλὰτ[28] τὴν Ἐρυθρὰν θάλασσαν εἰς τὴν[29] λιμένα τῆς Περσίδος Ἰνδίας[30] καὶ ἀπὸ Αἰγύπτου μοναί ζ Ἕλληναις καὶ Χριστιανοὶ εἰσὶν·[31] ἀπὸ Ἐβηλὰτ εἰς Ἐλαμὴ[32], μοναί θ̄. ἀπὸ Ἐλαμὴ ἕως Ἀντιοχεία μοναὶ κ̄ ἀπὸ Ἀντιοχείας εἰς Κονσταντινούπολιν[33] μοναὶ λ̄β̄ ἀπὸ Κονσταντινούπολιν[34] ἕως Ῥώμης μοναί π̄ς̄ ἀπὸ Ῥώμης εἰς Χαλίαν[35] μοναὶ κζ[36]

Ἡ μονὴ ἔχει μήλια ζ καμουν ὧλα μύλια χιλιάδες ρθ καὶ φ ἤγουν χιλι [л. 69-а] άδες· ἑκατὸν ἐννέα καὶ πεντακόσια.

Τέλος τῆς ὁδοιπορίας τῆς Ἐδὲμ τοῦ παραδείσου.

النص اليوناني الموجود في المكتبة الوطنية بمدينة ليتينغراد لمخطوطة « الطرق من جنة آدم حتى الرومان » نشرته مع ترجمته الروسية العالمية السوفييتية نينا بيغولفسكايا في كتابها « بيزنطة على طرق الهند » ، موسكو ١٩٥١ ص ٤٠٨ — ٤١٠ .

(صحراء) يلزم لاجتيازها تسعة وعشرون شهراً . من آب (دياب) يبحرون على طول الشاطىء حتى يصلوا الى الهند العظمى . مدة الابحار سبعة أشهر ، وهم هناك) مسيحيون ويونانيون . من الهند الى اكسوم يبحرون سبعة اشهر ، بينما من اكسوم يبحرون عبر البحر الاويتيري فيصلون الى الهند العظمى بعد خمسة اشهر ، وهم هناك هلينيون ومسيحيون .

من الهند الى الفرس يبحرون ثلاثة أشهر ، وهم (الفرس) مجوس طغاة مفسدون . من الفرس الى السار اكينوي (العرب) مرحلتان .
من الساراكينوي (العرب) يبحرون الى ايلات البحر الاريتيري والى ميناء الفرس الهندي .

ومن مصر الى ايلات سبع مراحل ، وهم (هناك) هلينيون ومسيحيون . من ايلات الى عيلام تسع مراحل .

من عيلام الى انطاكية عشرون مرحلة .

من انطاكية الى القسطنطينية اثنتان وثلاثون مرحلة .

من القسطنطينية الى روما ست وثمانون مرحلة .

من روما الى غاليا سبع وعشرون مرحلة .

المرحلة تساوي سبعة أميال .

طول الطريق كله (الطريق من جنة آدم حتى الرومان) مئه وتسعة آلاف وخمسماية (١٠٩٥٠٠) ميل . نهاية طريق جنة آدم .

* * *

و ــ صناعة الحرير وتجارته في بلاد الشام في العهد البيزنطي من خلال المصادر المعاصــرة .

« بروكوبيوس الكيساري » ــ « Procopius Caesarensis : Anecdota »

وجدت مصانع الغزل والنسيج (الورش الصناعية) في مدن بلاد الشام منذ القرون الاولى الميلادية . في هذه المصانع تحول الحرير الخام الى خيوط دقيقة وصبغ

بألوان مختلفة ، ثم نسج قماشاً بأيدي صناع مهرة واعطي للخياطين الذين خاطوا منه معاطف وعباءات مطرزة وموشاة بخيوط ذهبية ، فباعها التجار السوريون في أسواق الشرق والغرب . وكان الحرير الخام يصل الى مدن بلاد الشام الساحلية عن طريق البحر . لقد استورده التجار من الهند ونقلوه على السفن الحبشية الى ميناء أدوليس (عدول) ــ الواقعة على ساحل البحر الاحمر الحبشي ــ ، ثم الى خليج ايلات ، ومن ايلات نقل الحرير في الطرق البرية الى ساحل بلاد الشام . كذلك كانت طرق القوافل البرية الممتدة من الصين الى أواسط آسيا وايران تنتهي في الساحل الشمالي لبلاد الشام ، وفي هذه الطرق نقل الحرير الخام ايضا .

وردت في مجموعة الامبراطور تيودوسيوس القانونية Codex Theodosianus اسماء بعض المصنوعات الحريرية ومنها : Metaxa وتعني الحرير الخام ، Nema Sericum وتعني الخيوط المغزولة ، Vestis Serica وتعني الالبسة الحريرية ، Subserica وتعني الاقمشة الحريرية الموشاة بخيوط ذهبية ــ اي نوعا من الديباج . وقد غزلت الخيوط الحريرية وصبغت في بيروت وصور وصيدا ، حيث اشتهرت هذه المدن بمثل هذه الصناعات . ومما ساعد على تطور الصناعات الحريرية في مدن بلاد الشام الساحلية وجود الصباغ الارجواني (الذي صبغت به الالبسة الحريرية الملكية) في هذه المدن منذ القدم (٣٢) وقد كتب المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس الكيساري في القرن السادس مايلي : « تصنع المعاطف من الحرير الخام في بيروت وصور ومدن فينيقية منذ قديم الزمان ، وقد عاش في تلك المدن تجار يملكون الورش والمصانع . ومن هناك وزعت البضائع الى مختلف انحاء المعمورة » (٣٣) .

في القرن السادس الميلادي نظمت حكومة الامبراطور جستنيانوس الكبير صناعة الحرير وتجارته بشكل يخدم مصلحة خزانة الدولة البيزنطية بالدرجة الاولى . لقد احتكرت الدولة صناعة الحرير وتجارته ، مما الحق ضررا فادحا بمدن بلاد الشام الساحلية التي تعيش من دخل هذه الصناعة والتجارة . لقد تعطلت صناعة الحرير وضعفت المبادلات التجارية ، فأفلس كثير من الصناع والتجار وافتقروا .

ويتحدث المؤرخ البيزنطي المعاصر للاحداث بروكوبيوس الكيساري بالتفصيل عن الازمة التي اصابت صناعة الحرير وتجارته في القرن السادس الميلادي . فالتجار الفرس استغلوا وضعهم كوسطاء محتكرين ، كما استغلوا توتر العلاقات بين بيزنطة وايران ، فرفعوا اسعار الحرير الخام ، مما ادى الى ارتفاع أسعار الاقمشة الحريرية المصنعة في المدن البيزنطية ، وبصورة خاصة في مدن بلاد الشام الساحلية . وهناك

سبب آخر لارتفاع اسعار الحرير وهو ازدياد عدد المراكز الجمركية في الاراضي الفارسية والبيزنطيـة ، حيـث حصـل كل مركز على ضريبة مرور مقدارها عشر ثمن البضائع الحريرية او غيرها . اضف الى ذلك احتكرت حكومـة جستنيانوس صناعة الحرير وتجارته لتزيد دخل خزانة الدولة من أرباح هذه الصناعة والتجارة ، مما أدى الى اغلاق الكثير من المصانع الخاصة ، وبخاصة المصانع الصغيرة التي لم يعد بامكان أصحابها الحصول على الحرير الخام . هذا وقد خصصت الحكومـة البيزنطيـة بعض الموظفين (Komme Pkuapuu) والقت على عاتقهم شراء الحرير الخام من الفرس . ورفع التجار الفرس سعر الحرير الخام وحدوده كما يلي : كل ليتر (٥ر٣٢٧ غرام) من الحرير الخام يساوي ١٥ نومسمة من الذهب البيزنطي . على أن الحكومة البيزنطية لم تحدد اسعار مصنوعاتها الحريرية ، لان ذلك ليس في مصلحتها ، خاصة بعد ان احتكرت صناعة الحرير وتجارته . وقد سمحت الحكومة البيزنطية لتجار الحرير وصناعه ان يبيعوا للدولة ما يحصلون عليه من الحرير الخام من الفرس ، على ان يكون البيع بالسعر الذي حدده التجار الفرس المذكور سابقا . وبالمقابل تستطيع الدولة أن تبيع الحرير الخام للمصانع الخاصة بالسعر الذي تريده. ان احتكار الدولة لصناعة الحرير وتجارته ابعد من الوجود كل منافس لهافي هذاالمجال، ولذا صار بامكانها ان ترفع اسعار المبيع كما تشاء . كذلك انخفضت قيمة الذهب الشرائيـة ، حيث صار الستراتيروس الذهبي يصرف ب (١٨٠) فوليس Follis في زمن جستنيانوس ، بينما كان الستراتيروس يصرف قبل ذلك ب (٢١٠) فوليس، وهذا الانخفاض في سعر الذهب ادى الى ارتفاع أسعار مختلف البضائع ، بما في ذلك المصنوعات الحريرية .

بنتيجة تلك الاجراءات والعوامل لحقت اضرار فادحة بصناع الحرير وتجاره في مدينة بيروت وصور وغيرها من مدن بلاد الشام الساحلية التي تمركزت فيها صناعة الحرير وتجارته . لقد اضطر هؤلاء الصناع والتجـار الى رفع ثمن مصنوعاتهـم الحريرية ، لانهم اشتروا الحرير الخام باسعار مرتفعة من الدولة أو خلسة عن طريق التهريب . عندئذ تدخلت الدولة فأصدرت قوانين تحدد لهؤلاء أسعار مصنوعاتهم الحريرية . وعلى هذا اضطر الصناع والتجار أن يبيعوا مصنوعاتهم الحريرية بخسارة ملموسة ، لانهم كانوا قد دفعوا ثمن الحرير الخام غاليا . على أن بعض الصناع والتجار باعوا المصنوعات الحريرية خلسة (دون مراعاة تسعيرة الدولة) ، ولذا اصدرت الامبراطورة تيودورا زوجة جستنيانوس أوامرها بمصادرة بضائع هؤلاء « المهربين » وفرض غرامة مالية كبيرة عليهم ، ويتابع المؤرخ بروكوبيوس Procopius حديثه عن اوضاع صناعة الحرير وتجارته المتردية في مدن بلاد الشام الساحلية قائلا : « ان

الشعب البسيط الذي قام بالعمل اليدوي (في صناعة الحرير) قد افتقر وعانى الجوع المميت ، ولذا اضطر ان يترك هذا العمل . على ان بعض هؤلاء الصناع هاجر الى ايران ليجد عملا له في صناعة الحرير هناك (٣٤) . ويذكر بروكوبيوس ايضا ان التجار الذين نقلوا الحرير الخام من الهند عن طريق البحر الاحمر قد ساء أمرهم بنتيجة اجراءات الدولة (المشار اليها) . وتؤكد المصادر المعاصرة الاخرى على تدهور صناعة الحرير وتجارته في مدن بلاد الشام في القرن السادس الميلادي،اذتذكر تلك المصادر : ان تجار تلك المدن واصحاب المصانع فيها والصناع قد افلسوا (٣٥) .

وتجدر الاشارة الى ان احتياجات القصر الامبراطوري الكثيرة من المصنوعات الحريرية دفع الدولة الى اقامة مصانع لها في العاصمة البيزنطية لتؤمن احتياجاتها من هذه المصنوعات . وقد اعتمدت الدولة على عمل العبيد في هذه الصناعة ، كما شكلت منهم مجموعات متخصصة أطلق عليها اسم : Gynacciarii .

وفي ٤٢٦ م صدر قانون ينص على معاقبة كل من يأوي عبدا هاربا عنده من هؤلاء العبيد الذين يشتغلون في مصانع الدولة . وقد اكدت قوانين جستنيانوس على استمرار مفعول القانون السابق في القرن السادس الميلادي أيضا (٣٦) .

ان الاضرار الفادحة التي لحقت بصناع الحرير وتجاره في مدن بلاد الشام ، بالاضافة الى زيادة الضرائب على العاملين في حقل الزراعة واضطهاد جميع السكان بسبب عقيدتهم المونوفيزيتية (الايمان بوجود طبيعة الهية واحدة في المسيح) المخالفة للعقيدة البيزنطية الرسمية (الايمان بوجود طبيعتين في المسيح ، الهية وبشرية) ، كل ذلك كان من العوامل التي أثارت استياء سكان بلاد الشام (العرب القدماء) من جور السلطات البيزنطية المحتلة ودفعتهم على الترحيب باخوانهم العرب المسلمين ، الذين فتحوا بلاد الشام وحرروها من الاستعمار البيزنطي .

* * *

المصـــادر والمراجـــع :

ـ آ ـ

« الوصف الكامل للعالم والشعوب »

« Expositio totius mundi et gentium »

١ ـ نينا بيغوليفسكايا : بيزنطة على طرق الهند، موسكو ١٩٥١ ، ص ٣٣-٥٤ .

٢ ـ « الوصف الكامل للعالم والشعوب » الفقرة ٣١ ، ص ٥١٩ .
Expositio..., 31, P. 519.

٣ ـ « الوصف الكامل للعالم والشعوب » ، الفقرة ٢٩ ، ص ٥١٨ .

٤ ـ « الوصف الكامل للعالم والشعوب » ، الفقرة ٣١ ، ص ٥١٨ .

٥ ـ Procopius : Anecdota

بروكوبيوس : الترجمة الروسية في المسلسل الدوري « اخبار التاريخ القديم » ف . د . ي العدد الرابع ، سنة ١٩٣٨، ص٣٤١-٣٤٣ .

٦ ـ « الوصف الكامل للعالم والشعوب » ، الفقرات ٣٠-٣٢ ، ص ٥١٨-٥١٩ .

٧ ـ « الوصف الكامل للعالم والشعوب » ، الكقرات ٣٠ ـ ٣٢ ، ص ٥١٨ ـ ٥١٩ .

٨ ـ « الوصف الكامل للعالم والشعوب »، الفقرة ٢٥ ، ص ٥١٧ .

٩ ـ « الوصف الكامل للعالم والتعوب » ، الفقرة ٢٠ ، ص ٥١٦ .

١٠ ـ « الوصف الكامل للعالم والشعوب » ، الفقرة ٢٢ ، ص ٥١٦ .

ـ ب ـ

« تاريخ أميانوس ماركيلينوس »

« Ammianus Marcellinus .. Historia »

١١ ـ Ammiani Marcellini Rerum gestarum libri, qui supersunt, rec. C. U. Clark, V. I — II, Berolini, 1910 — 1915, 14, 8 — 13.

ترجمه الى اللغة الروسية يو. كولاكوفسكي وآ. سوني، بعنوان : أميانوس ماركيلينوس ـ تاريخ. ترجمة من اللاتينية في ثلاثة اجزاء ، كييف ١٩٠٦ ـ ١٩٠٨ .

١٢ ـ اميانوس ماركيلينوس ـ تاريخ، الترجمة الروسية ، الجزء الاول ، ص ١٦ .

ـ ج ـ

« فيلو ستورغيوس ـ تاريخ الكنيسة »

Philostorgius, Historia Eclesiastica, ed. Bidez, Leipzig, 1913.

١٣ ـ فيلوستورغيوس ، تاريخ الكنيسة ، طبعة ليبزغ ١٩١٣ ، ص ٤٢ .

١٤ ـ فيلوستورغيوس ، ص ٣٣ .

١٥ ـ نينا بيغوليفسكايا : بيزنطة على طرق الهند، موسكو ١٩٥١ ، ص ٧٢ .

١٦ ـ قزما الملاح الهندي : الطبغرافية المسيحية ، النص اليوناني ، طبعة وينستد ،كمبردج١٩٠٩، ص ١١٩ .

Cosmas Indecopleustes : The Christian topography (greec text), ed. by Winstedt, Cambridge, 1909, P. 119.

١٧ ـ فيلوستورغيوس ، تاريخ الكنيسة ، ص ٣٤ .

١٨ ـ فيلوستورغيوس ، تاريخ الكنيسة ، ص ٣٥ .

١٩ ـ قزما الملاح الهندي : الطبغرافية المسيحية ، ص ١١٩ .

ـ د ـ

ـ قزما الملاح الهندي ـ « الطبغرافية المسيحية »

20 — Cosmas Indeicopleustes : The Christian topography (greec text), edit by Winstedt, Cambridge, 1909, P. 52.

21 — Cosmas Indicopleustes, P. 62.

22 — Cosmas, P. 72.

23 — Cosmas, P. 319.

24 — Cosmas, P. 70 — 71.

٢٥ ـ ب . ٢ تورايفا ، تاريخ الشرق القديم ، بطرس بورغ ، ١٩١٤ ، ص ٣٥٢ ـ ٣٥٣ .

٢٦ ـ نينا بيغوليفسكايا ، بيزنطة على طرق الهند، ص ١٣٢ .

٢٧ ـ نينا بيغوليفسكايا ، بيزنطة على طرق الهند، ص ١٣٣ .

٢٨ ـ نينا بيغوليفسكايا ، بيزنطة على طرق الهند، ص ١٣٣ .

29 — Cosmas, 119.

30 — C. Stornajolo, la Miniatura de la topografia Christiana, codex Vaticanus 699, Millano, 1908.

٣١ ـ ي.ي. سريزنفسكي ، معلومات وملاحظات حول المصادر المجهولة او المعروفة قليلا ،بطرسبورغ ١٨٦٧ ، ص ٥ .

٣٢ ـ نينا بيغوليفسكايا ، بيزنطة على طرق الند ، موسكو ١٩٥١ ، ص ٨٦ .

ـ هـ ـ

« صناعة الحرير وتجارته في مدن بلاد الشام »

33 — Procopius Caesarensis : Anecdota (Hitoria Arcana), Cap. 25, ed. Haury, Berlin, 1905, V. III. P. 115.

34 — Procopius, Anecdota, Cap. 25, P. 157.

٣٥ ـ نينا بيغوليفسكايا ، بيزنطة على طرق الهند، ص ٩٤ ـ ٩٥ .

٣٦ ـ نينابيغوليفسكايا ، بيزنطة على طرق الهند، ص ٩٥ .

* * *

صفحات من تاريخ الجمعيات في بلاد الشام
١٩٠٨ ـ ١٩١٨
حزب اللامركزية الإدارية العثماني

د . سهيلة الريماوي

الجامعة الاردنية

اولا : البعد التنظيمي الداخلي للحزب :

حزب اللامركزية الادارية العثماني ، تنظيم سياسي علني ، اقامه السوريون خارج سورية ، وبالتحديد في مصر أواخر سنة ١٩١٢ أو أوائل سنة ١٩١٣ ، ويرجع **التاريخ الاول ، استنادا الى وثيقة حصلت عليها من مكتبة محب الدين الخطيب في** القاهرة تحدد تاريخ ١٢ يناير « كانون الثاني » سنة ١٩١٣ يوم اجتماع اللجنة **العليا للحزب وانتخاب محب الدين الخطيب في هذه الجلسة مساعدا للسكرتارية ، اي سكرتيرا ثانيا (١) .**

وعلى العموم فان مسالة « التنظيم السياسي » ، على صعيدي النظرية والتطبيق هي واحدة من اهم المسائل التي تواجه الفكر والحركات السياسية المعاصرة في امم العالم كله ، وهي من اهم المسائل التي واجهت العرب العثمانيين بعد اعلان المشروطية سنة ١٩٠٨ .

واذا كانت ضرورة « التنظيم السياسي » امرا مسلما به ، ولم تثر كثيرا من النقاش او الجدل حولها عند العرب العثمانيين في مطلع القرن العشرين ، فمما لاشك فيه أن « صيغة » التنظيم السياسي ومقوماته ، أمور أثارت نقاشا واسعا وجدلا حادا بين الشبيبة العرب في الاستانة حول مسائل كثيرة منها : هل الاحزاب والحزبية هما الصيغة المثلى للتنظيم والنشاط السياسيين ؟ أم تراهما غير ذلك ؟

هل الاحزاب السرية ، أم الاحزاب العلنية ، أم الجمعيات القومية ، أم جمعيات الاخاء والائتلاف ، أفضل من غيرها في ذلك الوقت ؟

ما كيفية بناء الحزب ، وما مقومات هذا البناء ومهماته ، وصلاته بالمؤسسات السياسية والاجتماعية الاخرى في الدولة والمجتمع ؟

من هنا فان مواجهة مسألة التنظيم السياسي بصورة عامة وما تنطوي عليه بطبيعتها ، من مواجهة لمسألة الاحزاب والحزبية بصورة خاصة ، هي مسألة حية واجهتها امتنا بفكرها وحركتها مواجهة فعلية مباشرة ، منذ مطلع القرن العشرين حتى وقتنا الحاضر .

واذا كان حزب الاخاء العربي العثماني أول حزب علني تأسس بعد اعلان الدستور سنة ١٩٠٨ (٢) ، وجمعية العربية الفتاة والجمعية القحطانية من أوائل الجمعيات السرية التي اسسها العرب العثمانيون بعد الانقلاب ، فان حزب اللامركزية الادارية العثمانية هو في مقدمة الاحزاب العلنية التي اسسها السوريون خارج سورية ، وقد انتشر انتشاراً واسعا في بلاد الشام حيث تأسست له الفروع النشطة ، وبقي قائما من اواخر سنة ١٩١٢ وحتى سنة ١٩١٦ ، حيث قدم جمال باشا السفاح أكثر اعضائه شهداء على اعواد المشانق في هذه السنة .

نشاة حزب اللامركزية وظروف تأسيسه :

نشأ هذا الحزب اثر ضياع طرابلس الغرب ، وبعد ان أيقن العرب الشاميون المقيمون في القاهرة ، ان الامبراطورية العثمانية غير قادرة على حماية حدودها ، أو على تطبيق نظامها المركزي الاداري .

ويقول رشيد رضا احد مؤسسي الحزب :

« ان حزب اللامركزية كان يراد به خدمة الدولة والبلاد العربية معا . وكان سبب تأسيسه ما ذكر آنفا من سبب تأسيس الجمعية العربية وهو ما انذرت به الحرب البلقانية العثمانية من توقع زوال الدولة ، وقد كنا نعتقد ان الدولة لا يمكنها ان تعيش طويلا اذا أصرت على شكل حكومتها المركزي ، وتحكيم الترك في جميع شعوب الدولة »(٣) .

وقد تشكلت اول هيئة ادارية للحزب على الشكل التالي :

١ ــ الرئيس : رفيق العظم من دمشق

٢ ــ نائب الرئيس : اسكندر عمون من لبنان

٣ ــ امين السر : حقي العظم من دمشق

٤ ــ امين السر الثاني : محب الدين الخطيب من دمشق

٥ ــ امين السر الثاني : رشيد رضا من طرابلس لبنان

٦ ــ عضــو : د. شبلي شميل من لبنان

٧ ــ عضــو : سامي جريديني من لبنان

٨ ــ عضــو : داوود بركات رئيس تحرير صحيفة الاهرام بمصر(٤)

مبادىء حزب اللامركزية وأهدافه :

يتميز هذا الحزب بأنه صاغ مبادئه واهدافه في وثيقة عنوانها : « بيان الحزب وبرنامجه السياسي »(٥) . وهي وثيقة مفصلة تفصيلا وافيا ، ترقى الى مستوى دساتير الاحزاب الحديثة . والسبب في هذا التفصيل الواضح ، ان هذا الحزب كان يتمتع بعدة صفات أهمها : انه كان حزبا علنيا ، ويتكون من سياسيين مجربين ، ثم انه حزب نشأ في مصر حيث كان مستوى الفكر والوعي السياسي على درجة متقدمة، كما انه كان بعيداً عن مركز الدولة العثمانية .

أما الجزء الاول من هذه الوثيقة وهو : « بيان الحزب » ففيه محاولة لعرض ما يمكن تسميته « فلسفة الحزب » أو « نظريته السياسية » وتحليل لاوضاع الامبراطورية العثمانية الواقعية ، لينتهي من ذلك الى تأكيد اللامركزية الادارية كحل ضروري لما كانت عليه تلك الاوضاع من صراع وتخلف وما تنطوي عليه بالنسبة للدولة العثمانية وشعوبها من مخاطر .

أما البرنامج المرفق بالبيان ، فهو في حقيقته « دستور مقترح » لنظام اللامركزية الادارية التي يطالب بها الحزب(٦) . ويتألف هذا البرنامج من (١٦) مادة ، تحتوي على المبادىء الدستورية الاساسية ، ويمكن ان نوجزها على الشكل التالي :

أولا : التأكيد على وحدة الدولة العثمانية ، وعلى وحدة السيادة فيها .

ثانيا : اقامة مركزية ادارية محددة القسمات .

أما أهم مظاهر الوحدة السياسية للدولة العثمانية ، واهم مظاهر وحدة السيادة

فيها ، في برنامج الحزب ، فهي ان البرنامج يؤكد على ان السلطان هو رأس الدولة العثمانية الواحدة (أي الامبراطورية العثمانية) وانه هو الذي يعين الوالي وقاضي القضاة في ارجاء الامبراطورية .

ويشير البرنامج الى ان (مجلس المبعوثان والاعيان) هو المجلس التشريعي المركزي للامبراطورية العثمانية .

كما يشير البرنامج الى ان « النظارة المركزية » أي « الحكومة » هي التي تتولى شؤون التشريع العام والدفاع والخارجية والمالية العامة المشتركة .

اما بالنسبة للغة ، فيشير البرنامج الى ان اللغة التركية هي لغة رسمية في جميع الولايات التي تتألف منها الامبراطورية العثمانية ولكن « الى جانب لغاتها المحلية » .

أما مظاهر اللامركزية الادارية في برنامج الحزب فانها تبدو أساسا على الشكل التالي :

ان البرنامج يطالب بتكوين اربع مؤسسات محلية هي : أ ـ المجلس العمومي ، ب ـ مجلس الادارة ، جـ ـ مجلس المعارف ، د ـ مجلس الاوقاف .

وصلاحيات هذه المجالس وسلطاتها تحددها مواد البرنامج من المادة الخامسة وحتى المادة التاسعة على الشكل التالي :

صلاحيات المجلس العمومي .

صلاحيات مجلس ادارة الولاية .

صلاحيات المجالس الثلاثة الاخرى .

أما صلاحيات المجلس العمومي فهي المراقبة على حكومتها (والظاهر ان كلمة حكومة هنا تعني مجلس الادارة) ، والنظر في جميع شؤون الادارة المحلية ، من تقرير ميزانية الدولة ، وامور الامن العام ، والمعارف ، والنافعة ، والاوقاف ، والبلدية ، وتقرير ما يراه فيها وسن النظامات لها .

وأما ما كان من أمور النافعة ويتعلق من بعض الوجوه بالامور العسكرية أو السياسية الخارجية ، كسكك الحديد ، فيرفعها الى العاصمة .

وواضح مما تقدم ان هذا المجلس العمومي هو بمثابة برلمان للادارة المحلية يراقب حكومتها (أي مجلس ادارتها) كما يفعل البرلمان في الحكومة ، ويقر الموازنة ولكنه لا يضعها ، ويسن النظامات التي تقابل القوانين في أحوال المجالس النيابية .

أما صلاحيات مجلس ادارة الولاية ، فهي القيام بأعمال الحكومة الادارية وأهمها: وضع ميزانيتها واختيار جميع موظفيها .

واما صلاحيات المجالس الثلاثة الاخرى ، فهي ان يتولى كل مجلس منها ادارة الشؤون ووضع الموازنة في مجال اختصاصه .

ومن مظاهر تشابك المركزية باللامركزية في هذه الصلاحيات ما يلي :

أ ــ ان قرارات المجلس العمومي تكون نافذة ومعنى ذلك انها نافذة بدون حاجة الى تصديق من الوالي او من السلطان كما يفهم من النص .

ب ــ وجوب رفع رأي المجلس العمومي الذي يتصل بالنافعة ، والمتعلق من بعض الوجوه بالامور السياسية والعسكرية للسكك الحديدية ، الى العاصمة ، بعد ابداء رأيه. فقرار المجلس العمومي غير نافذ في هذه الامور ، مع ان اختيار مجلس ادارة الولاية للموظفين يحتاج الى تصديق من يمثل السلطة المركزية .

جـ ــ ان الشؤون المتعلقة بالخدمة العسكرية صيغت بطريقة توفق بين حاجات الدفاع المركزي وبين مقتضيات اللامركزية ، من حيث كون أهل كل ولاية يؤدون الخدمة العسكرية في ولايتهم ، ويكون عسكرها على أهبة الاستعداد للزود عنها زمن السلم ، وأما سوق الجنود في زمن الحرب فهو منوط بوزارة الحربية ، وحينئذ يجب على المجلس العمومي ان يختصر وسائل الدفاع عن الدولة .

وبالرغم من ان مجمل الصياغة اللفظية توكد اللامركزية الادارية في نطاق الوحدة السياسية ، الا أن في النصوص مرونة ، بل غموضا أحيانا ، يترك هامشا واسعا لاعطاء اللامركزية الادارية التي يتحدث عنها هذا البرنامج كثيرا من خصائص اللامركزية السياسية .

أما النظرية السياسية للحزب ، أو فلسفته ، كما تبدو في البيان ، فانها تقوم على تأكيد المبادىء التالية :

١ ـ ان غرض الامم الذي ترمي اليه في هذا الوجود انما هو الحياة . بمعناها الواسع ، الحياة الاجتماعية والحياة السياسية ، اي « ان يكون لها وجود اجتماعي راق ، ووجود سياسي ثابت » .

٢ ـ انه « من الضروري ان تسعى الامة لكلا الوجودين في منهجهما القويم الموصل الى الغاية ، وتعنى بهما جميعا ، ولا تقتصر مجهوداتها على بلوغ غاية احدهما دون الآخر » .

ورتبت هذه النظرية على المبدأين السالفين مبدأ ثالثا هو :

٣ ـ ان « القوانين الاجتماعية مهما كانت راقية قل أن تضمن الحياة لامة اذا لم تكن قائمة على أساس متين هو القوانين السياسية » .

واوضحت مضمون هذا المبدأ في تأكيد عدم جدوى القوانين الاجتماعية التي لا ترتكز على أساس متين من القوانين السياسية ، فبينت :

أ ـ « ومهما عنيت الحكومة بتنظيم قوانين الحياة الاجتماعية للامة وأكثرت من مشروعات الاصلاح في المملكة ، في التعليم والاقتصاد والادارة والقضاء ونحو ذلك ، فانها لا تخرج في هذا كله عن معنى الوصاية على محجور عليه لا يملك التصرف بشؤون حياته الخصوصية ليثبت لنفسه وجودا صحيحا بين الناس ويعمل لسعادته جهد العامل المجد » .

ب ـ « ولذا اصبح لهذا العهد شكل الحكومات التي تقوم به الحياة السياسية لكل امة من الامم وصار من المسلم بالبداهة ان وجود الامة السياسي والاجتماعي بين (مجاميع الانسان) الحية متوقف على شكل الحكومة فكلما كانت مشاركة الشعب للحكومة أكثر ، كان ذلك لدوام وجوده اضمن » .

وخلصت نظرية الحزب من ذلك كله الى صياغة مبدأ رابع هو :

٤ ـ « لهذا تكاد تكون سائر الحكومات التي للامم المستقلة اليوم دستورية شعبية لا شأن فيها لسلطة الافراد بل الشأن لعامة الامة ومشاركتها للحكومة في كل جليل وحقير من الشؤون العامة ، الا أنها تتفاوت في ذلك منازل ودرجات وتختلف في الشكل اختلافا روعي فيه الاجتهاد والنظر الى حالة الشعوب الاجتماعية والعرقية والقابلية والاستعداد » .

وبعد تأكيد المبادىء الاربعة المذكورة بالصورة المنطقية ، التي انتهت الى تأكيد أن أفضل شكل من اشكال الحكومات هو الشكل الدستوري ، يمضي بيان حزب اللامركزية الادارية فيؤكد ان « افضل اشكال الحكم الدستوري هو اللامركزية ، خصوصا في الممالك التي تعددت فيها العروق والمذاهب واللغات ، واختلفت العوائد والتقاليد والاخلاق ، فكان من المتعذر ان تساس بقانون واحد لم تراع فيه تلك الاحوال ، ولم ينظر معه في الحاجة والزمان والمكان » .

واعتمد بيان الحزب في تأكيد هذا المبدأ على التجربة ، وضرب مثلا حيا عليها بسويسرا والدولة العثمانية ، بعد ان اشار في وصف مقارن للفروق بين اوضاع التقدم والترقي القائمة في سويسرا التي تحكم باللامركزية ، وبين السلطنة العثمانية التي تحكم بالمركزية .

كما اعتمد في تأيد هذا المبدأ أيضا على تحليل تخطى فيه مجرد المقارنة بين الاوضاع التي تبرزها التجربة ، وانتهى منه الى ان اللامركزية تأبى بطبيعتها ان تكون تبعة الحكم مقصورة على أفراد قليلين تصدر عنهم القوة والعمل الى كل ناحية من انحاء المملكة فيكونوا « كالمحرك في آلة كبيرة جدا اذا اصابه عطب أو ضعف تعطلت أجزاء سائر الآلة عن العمل دون أن يكون لاي جزء من هذه الاجزاء قوة ذاتية يعمل بها لنفسه ودون أن يكون مسؤولا عن نتيجة وقوفه عن العمل » .

ومن البديهي أن الشعب غير المسؤول عن اي خطأ يصدر عن حكومته لا يشعر كل فرد منه بالتبعية فلا يهتم بالنتائج لخطأ الحكومة الا بعد الوقوع فيه . ذلك لانه يسير بارادة غيره لا سلطة له حتى على نفسه ، لانها محكوم عليها ان تسير في السبيل الذي يريده غيره وأن « خالف رغبته ومصلحته وهواه » .

ثم يبدأ البيان بتمجيد اللامركزية وضرورة تطبيقها بقوله :

« فاللامركزية توزع التبعة على أفراد الامة بمقدار ما تعطيهم من السيطرة على مصالح الوطن وبسبب ذلك تنزع عنهم ثوب الحياة الاتكالية ، حياة الاعتماد على غير النفس ، وتفسح أمام كل فرد مجال العمل الواسع في جهاد الحياة وتمهد للشعب بلوغ غايات المدنية والترقي والعمران من أقرب سبيل وفي وقت قصير والعكس بالعكس » .

وبعد أن توصل الحزب الى تأكيد المبادىء الخمسة المذكورة التي تكون عناصر

نظريته السياسية ، ووصف أوضاع الامبراطورية وحللها من نواحي التعليم والنافعة والادارة والدفاع ، انتهى الى تقرير موقف اجمله بقوله :

« وقد ظهر للعيان أن المملكة كلها عرضة لخطر الزوال بهذه الحكومة المركزية مهددة بفقد الاستقلال الذي يفديه كل عثماني بأعز شيء لديه وهو النفس ، ويتمنى كل شعب تظله راية الهلال بقاءه ليبقى عزيزا في وطنه أمينا من تسلط المغيرين عليه ».

ثم انتهى الى ان العلاج الوحيد لهذا الموقف انما هو في الاخذ « باللامركزية الادارية »

النظام الداخلي للحزب :

يبين لنا النظام الداخلي لحزب اللامركزية الادارية العثماني ، السمات الرئيسية التالية لهذا الحزب وهي :

١ ـ انه حزب علني ، فهو على حد نص المادة الثالثة : « ليس هذا الحزب خفيا وليس فيه ما يعد من الاسرار فهو ينشر مقصده المبني على المطالبة باللامركزية الواسعة جهرا وعلانية دون الخشية من أحد لاعتقاده يقينا ان الدولة لا تبقى في (العالم السياسي) الا اذا بنيت حكومتها على أساس اللامركزية الادارية » .

٢ ـ انه حزب يؤمن بالوسائل المشروعة ، فهو على حد نص المادة الثانية ينادي بعدة نقاط و ... « والمطالبة بكل الوسائل المشروعة بحكومة تؤسس على قواعد اللامركزية الادارية في جميع ولايات الدولة العثمانية » .

٣ ـ انه حزب عثماني التكوين ، فهو على حد نص المادة الرابعة يقول : « ان الدخول في حزب اللامركزية مباح لكل عثماني بلغ العشرين من العمر ، على شرط ان يكون اولا من المتمتعين بجميع الحقوق المدنية ، ثانيا : غير محكوم عليه بحكم مخل بالشرف ، ثالثا : غير معروف بسوء السيرة ، رابعا : ان يقبل القواعد المبينة في برنامج الحزب » .

هذا على الرغم من انه لم ينتسب الى هذا الحزب في الواقع الا اعضاء من العرب. ويقدم لنا القانون الداخلي لهذا الحزب (أي النظام الداخلي أو اللائحة بالمصطلحات الحديثة) نموذجا طيبا من ناحية الشكل . فالتطبيق موضوع اخر لنظام داخلي يقوم على ما يسمى اليوم نظرية « الديموقراطية المركزية » في تكوين الاحزاب .

ويتضح ذلك من خلال النقاط التالية :

النقطة الاولى : تحديد واجبات الاعضاء وحقوقهم على الشكل التالي :

١ ــ انه لا يجوز الجمع بين عضوية الحزب وعضوية حزب آخر يخالفه في المادة والغاية (م ٥) .

٢ ــ ان من اهم واجبات العضو ان يدفع الى الفرع المسجل فيه راتبا شهريا (اي اشتراكا شهريا) اقله قرشان . ويعفى الفقراء من هذا الراتب .

٣ ــ ان من اهم واجبات اعضاء الحزب من المبعوثين ان يسعوا بكل ما في وسعهم لتنفيذ قواعد الحزب في المجلس .

٤ ــ انه وان كان لا يقيد الحزب اعضاءه بشيء غير قواعد برنامجه السياسي الذي وضع لاجله (م ٨) فانه لا يسوغ لاحد المنتمين اليه مراجعة الحكومة باسم الحزب من تلقاء نفسه . واذا ثبت على احد الاعضاء مثل هذا السلوك يمحى اسمه من سجل الحزب (م ١٠) .

وواضح من هذا القيد انه يحرم على غير الجهة المختصة في الحزب ، او من تكلفه بذلك ، ان يراجع الحكومة باسم الحزب ، وهذه مسألة انضباطية على غاية من الاهمية ، تحمى الحزب من استغلال اسمه او توريطه ، والتاكيد عليها يشير الى الاحتمالات الكبيرة لوقوع مثل هذا التجاوز بسبب طبيعة الاوضاع السياسية من جهة ، ولكون الحزب يضم بطبيعته كثيرا من السياسيين الموجودين في الاستانة .

واعطى الحزب اهمية لهذه المسالة ليس بالنص على خطرها فحسب وانما بفرض اقصى عقوبة حزبية ممكنة على العضو ، وهي محو اسمه من سجل الحزب .

النقطة الثانية : تحديد صلاحيات اللجان والهيئات التنفيذية وبناء علاقاتها مع بعضها ، ومع القاعدة الحزبية على الشكل التالي :

١ ــ القاعدة تنتخب القيادة على المستويات المختلفة .

٢ ــ والقاعدة ترسم السياسة لفترة مقبلة .

٣ ــ والقاعدة تحاسب القيادة على تنفيذ السياسة .

٤ ـ اما المراكز القيادية في الهيئات القيادية بمختلف مستوياتها ، فتملأ بالانتخابات وبطريقة الاقتراع السري .

٥ ـ والهيئات الدنيا حرة في نطاق اختصاصها المحلي ، وكذلك الهيئات العليا في نطاق اختصاصها الاعلى .

٦ ـ القيادات مسؤولة امام الهيئات التي تنتخبها . وهي مطالبة بأن تقدم لها تقارير دورية عن كل شؤون الحزب ونشاطاته في كافة المجالات .

٧ ـ الانضباط في نطاق المبادىء المذكورة اعلاه .
ويبدو تطبيق هذه المبادىء ، التي هي جوهر مضمون نظرية (الديموقراطية المركزية) في تكوين الاحزاب ونظمها الداخلية ، على الشكل التالي :

١ ـ كل عضو في فرع هو عضو في مؤتمر هذا الفرع (مادة ١٥) .

٢ ـ في كل فرع لجنة ادارية تتألف من ٢٠ عضوا ينتخبها مؤتمر الفرع .

٣ ـ كل لجنة ادارية تنتخب رئيسها وسكرتيرها وامين صندوقها .

٤ ـ يعقد كل فرع مؤتمرا فرعيا محليا سنويا يحضره جميع أعضاء الفرع ، كما تعقد اللجنة مؤتمرا حزبيا عاما سنويا في القاهرة يحضره أعضاء اللجنة العليا واعضاء الحزب في المركز العام ، ومندوبون عن اللجان الفرعية جميعها .

٥ ـ لا تعد مذكرات اللجان ، ولا قراراتها ، قانونية ، الا اذا حضر اجتماعها نصف اعضائها على الاقل . اما اذا تكررت الدعوة فيكون الحاضرون حينئذ نصابا قانونيا

٦ ـ المؤتمر العام للحزب هو السلطة العليا فيه . ويبدو تأكيد هذا المبدأ في الاسس التالية ، التي أفرد لها فصل خاص في نظام الحزب هو الفصل السابع ، ويشير الى النقاط التالية :

اختصاص المؤتمر العام بالاطلاع على بيان اللجنة العليا عن أعمال الحزب في السنة الماضية ، ورؤية حساباتها ، والتصديق عليها ، والمذاكرة في كل ما يرفع اليه من أعمال السنة المقبلة وتقريرها . واللجنة العليا مكلفة ان تهيء لائحة عامة (المقصود تقريرا عاما) عن الحزب واحواله بناء على ما يردها من اللوائح والكشوف من لجان الفروع ، وترفعها الى المؤتمر العام .

انفراده بحق اقرار اي تغيير او تبديل في برنامج الحزب السياسي الاساسي ، وتقييد هذا الحق بأن لا يتم التغيير الا بطلب تحريري من اللجنة العليا أو لجنة من لجان الفروع « وان يكون ذلك بأغلبية اراء المؤتمر » .

سيادة قراراته بالنسبة لجميع لجان الحزب ، بحيث يكون على اللجنة العليا ولجان الفروع تنفيذ ما يقرره المؤتمر العام كل منها فيما يخصه .

ماليـة الحـزب :

اما مالية الحزب فقد نظمت في الفصل السابع من نظامه الداخلي تنظيما متكاملا وسليما يقوم على الاسس التالية :

١ ـ تتألف اموال الحزب من التبرعات والاشتراكات . وتطالب اللجان الادارية بالاجتهاد في اتخاذ الوسائل الشريفة ليكثر ماله .

٢ ـ كل ما يقبض من المال باسم الحزب يجب ان يعطى به وصل مطبوع من دفتر قسيمة موقع عليه من الرئيس وأمين الصندوق والمستلم .

٣ ـ تودع اموال الحزب في أحد المصارف (البنوك) الموثوق بها باسم الرئيس والسكرتير وامين الصندوق ، ويسحب ما يسحب منها بامضاءاتهم جميعا (اي بعد أن يوقع عليها الجميع) .

٤ ـ لا يجوز ان يصرف شيء من مال الحزب في لجنة من لجانه الا بقرار من ادارة هـذه اللجنـة .

٥ ـ يجوز ان يكون في يد امين الصندوق مبلغ لا يزيد عن الف قرش لاجل النفقات العارضـة .

واذا ما ضربنا صفحا عن متابعة التطبيق الفعلي لهذا النظام في مبادئه ونصوصه، بسبب استحالة هذه المتابعة من الناحية الواقعية ، فمما لا شك فيه ان هذا النظام بمبادئه ونصوصه يشير الى تصور متقدم ومتطور لمعالم البعد التنظيمي الداخلي بالنسبة لحزب علني شرعي ، تفوق المبادىء والنصوص التي قام عليها أي تنظيم حزبي سابق من التنظيمات العلنية التي تشكلت منذ سنة ١٩٠٨ حتى نهاية الحرب العالمية الاولى ، بل يكاد يفوق المبادىء والنصوص التي قامت عليها الاحزاب في الوطن العربي في مراحـل لاحقـة .

وقد وجدت في مكتبة السيد محب الدين الخطيب ، السكرتير الثاني للحزب ، بعض الوثائق ، وتدل على مدى انتشار حزب اللامركزية وفروعه في اركان الامبراطورية العثمانية ، وتشتمل هذه الوثائق على دعوات لحضور جلسات المجلس وعلى بطاقة اعتماد اي طلب انتساب ، وعلى طلبات استقالة(٧) ، مما يؤكد لنا أن حزب اللامركزية يضارع في تنظيمه الاحزاب الحديثة ، وربما فاقها . وقد قام بدور فعال في تسيير الحياة الحزبية والسياسية في سورية قبل الحرب وحتى ١٩١٦ ، وانتهى اثر المشانق التي نصبها جمال باشا السفاح للاحرار العرب في تلك السنة ، كان بعض هؤلاءالشهداء مـن حزب اللامركزية .

ثانيا ـ البعد الحركي او الحياة الحزبية العامة لحزب اللامركزية :

يمكننا القول ان الاعداد لعقد المؤتمر العربي الاول في باريس سنة ١٩١٣ ، كان من ابرز المجالات التي ظهرت فيها الحياة الحزبية العربية بشكل عام ، وفعاليات حزب اللامركزية بشكل خـاص .

فقد كانت الاحزاب العربية في الامبراطورية العثمانية ، قبل انعقاد المؤتمر هي : جمعية العربية الفتاة (السرية) ، وقد لعبت دورها في المؤتمر من وراء ستار ، وحزب اللامركزية (العلني) الذي كان في بدء تشكيله ، ولكنه لعب الدور الاول في المؤتمر ، ثم الجمعيات الاصلاحية في بيروت ودمشق والبصرة وغيرها .

وقد جاءت المبادرة في هذه الاتصالات بين الاحزاب من قبل جمعية العربية الفتاة ، عندما وجه عبد الغني العريسي ، وهو من مؤسسي الجمعية ، رسالة الى صديقه محب الدين الخطيب عضو حزب اللامركزية في مصر ، يدعوه فيها للانتساب الى جمعية الفتاة العربية(٨) ، وعندما تم له ذلك طلب من محب الدين الخطيب ان يقنع حزبه بالاتصال باعضاء الحركة الاصلاحية القائمة في بيروت والتي تأسست في السنة التي بدىء بها تأسيس حزب اللامركزية . وقد تمكن محب الدين الخطيب من القيام بهذه المهمة ، فأرسل حزب اللامركزية برنامج الحزب الى بيروت مع عبد الكريم الخليل رئيس المنتدى الادبي فيالاستانة ، واقترح اعضاء حزب اللامركزية ان يكون الاصلاح لجميع الولايات السورية ، بدلا من طلب الاصلاح لولاية بيروت فقط .. ثم شرح اعضاء اللامركزية غايتهم من هذا الاتصال بقولهم : « حتى نكون يدا واحدة في العمل والمطالبة بتحقيق مبادىء الحزب » ثم طلبوا أن تكون المكاتبات مع حزب اللامركزية عن طريق حقي العظم احد كتاب السر في الحزب (٩) .

وعندما قام والي بيروت الاتحادي بمصادرة محتويات مكاتب اللجنة الاصلاحية واغلاق صحفها ومكاتبها ، لم يسع حزب اللامركزية السكوت على اعمال الوالي ، فارسل الى الصدر الاعظم برقية احتجاج جاء فيها : « مصادرة والي بيروت لجمعيتها الاصلاحية في عملها القانوني استبداد منكر ، مضيع لآمال الامة ، موجب للتقاطع بين الهيئتين ، تداركوا سوء العاقبة بعزل الوالي ونقض عمله ولا تسنوا للشعب سنة سيئة بمخالفة القوانين »(١٠) .

المؤتمر العربي الاول في باريس :

وعندما تباطأت حكومة الاتحاديين بتنفيذ بنود اللائحة الاصلاحية لمدينة بيروت وغيرها من المدن ، بادر اعضاء جمعية العربية الفتاة بالاتصال باعضاء حزب اللامركزية في مصر عن طريق العضو محب الدين الخطيب . ولا نود الخوض في تتبع المراحل التي مر بها المؤتمر فهناك دراسات كثيرة حول هذا الموضوع اهمها الدراسة الصادرة عن اللجنة العليا لحزب اللامركزية في مصر(١١) ، ولكننا سنبرز الدور الذي لعبه حزب اللامركزية في المؤتمر .

لقد تمكن محب الدين الخطيب من أن يصبح صلة الوصل بين جمعية العربية الفتاة ، التي دعت الى عقد المؤتمر ، وبين أعضاء حزب اللامركزية ، وذلك بعد ان انتسب الى الجمعية واصبح عضوا في التنظيمين الحزبيين ، وتمكن من موقعه هذا من ان يعمل بنجاح لتبني حزب اللامركزية لمؤتمر باريس تبنيا كاملا (١٢) .

وفي جلسة لجنة المؤتمر المنعقدة يوم الثلاثاء الموافق ١٩١٣/٣/١١ تقرر أن ترتبط هذه اللجنة بحزب اللامركزية في مصر بصفة رسمية ، وفي جلسة ١٩١٣/٤/٤ قررت لجنة المؤتمر ان ترسل كتابا الى اللجنة العليا لحزب اللامركزية في القاهرة تعرض عليها فيه ان تكون لجنة الحزب هي المسؤولة عن المؤتمر ، وأن تعهد برئاسته الى أحد ممثلي حزب اللامركزية(١٣) .

وقد تلقت اللجنة التحضيرية للمؤتمر جوابا من اللجنة العليا لحزب اللامركزية مؤرخا في ١٤ نيسان (ابريل) سنة ١٩١٣ ، توافق فيه على تبني المؤتمر ، وذلك بعد أن اقرت اللجنة العليا للحزب في جلستها المنعقدة يوم الجمعة ١١ نيسان ، «قبول اقتراح لجنة المؤتمر وتعيين وفد يمثل اللجنة العليا لحزب اللامركزية هناك»(١٤) .

كما أقرت لجنة الحزب ارسال مندوبين من قبلها لحضور المؤتمر ، على ان يكون

لهم حق النظر والمشاركة في موضوعات المؤتمر « حتى تكون موافقة لمبادىء الحزب وبرنامجه »(١٥) .

على ضوء هذا الرد ، حددت لجنة المؤتمر « المسائل التي ستكون اساس المذاكرات » على الشكل التالي :

١ ــ الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال
٢ ــ حقوق العرب في المملكة العثمانية
٣ ــ ضرورة الاصلاح على قاعدة اللامركزية
٤ ــ المهاجرة من سورية والى سورية .

وقد توالت برقيات التأييد ، السري والعلني ، على لجنة المؤتمر وحزب اللامركزية من الجمعيات الاصلاحية في بيروت وغيرها ، كما ايدته الجمعيات العربية في المهجر ، وقامت الصحف العربية بحملة تأييد وتوعية جماهيرية ، تعرضت فيها الى ضرورة وجود حزب اللامركزية في البلاد وضرورة تطبيق اللامركزية : « لان المركزية هي قوام حياة العرب وانهم شركاء في هذه المملكة بل هم الاكثرية المطلقة فيها »(١٦) .

وبدأت الوفود تتوالى على باريس وكان في مقدمتها حزب اللامركزية الاداري الذي يمثله السيد عبد الحميد الزهراوي عن اللجنة العليا للحزب (وهو مبعوث حماه سابقا ، وصاحب جريدة الحضارة في القسطنطينية) واسكندر بك عمون ، وهو وكيل رئيس اللجنة العليا للحزب ، ويعمل بالمحاماة في مصر(١٧) .

وقد استلم رئاسة المؤتمر الشيخ عبد الحميد الزهراوي ، في حين القى كلمة الحزب اسكندر عمون ، فركز على اهمية مبدأ اللامركزية وضرورة تطبيقه كعلاج لاوضاع الامبراطورية وحل لمطالب العرب . واسس هذا المبدأ على الحقوق القومية بصورة عامة(١٨) .

وقد اتخذت قرارات المؤتمر في الجلسة الختامية التي عقدت يوم ٢١ حزيران سنة ١٩١٣(١٩) ، وعددها ١١ مادة ، ونص الملحق على انه : ستكون هذه المقررات برنامجا سياسيا للعرب العثمانيين ولا يمكن مساعدة أي مرشح في الانتخابات التشريعية الا اذا تعهد مسبقا بتأييد هذا البرنامج وطلب تنفيذه . وقد وضع المؤتمر قيدا على الزعماء العرب ، وعلى الاخص على رجال الاحزاب منهم ، بشأن عدم قبول المناصب في الدولة العثمانية .

وبالرغم من ان المؤتمر خرج بنتائج عامة ، مثل توحيد نشاط الاحزاب والمنظمات

العربية الكبرى في الوطن والمهجر ، وبيّن ضرورة تمسك العرب بالدولة العثمانية مع مطالبتها بتطبيق اللامركزية ومشاركة العرب للترك في الحكم ، وضرورة التعليم باللغة العربية ، الا أن حزب اللامركزية حقق نتائج خاصة به ، اهمها انه بدأ يلعب الدور الاساسي العلني في ذلك العمل الجبهوي ، اذا صح التعبير ، وهو الحزب الحديث التأسيس ، وينتشر انتشارا سريعا ويؤسس له الفروع في ارجاء الامبراطورية(٢٠) . وهكذا كسب الى صفه الجماهير الشعبية وسيطر على الساحة الشعبية ايضا .

اتفاقية (باريس الحزبية) وتصدع جبهة المؤتمر بقيادة حزب اللامركزية :

كان حزب الاتحاد والترقي قد اوفد امين سره مدحت شكري الى باريس ليكون على مقربة من المؤتمر العربي ، وفوضه بان يسعى لعقد اتفاق بين حزبه وبين الاحزاب العربية الممثلة في المؤتمر وفقا لمسودة اتفاق كانت قد وضعت اثر مفاوضات جرت في الاستانة بين ممثلي الشبيبة العرب برئاسة عبد الكريم الخليل في العاصمة العثمانية ، وبين حزب الاتحاد والترقي الحاكم .

وقد تم التوصل فعلا في باريس الى اتفاق وقع عليه السيد عبدالحميد الزهراوي رئيس المؤتمر بالنيابة عن المؤتمر العربي ، ومدحت شكري بالنيابة عن جمعية الاتحاد والترقي . وهو اتفاق يعرف باسم (اتفاقية باريس)(٢١) . وقد جاءت هذه الاتفاقية بشكل يعدل مشروع اتفاق الاستانة المذكور ، ولكنه يقصر تقصيرا واضحا عن تحقيق المطالب العربية الواردة في مقررات المؤتمر اذا ما قورنت بنودها بمقررات المؤتمر العربي(٢٢) . وعلى اثر ذلك عاد عبد الكريم الخليل الى الاستانة برفقة مدحت شكري لعرض الاتفاق على اللجنة المركزية لحزب الاتحاد والترقي وحكومته ، وبقي رئيس المؤتمر عبد الحميد الزهراوي مع عدد من المندوبين في باريس كهيئة متابعة تنتظر نتائج مباحثات عبد الكريم الخليل في الاستانة ، وتتأهب للاشتراك في تنفيذ الاتفاق اذا ما أقره الاتحاديون .

ومن منطلق ضرب الاحزاب والقيادات العربية المؤتلفة في المؤتمر العربي الاول وتفتيتها « وافق المركز العام لحزب الاتحاد والترقي على الاتفاقية » ووقعها وزير الداخلية عن الحزب طلعت باشا ، كما وقعها عبد الكريم الخليل رئيس الشبيبة العرب عن المؤتمر ، واتفق الفريقان ، بطلب من الاتحاد والترقي ، أن تبقى الاتفاقية سرية حتى يتم تنفيذها(٢٣) .

ومما لا شك فيه ان الاتفاق على هذه السرية كان عملية خبيثة اراد بها

الاتحاديون عدة اغراض ، ابرزها تفتيت جبهة باريس الحزبية التي تحققت بعقد المؤتمر العربي الاول .

وحدث حادث ليس في الحسبان قام به حزب اللامركزية دون قصد . فقد أعلن رفيق العظم رئيس الحزب شروط الاتفاقية بعد اكثر من شهر على توقيعها ، بنتيجة التباس صنعته وكالة رويتر الانكليزية ، عندما اعلنت ان الباب العالي قد وافق على الاتفاقية ، فثار الاتحاديون ، وذهبت جريدة (طنين) التركية الى درجة انكار وجود الاتفاق وانكار ان سفر مدحت شكري الى باريس كان من أجل التفاوض مع رجال المؤتمر العربي . وتطور الامر الى درجة التهجم القاسي على المؤتمر وأحزابه ورجاله ومقرراته .

وعندما قررت حكومة الاتحاد والترقي تنفيذ (الاصلاح) واستصدرت ارادة سنية بذلك ، فضحت حقيقة سياستها ونواياها . فقد جاءت الارادة السنية مسخا للاتفاق وتشويها له في اكثرية بنوده ، وتراجعا تاما عن اهم هذه البنود ، وهو البند الثاني عشر ، الذي يقضي بأن تكون المعاملات الرسمية في البلادالعربيةباللغة العربية .

بدء تفتت الجبهة الحزبية العربية :

لقد تمكن الاتحاديون من اشاعة التفرقة في صفوف الجبهة العربية ، كما انهم تمكنوا ايضا من أن يحرجوا ، بصفة خاصة ، حزب اللامركزية ، الحزب العلني القائد في المؤتمر ، خاصة بعد ان رضي عبد الكريم الخليل بخطوات الاتحاديين وبالارادة السنية التي اصدروها ، وفتح بانشقاقه ثغرة من موقف الجبهة العربية . وزاد الامر سوءا عندما التف حول عبد الكريم الخليل الكثير من الانتهازيين وطلاب الوظائف في الاستانة . وبالرغم من أن أعضاء الوفد الذي ذهب الى الاستانة لمتابعة اقرار بنود مؤتمر باريس اقتنعوا بأن الحكومة تماطل العرب وانها لن تحقق شيئا من هذه البنود(٢٤) ، لم يقنط رئيس الشبيبة العربية في الاستانة عبد الكريم الخليل من الاتحاديين وبقي يتفاوض معهم ويثق بهم ، وزاد فأخذ يحاول اقناع عبد الحميد الزهراوي في التوجه الى الاستانة .

بقي الزهراوي مدة خمسة اشهر في باريس بعد ان عاد وفد المتابعة الى بيروت عن طريق استامبول ، وبقي معه خليل زينية وايوب ثابت ، وعندما ارسل له عبد الكريم الخليل برقية يدعوه فيها الى الاستانة استأذن حزب اللامركزية في مصر ، وكان الزهراوي مدة اقامته في باريس ، ايام المؤتمر وبعدها ، يكاتب الحزب ويعمل

برايه ، فخيره الحزب بين مصر والاستانة . وكان هو يفضل السفر الى الاستانة في حين كان الحزب يفضل حضوره الى مصر(٢٥) . ووصل الزهراوي عاصمة الامبراطورية في ١٩١٣/١٠/٢٨ فاستقبلته الشبيبة العربية في المحطة بالهتاف فليحي الاصلاح فليحي زعماء العرب ولتحي الامة العربية »(٢٦) ، وفي ١٠/٣٠ من العام نفسه بدأت مفاوضات الزهراوي بصورة رسمية مع مدحت شكري سكرتير جمعية الاتحاد والترقي ، ولكن لم يمض اسبوع ونصف على بدء المفاوضات حتى ادرك الزهراوي تسويف الاتحاديين ومماطلتهم لتحقيق الاتفاقية ، فحاول العودة الى مصر ولكن عبد الكريم الخليل وأصدقاءه الحوا عليه بالبقاء ، فما كان منه الا ان اعرب عن استيائه وتشككه بسياسة الاتحاديين لمحرري احدى الصحف بحديث وقع عليه بخط يده وطلب نشره .

وأهم ما جاء في هذا الحديث تأكيد الزهراوي على ان الحكومة تعده وعودا لا تختلف عن الوعود التي تعطيها لغيره من المصلحين ويقول : « ولكن ما فائدة الوعود ونحن نريد أعمالا لا أقوالا » . وعندما سأله مندوب الصحيفة ولكن « ما هو السبب في مماطلة الحكومة ؟ » قال : « اظن السبب الخلاف القائم بين أعضاء جمعية الاتحاد والترقي ، فان فريقا من أعضائها يؤيد مطالبنا وفريقا يرفضها »(٢٧) .

الا ان حكومة الاتحاديين تمكنت في نهاية المطاف من اقناع عبد الحميد الزهراوي بانها في الطريق الى اقامة مدرستين سلطانيتين (ثانويتين) في دمشق وبيروت اساتذتهما من العرب ، وجعل اللغة العربية رسمية في المحاكم والدواوين العربية ، اما بقية البنود فستتحقق بعد توافر المال اللازم . زيادة على ذلك صدرت الارادة السنية ١٩١٤/١/٤ بتعيين سبعة من العرب أعضاء في مجلس الاعيان ، كان الزهراوي هو الوحيد بينهم من دعاة اللامركزية في حين كان ثلاثة من الاتحاديين ، والثلاثة الاخرون من الحياديين(٢٨) .

بيان حزب اللامركزية بتاريخ ١٩١٣/١٠/٩ :

أصدر حزب اللامركزية بيانا بعد وصول الزهراوي الى الاستانة بيوم واحد . وكانت الاسباب التي دعت الحزب لاصدار البيان هي النتائج غير المشجعة التي استخلصها وفد المتابعة الذي زار الاستانة . وكان حزب اللامركزية يشعر بأن (اتفاقية باريس) مقصرة عن مطالب المؤتمر وعن مبادئه كحزب كذلك ، ولكنه وافق على توقيعها .

ولذلك فان البيان الذي أصدره كان يعبر عن موقف الحزب ، وتبرز فيه معاني الدفاع عن النفس ، والتمسك بمقررات مؤتمر باريس ، والاعتدال في معالجة موقف المنشقين ، وعلى الاخص عبد الحميد الزهراوي الذي كان الحزب قد رشحه لرئاسة المؤتمر ونصبه رئيسا له(٢٩) .

واهم ما نستخلصه من هذا البيان ، ان الحزب لن يرسل وفدا الى الاستانة الا اذا تحقق له أمران :

الاول : ان توافق الحكومة على الاتفاقية وتطبقها بالحرف .

والثاني : ان تطرح قضية اللامركزية على الامة لابداء رأيها ، بأن تصادق على منهاج الحزب عامة .

ولقد بقي حزب اللامركزية منسجما مع بيانه المذكور في موقفه تجاه تنفيذ مقررات المؤتمر العربي الاول والاتفاقية ، فلم يستجب لطلب عبد الكريم الخليل بارسال وفد من اعضائه للاشتراك في مباحثات تنفيذ الاصلاح ، كما لم يستجب بعد ذلك لطلب الخليل ، والزهراوي ، الذي أصبح عضوا في مجلس الاعيان ، بان يرسل رئيسه رفيق العظم ، وعضو اللجنة المركزية للحزب السيد رشيد رضا الى الاستانة لمتابعة خطة الاصلاح ، التي رأى الخليل والزهراوي بوادرها في تعيين العرب السبعة في مجلس الاعيان ، بل ان الشيخ رشيد رضا يقول ، تجاه تعيين الزهراوي وتجاه هذه الدعوة « أما أنا فكان يغلب على ظني ان جعله من الاعيان احبولة يريدون بها اصطياد المخلصين من طلاب الاصلاح في خارج المملكة ليفتكوا بهم بعد جلبهم اليهم جملة واحدة »(٣٠) . وهو رأي لم تلبث الاحداث ان أكدت صحته خلال الحرب العالمية الاولى .

وبرر الحزب موقفه من عبد الحميد الزهراوي بأن « الحزب يرغب في الاصلاح ويرفض المشاغبة وعداوة الدولة » . كما ان الحزب رأى أن « تظل الصلة وثيقة بين الطرفين (أي الزهراوي والحزب) لثقة الحزب به وباخلاصه في العمل لمصلحة الامة ، ولانه خير من يوقف الحزب على أعمال الحكومة »(٣١) .

وفي مكان آخر يشير رشيد رضا الى ان الزهراوي : « قبل منصب الاعيان بتلك النية الصالحة من غير مشاورة للحزب ولا لاحد من اصدقائه وانه اخبرنا بما كان وبنيته فيه ، فلمناه على تعجله ، ولكن الحزب أجاز عمله ، واتفق الرأي على ان يمضي في هذه التجربة وان لاينضم اليه أحد من المقيمين خارج المملكة »(٣٢) .

ومهما كانت نوايا الزهراوي الصالحة ، التي يتحدث عنها الشيخ رشيد رضا في الفقرة السابقة ، فان اجازة الحزب لتصرفه ، وموافقته على المضي في التجربة التي بدأها الزهراوي ، كان موقفا من الحزب يبلغ في مرونته حد الاستهتار بالمؤتمر وبمقرراته ، التي كان أهمها القيد الذي وضعه المؤتمر على قبول المناصب .

والحقيقة ان حزب اللامركزية فشل في فرض (الانضباط) على صديقه الحميم عبد الحميد الزهراوي ، الذي رشحه لرئاسة مؤتمر باريس ، بل اجاز عدم الانضباط هذا فأسهم بذلك اسهاما فعليا في الاساءة الى قيمة المؤتمر المعنوية ، وفي زعزعة الثقة التي قامت بين الاحزاب والجمعيات المشتركة فيه ، حتى ان بعضها اتهم الحزب نفسه بالتواطؤ مع الاتراك وتمييع القضية ، ودفع الحزب والقضية ثمنا باهظا لهذا الفشل ، وكان أول من حمل حزب اللامركزية مسؤولية تمييع قرارات المؤتمر ، جمعيات المهجر ، خصوصا جمعية الاتحاد السوري في امريكا ، التي أرسلت كتابا مؤرخا في ١٩١٤/٢/١٩ الى حزب اللامركزية تشرح فيه وجهة نظرها(٣٣) وتحمل الحزب مسؤولية تهاون رئيس المؤتمر أمام اغراء الوظائف . وتشير الى أن حزب اللامركزية قد تراجع امام اغراء المناصب .

تصدعات حزب اللامركزية :

قرر اعضاء حزب اللامركزية عقد جلسة للرد على جمعية الاتحاد السوري ، ليبينوا تطورات الامور وموقف الزهراوي الاخير . ولكن السكرتير حقي العظم رفض ان يبرىء ساحة الزهراوي ، واخذ يشنع عليه ويصفه بالاوصاف التي لا تليق بمركزه وتبني الحزب لـه .

ولكن الحزب ، رغم معارضة سكرتيره ، ارسل جوابا لجمعية الاتحاد السوري يشرح فيه موقف الزهراوي ، وموقف الحزب ، وان تعيين الزهراوي في مجلس الاعيان ارتضته اللجنة العليا لحزب اللامركزية لدوام التفاهم بينها وبين الحكومة .. واكد الحزب في جوابه بأن الحزب مازال المطالب بالاصلاح ، والحزب الامين على تحقيق مبادئه حتى النهاية .

في هذه الاثناء ، كانت حكومة الاتحاديين قد القت القبض على الزعيم العربي عزيز علي المصري ، رئيس حزب العهد السري ، وتركزت جهود العرب عموما حول هذه الازمة ، ولكن الاتحاديين اصدروا حكمهم على بطل برقة بالاعدام ، ثم افرج عنه امام الضغط العربي العام(٣٤) .

والمهم في حادثة عزيز المصري ان الزهراوي كان يهاجم العسكريين عموما ، وخصوصا عزيز المصري وموقفه من الزهراوي والخليل(٣٥)، وبالتالي كانت الازمة وسوء التفاهم قد انتقلت الى حزب اللامركزية نفسه ، ففي حين ايد اعضاء الحزب موقف الزهراوي ، ايد حقي العظم ، امين سر الحزب ، موقف عزيز علي المصري .

وهكذا بدات التصدعات تتسرب الى التنظيم الداخلي لحزب اللامركزية نفسه . وعلى الرغم من وقوف جميع أعضاء الحزب الى جانب عزيز المصري ومساهمة الحزب، كما تدل الوثائق ، في قيادة المظاهرات والدعوة للاجتماعات التي نادت بتخفيف الحكم، وطالبت بالافراج عن المصري ... الا أن التصدع كان قد بدأ في حزب اللامركزية وانتهى الى ازمة حزبية كادت تؤدي الى حل الحزب وتشتت اعضائه .

ازمة حزب اللامركزية :

يشير محب الدين الخطيب في مذكراته « سيرة جيل »(٣٦) ان رشيد رضا ورفيق العظم واكثرية الاعضاء قد تساهلوا في موقفهم من تصرف الزهراوي ، « بل واقروه عليه » في حين حمل حقي العظم لواء المعارضة واخذ يندد بالزهراوي في المجالس الخاصة والعامة . وكان يتفوه على الزهراوي بكلام لا يقباه « أي انسان وكنا نلومه على هذا الاسلوب الشنيع لشيخ جليل »(٣٧) . فقرر الحزب ان يستدعي الزهراوي من الاستانة وان يعقد جلسة لدراسة الموقف ، وخصوصا ان الحكومة بدات بمطاردة أعضاء الحزب وانصاره .

عقد الحزب جلسة في الساعة الخامسة والنصف من مساء يوم الجمعة الواقع في ١٩١٤/٤/٢٤ برئاسة رفيق العظم وحضور رشيد رضا ، ونجيب بسترس ، وحقي العظم وسليم عز الدين ، ونعمان أبو شعر ، وخليل ايوب ، والدكتور خليل مشاقة ، والدكتور عزت الجندي والسيد محب الدين الخطيب . وكادت الازمة ان تنفجر في هذه الجلسة لولا ان تداركها الشيخ رشيد رضا ، فقد ظهرت عدة آراء متضاربة حول الحزب وسياسته ، كان اولها اقتراح رئيس الحزب بحل اللجنة المركزية ، وهذا يؤدي بالتالي الى حل الحزب . ولكن محب الدين الخطيب احتج على هذا الاقتراح بقوله : « ان الحزب ليس هو اللجنة ، واذا شاءت اللجنة أن تتنحى ، فلتدع الجمعية العمومية وتعرض عليها استقالتها ليصير انتخاب غيرها أما اذا كان الراي حل الحزب كله ، فيلزم عرض الفكرة على الجمعية العمومية أيضا »(٣٨) .

وأما حقي العظم ، فكان رأيه أن الحزب لا يعمل ولذلك عليهم أن يضاعفوا من

نشاطهم وان يكتبوا المناشير ويوزعوها على الفروع حتى تشعر الجماهير بنشاط الحزب ويستعيد مكانته بعد موقفه من الزهراوي وتهاونه في ملاحقة قرارات المؤتمر . وكان رأيه اما أن نعمل وننشط او نحل الحزب .

وعندها تقدم الشيخ رشيد رضا باقتراح لحل الازمة ، وملخصه : « عقد مؤتمر للحزب وفروعه » وان يكتب المركز بذلك الى الفروع قائلا « نسألهم عن المؤتمر وهل نعجل به أم نؤخره وهل يشتركون معنا أم لا » .

ثم قال معللا اقتراحه بعقد المؤتمر ، ان الحكومة ستخفف من شدتها ، وخصوصا بعد حركة عزيز المصري وكيف اثرت هذه الحركة عند الحكومة ، وانها ستحسن الحال بين الحكومة والحزب ، كما ان المؤتمر بهذا الوقت « يجعل للحزب رونقا واهمية » وخصوصا ان الحزب استدعى الزهراوي للمفاوضات في الحالة الحاضرة .. « فالمؤتمر يؤكد عمل الحزب ، وعندها ننفي ما يخشاه حقي من اعتقاد الناس باننا ساكتون » .

ولكن العضو نعمان ابو شعر ، اقترح ثانية ان يحل الحزب وان يعلن ذلك قائلا « انه من المستحيل أن يرجع الترك عن صلفهم وغرورهم ... ودوام هذه الاعمال مضر لاخواننا في الداخلية » .

ولكن الاعضاء استبعدوا حل الحزب ، ووافقوا جميعا على اقتراح رشيد رضا بعقد مؤتمر للحزب وفروعه ..

واقترح رفيق العظم عمل نشرة يعلن الحزب فيها عن نفسه بانه حزب سياسي ، لا جمعية ثورية . وبما ان الحكومة بدأت تطارد أفراده في داخلية البلاد ، انعقد عزم الحزب على ان يعقد مؤتمرا يعلن فيه ، للامة وللحكومة معا ، اعماله .. وتوزع النشرة على الصحف وعلى الفروع .

وفي الساعة السادسة والنصف انتهت الجلسة(٣٩) .

وكان قد اقترح في هذه الجلسة وضع مسودة للبيان الحزبي الذي يدعو لعقد المؤتمر ، كما اقترح ان يرسل البيان الى فرع حمص ، لانه من اقوى فروع الحزب داخل الامبراطورية وقد وجدت نص مسودة هذا البيان بين وثائق الاستاذ محب الدين الخطيب . يحتج البيان على مطاردة الحكومة لاعضاء الحزب ، بتهمة انه موجود عندهم ما يسمونه « الاوراق المضرة » لذلك رات اللجنة العليا للحزب « ان تعقد

مؤتمرا للحزب في مصر تدعو اليه ابناء الامة العربية ، وتتلو عليهم اعمالها منذ تأسيس الحزب علنـا »(٤٠) .

ان هذه الجملة « تدعو اليه ابناء الامة العربية » يستدل منهـا ان حـزب اللامركزية ، وان كان قد قرر عقد مؤتمر للحزب وفروعه ، الا انه سيدعو لحضوره ابناء الامة العربية من حزبيين وغير حزبيين . وهذا ما كان يسعى اليه حزب العربية الفتاة ، من عقد مؤتمر ثان على غرار مؤتمر باريس ، يعقد في مصر ، ويقوم بالدعوة اليه حزب اللامركزية . وقد وفق محب الدين الخطيب في تحقيق مطلب حزبه السري ، وهو حزب الفتاة ، لدى حزبه العلني ، حزب اللامركزية ، فتبنى الدعوة للمؤتمر دون علمه برغبة حزب الفتاة(٤١) .

وبالرغم من ان الردود قد وصلت الى حزب اللامركزية بالموافقة ، كما فعل فرع حمص مثلا(٤٢) ، الا ان المؤتمر لم يعقد لعدة اسباب :

أولا : لان الازمة في حزب اللامركزية بلغت اوجها بعد كتابة مسودة البيان .

ثانيا : لان الحرب العالمية الاولى اعلنت بعد حل الازمة الحزبية بمدة وجيزة .

أما تفاصيل عودة الازمة الحزبية وتفجيرها ، فقد حصلت على تفاصيلها من مذكرة مؤرخة بتاريخ الثلاثاء ٥ مايو سنة ١٩١٤ وجدتها بين وثائق الاستاذ محـب الدين الخطيب وملخصها :

انه بعد كتابة مسودة البيان ، حصل خلاف بين رفيق العظم الذي امتنـع عن توقيع البيان كرئيس للحزب ، وبين حقي العظم سكرتير الحزب ، الذي عـد نفسه مستقيلا من السكرتارية ، مع بقائه عضو لجنة ...

ويقول محب الدين الخطيب : عندما علمت بهذا الوضع الذي شرحه لي حقي بك وطلب مني توقيع البيان بصفتي السكرتير الثاني للحزب ، تأكدت ان الخرق قـد اتسع بين حقي بك ورفيق بك الذي يرى ان للعمل اوقاتا لايصلح ان يعمل في غيرها(٤٣) .

والحقيقة ان الوضع في حزب اللامركزية كان يهتز تحت الضربات التي وجهت اليه لتهاونه في موقف الزهراوي ، وتخليه عن تأييد المؤتمر ومقرراته .

فقد كانت جمعيات امريكا تطعن طعنا غير محق ولا هو معقول « والاعضـاء

المسيحيون قد انسحبوا من الحزب وقدموا استقالاتهم ، ومنهم نعمان أبو شعر وخليل ايوب » والحكومة تلاحق أعضاء الحزب ، وكاما صادرت أحد المنشورات التي تصدرها الاحزاب العربية ، الصقت التهمة باعضاء حزب اللامركزية(٤٤) .

ولهذا كله كان يأس رفيق بك شديدا ، وكان يقول انه بحاجة الى الراحة من عناء السياسة وعدم الاشتغال بها بتاتا(٤٥) .

أما رشيد رضا فكان يرى سبب الازمة في التعصب المذهبي لبعض الاعضاء المسيحيين في الحزب ومنهم سليم النجار مراسل جريدة الاهرام ، الذي كان يراسل جريدة الهدى النيويوركية ، ويصرح لها برأيه مطالبا بتعيين حصة المسيحيين من الامتيازات « كاننا سنعيش في المستقبل امما متفرقة بتفرق المذاهب كما يقول رشيد رضا »(٤٦) .

وفي رأي سليم النجار ان الحزب لم يعد شيئا بعد استقالة نعمان وخليل منه ، ومعارضة حقي العظم وعزت الجندي لمقرراته ، واقتصار اسكندر عمون على حضور الجلسات التي تعقد في منزله فقط .

ولعل تحليل رفيق العظم للازمة ، يلقى اكثر من ضوء على الازمة الحزبية التي يعاني منها حزب اللامركزية ، وهي تتلخص فيما يلي :

١ ــ ان حقي العظم يقوم باعماله الاندفاعية رغبة بالانتقام من الاتحاديين والترك .

٢ ــ ان الاعضاء المسيحيين يستدرجوننا الى الرضا بالاحتلال الفرنسي والعمل له ، ويضرب مثلا تأكيدا لقوله . « عندما اتى رجل مسلم غير معروف من خليل يقول له ، لماذا أنتم تشتغلون مع رفيق واصحابه فقال له : نحن نريد ان نتخذ هؤلاء المسلمين آلة للاحتلال الفرنسي »(٤٧) .

ويعتب رفيق العظم على حقي العظم قائلا : بالرغم من ان حقي بك علم بهذا القول وجاء هو بنفسه الي واخبرني بما حصل ، ومع ذلك فقد نسي كل شيء ولايزال منقادا لكل حملة طيش يسمعها من هؤلاء .

وبين رفيق العظم ــ رئيس حزب اللامركزية ــ موقفه من اراء حقي العظم ، واراء الاعضاء المسيحيين قائلا :

أنا لست منتقما ، ولا اريد الانتقام من الاتحاديين كما يفعل حقي بك ، ولم يفعلوا لي ما يدعوني الى الانتقام « ولا اطمع بوظيفة ، ولو اعطيت لي السلطة لابتعدت عنها ، وانما انا طالب اصلاح لهذا الملك ...

اما بالنسبة لموقف المسيحيين فيقول : « خيانة كبرى ان نأتي الى بلادنا بحكام اقوى من الاهالي بالمال والعلم والعقل والسلاح وغير ذلك ، فنمكنهم فيهم ، نحن نطلب اصلاح هذه البلاد ليس الا ، اما اولئك فوطنيتهم مقلوبة ...

... انا عشت ثلاثين سنة في السياسة وانا شريف ، واريد ان اموت شريفا ، هم يريدون ان يسوؤا سمعتي الان بما يبلغوا لهذا وهذا من الاقوال ، ثم يريدون أن يتخذوننا آلة لامر نحن نعمل لغيره ، فأنا اريد أن ابتعد عنهم حتى يجربوا الطرق التي يريدون ان يسلكونها ، كفاني ما مضى من تعبي لاجل هذه المملكة ، فلارتح الان ولاعتزل هذه الاعمال المنهكة » .

اما كيف انتهت ازمة حزب اللامركزية ، فيمكننا القول ، استنادا الى محضر جلسة عقدت في ٢٥ يوليو سنة ١٩١٤ ، بان الازمة حلت بتفاهم الاعضاء ، حيث حضر هذه الجلسة من الاعضاء ، اسكندر عمون ، وسليم عز الدين ، ورشيد رضا وصالح رضا ، وحقي العظم ، ومحب الدين الخطيب ، وكانت الجلسة برئاسة رفيق العظم (٤٨) . وهذا دليل قاطع على أن المسألة قد سويت بين الاعضاء ، وبعد استقالة الاعضاء الذين ذكرت اسماءهم سابقا .

ودارت الجلسة حول عقد المؤتمر ، والاستعداد له ، فقال رفيق العظم انه كتب للاستانة حول هذا الموضوع ، وكتب لبعض المبعوثين يطلب منهم حضور المؤتمر ، واكد اسكندر عمون أن المؤتمر يجب ان يحضره اناس معروفون ذوو مكانة .

وعندما اقترح رفيق العظم وحقي العظم ، وضع جدول لاعمال المؤتمر ، اجاب اسكندر عمون أن البحث في ذلك سابق لاوانه واقترح الانتظار حتى يتمكن الحزب من تعيين وقت المؤتمر .

اما النقطة الثانية التي اثيرت في الجلسة ، فهي محاولة تفاهم اسعد داغر مع الصهيونيين ، وطلب اسكندر عمون استيضاحا حول هذه النقطة فافهمه رفيق بك تفاصيل المسألة(٤٩) .

ان الحرب العالمية الاولى التي أعلنت بعد خمسة أيام من تاريخ هذه الجلسة

قلبت الاوضاع راسا على عقب ، ودخلت البلاد في حياة جديدة ، تابعة من ظروف الحرب وتطوراتها السريعة وهكذا قضي على امل حزب اللامركزية والفتاة في عقد مؤتمر عربي ثاني .

حزب اللامركزية خلال الحرب العالمية الاولى :

كان اندلاع الحرب العالمية الاولى حادثا ضخما شملت آثاره مجالات متعددة ، اقتصادية واجتماعية وسياسية ، في كل دولة او شعب ، وكذلك كانت آثار الحرب ذات آثار جذرية وشاملة على الاحزاب والفعاليات الحزبية في الدولة العثمانية بصورة عامة ، والاحزاب في الوطن العربي بصورة خاصة .

وقد اشرنا الى ان حزب اللامركزية كان يعاني ازمة حادة قبل نشوب الحرب بقليل ، وكاد أن يكون في نقطة التصادم مع الضباط العرب والعسكريين ، ممثلين في تنظيمهم العسكري حزب العهد . ومع ذلك فقد بادرت الاحزاب العربية وفي مقدمتها جمعية العربية الفتاة السرية ، وحزب اللامركزية العلني الى التشاور حول ما يجب أن يكون عليه الموقف العربي وكانت الدولة العثمانية لم تدخل الحرب بعد ، فأرسلت العربية الفتاة الاخوين محمد ومحمود المحمصاني الى القاهرة للاتصال بحزبهما ، حزب اللامركزية ، فوصلا الى القاهرة قبل دخول تركيا الحرب ، واديا المهمة الحزبية التي كلفا بها من جمعيتهما السرية ، العربية الفتاة . ولما حاولا العودة الى سورية بعد اعلان التعبئة العامة في الدولة العثمانية ، نصح احد الاصحاب محمد المحمصاني البقاء في مصر فأجابه : « ان الوطن في حاجة الى كل فرد من ابنائه في هذا الاوان العصيب فمن الخيانة ان لا نقوم بالواجب علينا نحوه »(٥٠) .

وقد اجمل لي الاستاذ محب الدين الخطيب – الذي كان حينئذ من اركان حزبي العربية الفتاة واللامركزية – والذي اشترك في تلك المباحثات – نتائجها مستعينا بمذكراته (سيرة جيل)(٥١) فقال :

كانت الآراء متفقة ومتلاقية على أن مصلحة العالم الاسلامي والاقطار العربية ، في ملحمة الحرب العالمية الاولى ، هي في الوقوف على الحياد وترك الفريقين المتنازعين على استعمار الارض واستعباد الامم يحطم بعضهما بعضا ...

وفي مقابل هذا الموقف « السلبي » كان من المتعذر اتخاذ خطة ايجابية فيما يجب ان يعمله العرب اذا دخلت تركيا الحرب ، بغير ان يؤخذ رأي الزعماء والحكام العرب في الاقطار العربية التي لها صلة بالدولة العثمانية ..

لذلك فقد تقرر ايفاد مندوبين الى اولئك الزعماء والحكام للتعرف على رأيهم فيما ينبغي ان يكون عليه موقف الامة العربية تجاه الاتراك اذا ما انزلقوا في الحرب مع فريق دون آخـر .

وقد اختير محب الدين الخطيب للسفر الى الخليج العربي ، ومحاولة الاجتماع بالامير عبد العزيز آل سعود امير نجد والاحساء ، وبالسيد طالب النقيب زعيم العراق الجنوبي ، وغيره من الزعماء ...

واختير عبد الرحمن عاصم للسفر الى اليمن من أجل الاتصال بامامها .. واتفق على الاتصال بالشريف حسين امير مكة على الرغم مما هو معروف عنه من عدم اطمئنانه الى الاحزاب والجمعيات أو ثقته فيها(٥٢) ، واختير الشيخ محمد القلقيلي للذهاب الى بلاد الشام (٥٣) .

وقد توجه كل من محب الدين الخطيب وعبد الرحمن عاصم الى الجهة التي انتدب اليها ، لاداء مهمته فيها ، ولم يتمكن أي منهما ان يبلغ تلك الجهة ، او ان يؤدي هذه المهمة ، فقد اعتقل الانكليز محب الدين الخطيب في البصرة ، وبقي عبد الرحمن عاصم في القاهرة لدخول تركيا الحرب وعدم تمكنه من السفر الى الجهة التي ندب اليها ، اما الشيخ القلقيلي فقد عاد من بيروت الى الاسكندرية ثانية . ويقول محب الدين الخطيب في مذكراته ، في معرض التعليق على اعتقاله « والظاهر ان برسي كوكس (الحاكم البريطاني في العراق) كان يعلم المهمة التي كان سفرنا من اجلها ، اذ قال لي عندما ودعني بعد الافراج عني ، بان العرب سينالون استقلالهم ، وبان الانكليز سيجلون عن العراق في الوقت المناسب ، لكنهم يحتفظون بالبصرة لاجل الهند »(٥٤) .

ويقول محب الدين الخطيب انه لم يتمكن من تحديد كيفية اطلاع الانكليز على سفره أو على مهمته بالرغم من اهمية هذه المسألة في ذلك الوقت .

وقد قرر حزب اللامركزية بعد ذلك عقد اجتماع كبير مع فروع الحزب ، لوضع خطة للدفاع عن البلاد العربية « لانها معرضة للخطر الذي تتعرض له كل البلاد العثمانية ، بل لخطر اشد لبعدها عن مركز القوة الذي يضطر الاتراك لحصر دفاعهم عن وطنهم ومركز سلطتهم »(٥٥) .

وطلب الحزب من فروعه ان يتلقى اجوبة سريعة من الفروع على الامور الاتية :

١ ـ ما هي القوة التي عندكم ويمكننا الارتكان عليها عند الحاجة لعمل عام .

٢ ـ هل في امكانكم جمع شيء من المال واسعافنا به او استبقاؤه عندكم حسب اللزوم وما هو المقدار الذي يمكنكم جمعه .

٣ ـ هل عندكم ملجأ امين لفرد أو اكثر لمن يناط بهم ادارة الحركة الوطنية وان تؤمن معيشتهم كل التأمين .

٤ ـ هل يمكنكم ارسال شخص تثقون به ينوب عن فرعكم الى جهة نعينها لكم ليتلقى منها التعليمات اللازمة .

٥ ـ اذا لم يمكنكم ارسال شخص هل ترون من اللازم ان يأتيكم موفد مخصوص لاعطاء هذه التعليمات ؟

ويعلل حزب اللامركزية موقفه هذا قائلا : علينا معاشر العرب ان نفكر من الان في الوسائط التي تقي استقلالنا من الزوال ، ومن الواجب المقدس على حزبنا الذي له نوع من التشكيلات وكل أفراده من أهل الوطنية الصادقة والغيرة على الوطن والحرص على سلامة الاستقلال ان يكون في مقدمة المفكرين في هذا الامر العامل على اتخاذ الوسائط الناجحة لسلامة الوطن وحياة بنيه(٥٦) .

لا بد لنا من الاشارة الى النقطة التالية وهي ان امين سعيد في كتابه (اسرار الثورة العربية الكبرى)(٥٧) يضع قصة المشاورات بين الاحزاب العربية وقرار الاتصال بالامراء العرب ، في نطاق فصل عن (المخطط الانكليزي لاستقلال الحركة العربية) تحت عنوان فرعي هو : « الاتصال بالهيئات العربية الاخرى » ، يصور فيه عملية التشاور بين جمعية العربية الفتاة واللامركزية التي أشرنا اليها سابقا ، ثم عملية ارسال المندوبين الذين كلفوا بالتشاور مع الامراء العرب تصورا مغايرا لكل ما اطلعت عليه من وثائق ، وللصورة التي سجلها محب الدين الخطيب في مذكراته .

يصور امين سعيد الامر كما يلي :

١ ـ انهم (اي الانكليز) اتصلوا سنة ١٩١٤ وقبل اعلان الحرب بقليل بالسيد رشيد رضا صاحب مجلة المنار ومؤسس جمعية (الجامعة العربية) وسألوه ان يوفد مندوبين الى الامراء عبد العزيز في نجد ، والامام يحيى في اليمن ، والسيد الادريسي في عسير ، وبعض زعماء الشام يسألونهم رأيهم في الخطة التي يسيرون عليها حتى نشوب الحرب ، فوافق مبدئيا ، وسألوه عن النفقات التي يستلزمها هذا الموضوع فقدره بألف جنيه دفعت له ، وانتدب لهذه المهمة ثلاثة من الشباب العاملين في القضية

وهم السادة : محب الدين الخطيب ، اوفده الى نجد ، والشيخ محمد القلقيلي اوفده الى بلاد الشام والشيخ عاصم رضا ، اوفده الى بلاد اليمن .

٢ انشأ الانكليز اتصالات محدودة مع قادة حزب اللامركزية العثماني بمصر ، وكان السيد رشيد رضا وكيله ، ورفيق العظم رئيسه ، ومحب الدين الخطيب مساعد امينه العام .

٣ ـ ويشير امين سعيد الى ان وصول محمود المحمصاني الى القاهرة واجتماعه بقادة الاحزاب فيها كان صدفة ، لوجوده على ظهر الباخرة الذاهبة من باريس الى بيروت وبما أن هذه الباخرة من عادتها ان تبقى يومين في الاسكندرية فقد اغتنم الفرصة وجاء الى القاهرة واتصل باخوانه العاملين في الحركة العربية ، وعلم ايضا ان هناك اتصالات بين الانكليز وبين جماعة اللامركزية .

٤ ـ ان اخوان المحمصاني في بيروت ارسلوا الشيخ كامل القصاب الى القاهرة للاطلاع على هذه الاتصالات ، بعد أن سمعوا بها من محمود المحمصاني .

٥ ـ ان الانكليز اتصلوا ثلاث اتصالات مع الشريف عبد الله قبل اعلان الحرب سنة ١٩١٤ .

ان الوثائق التي وجدتها في مكتبة محب الدين الخطيب والتي استندت اليها في هذه الدراسة تشير الى ان المبادرة كانت من حزب الفتاة اولا ، وان محمود المحمصاني بالاضافة الى كونه عضوا مؤسسا في حزب الفتاة ، الا انه في نفس الوقت كان عضوا في حزب اللامركزية ايضا . او بصورة اخرى ، كان هو ومحب الدين الخطيب صلةالوصل بين الفتاة واللامركزية . وهذا تكتيك حزبي استخدمته الفتاةوسارت عليهطيلةعهدها .

اما قضية اتصال الانكليز بالشريف عبد الله ، فقد ذكرتها اكثر المصادر وتناولتها من أوجه متعددة .

ففي حين يذكر الملك عبد الله في مذكراته ، وامين سعيد(٥٨) ، ان اللقاء بين (كتشنر وستورس) وعبد الله سنة ١٩١٤ كان صدفة اثناء زيارته للقاهرة ، يؤكد ستورس ، وانيس صايغ ، ان اللقاء كان مقصودا ، وان بادرة الاتصال صدرت عن عبد الله وليس عن كتشنر(٥٩) . ويضيف ستورس ان عبد الله سأله بصراحة ما اذا كانت بريطانيا مستعدة لتزويد الشريف حسين بدستة أو دستةونصف منالرشاشات الحربية وعندما سأله عن الغرض منها اجاب ، كما يجيب طالبو الاسلحة عموما ،

للدفاع ، ويضيف ستورس انه اعاد السؤال بالحاح مستفهما عما يعنيه بالدفاع فقال انه الدفاع ضد هجمات الاتراك ، ويقول ستورس لم اكن بحاجة الى تعليمات خاصة لاخبره اننا لا يمكن ان نفكر في تزويد احد باسلحة تستعمل ضد قوة صديقة(٦٠) .

كما تشير المصادر الى قضية اتصال الانكليز بالشيخ رشيد رضا ، وهي قضية صحيحة لان الشيخ رشيد يذكرها في المنار ، ولكن الذي لا يذكره قضية استلامه مبلغ الالف جنيه الذي يشير اليها أمين سعيد .

ومما يلفت النظر ، ان رشيد رضا يذكر أيضا مقابلته مع عبد الله في نفس العام ١٩١٤ ، وكيف ان الشريف دخل في جمعية الجامعة العربية واقسم قسمها . ولعل الشيخ رشيد قابل الانكليز واستلم المبلغ بصفته من اصدقاء عبد الله بن الحسين . وهذا التعليل ينقلنا الى نطاق أوسع وهو ان الانكليز ربما تداولوا الامر مع الشيخ رشيد رضا بصفته الشخصية وليس بصفته أحد أعضاء حزب اللامركزية أو غيره من الاحزاب ، كما ان محب الدين الخطيب لم يشر الى اتصال الانكليز بحزب اللامركزية ، أو حزب الجامعة العربية في مذكراته ، بل ، واكثر من ذلك ، يستغرب حديث برسي كوكس معه ، ويشير مندهشا ومخمنا انه كان يعرف المهمة التي انتدب من أجلها .

وقبل أن تتبلور هذه المقابلات في خطة عربية مشتركة لمواجهة الموقف الذي سينشأ عن دخول الدولة العثمانية الحرب ، زج الاتحاديون وحكومتهم بالدولة العثمانية فياتون الحرب الىجانب المانيا،كماكانت الاحزابالعربيةتخشى وتتوقع،وذلك بتاريخ ١٩١٤/١٠/٣٠ . فما كان من حزب اللامركزية الا ان كلف الشيخ رشيد رضا وهو أحد كبار قادته ان يبعث برسائل الى من يثق بهم في سورية يحثهم فيها على الولاء للحكومة ، وينشر خطابا عاما موجها الى مسلمي سورية يقول فيه : « ثم اشكر لكم ما اظهرتموه من النجدة والهمة في الاخلاص والطاعة للدولة ، وبذل الانفس والاموال والثروة لها ، والكف عن طلب الاصلاح فيها ، وتقديركم الحالة الحاضرة قدرها ، حتى انكم ساهمتم في هذا الرقي امم الارض التي سكتت عن جميع مطالبها ونزعاتها الداخلية »(٦١) .

ويمكننا القول ان موقف الاحزاب العربية كان لا يختلف عن موقف حزب اللامركزية ، ما عدا جمعية العربية الفتاة (٦٢) . وبدا نوع من التقارب بين الاحزاب العربية وحزب الاتحاد والترقي ممثلا بجمال السفاح الذي سار في اوائل عهده على سياسة التودد للعرب بخبث ودهاء كبيرين ، وبعد ان كسب ثقة ومودة بعض قادة

الحركة العربية من ذوي الصلات الوثيقة بالاحزاب ، وان لم يكونوا من اعضائها وقادتها ، مثل عبد الكريم الخليل وغيره . ولكنه لم يلبث ان كشف القناع عن وجهه كسفاح يعمل على استئصال الحركات العربية التي ظهرت قبل الحرب وسحقها .

ان السرعة المذهلة التي تم بها قلب الوضع بين الاتحاديين والحركة العربية تدل على خطة مبيتة ومرسومة مسبقا ..

على ان هذا الاستنتاج الذي ينطوي على حكم يدين الاتحاديين وسياستهم ، وسرعة تغييرهم هذه السياسة ، لا بد له من الشرح الوافي(٦٣) . فهو مسألة مطروحة على كل من يتعرض لهذه الحقبة من تاريخ الدولة العثمانية ، أو من تاريخ بلاد الشام بصورة خاصة . والذي يعنينا هنا ان جمال باشا كان قد علق القافلة الاولى على اعواد المشانق في دمشق وبيروت في آب (اغسطس) سنة ١٩١٥ ، ليتبعها قبل ان تجف دماء الشهداء بالقافلة الثانية في أيار (مايو) سنة ١٩١٦ معتبرا الجميع أعضاء في حزب اللامركزية ، وكان عبد الكريم الخليل من ابطال وشهداء القافلة الاولى ، وعبد الحميد الزهراوي ، رئيس المؤتمر العربي ، من ابطال وشهداء القافلة الثانية ، وانفرط عقد الحزب بعد هذا التاريخ .

* * *

الحواشي :

(١) وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب.

(٢) راجع : مجلة دراسات تاريخية ، العددان التاسع والعاشر ، تشرين أول ١٩٨٢ ، بحث للدكتورة سهيلة الريماوي بعنوان «صفحات من تاريخ الجمعيات في بلاد الشام ١٩٠٨ – ١٩٠٩ ص ١٢٠ وما بعدها .

(٣) رفيق العظم ، اثاره ، المقدمة صفحة ج ، بقلم رشيد رضا .

(٤) الامير مصطفى الشهابي ، القومية العربية ، ص ٨١ .

(٥) وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب .

(٦) وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب .

(٧) من وثائق محب الدين الخطيب .

(٨) وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب ، رسالة موجهة من عبد الغني العريسي الى محب الدين الخطيب ، وموقعة بالرقم ٢١ وهو رقم العريسي اثناء اقامته في باريس .

(٩) وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب، رسالة موجهة من الحزب الى الجمعية الاصلاحية في بيروت .

(١٠) راجع نص البرقية في جريدة الاهرام بتاريخ ١٩١٣/٤/١٥ .

(١١) هذا الكتاب يقع في حوالي ٢٤٠ صفحة تقريبا بعنوان « المؤتمر العربي الاول – المنعقد في القاعة الكبرى للجمعية الجغرافية بشارع سان جرمان باريس في يوم الاربعاء ١٨ حزيران سنة ١٩١٣ ».

(١٢) وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب واوراقه رسالة موجهة من العريسي الى الخطيب .

(١٣) راجع كتاب المؤتمر العربي الاول في باريس ، ص ٥ .

(١٤) وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب واوراقه ، محضر جلسة للحزب بهذا التاريخ .

(١٥) المصدر السابق ، الوثيقة ، وكتاب المؤتمر العربي الاول في باريس ، ص ٨ .

(١٦) جريدة المؤيد ، بتاريخ ١٩١٣/٣/٢٧ .

(١٧) حول اسماء بقية الوفود ، راجع كتاب المؤتمر العربي الاول ، ص ١٤ – ١٦ .

(١٨) راجع خطبة اسكندر عمون في كتاب المؤتمر العربي الاول ، ص ١٠٠ وما بعدها .

(١٩) راجع قرارات المؤتمر بالتفصيل في كتاب المؤتمر العربي ، ص ١١٣ – ١٢١ .

(٢٠) لقد حصلت على عدة وثائق من مكتبة محب الدين الخطيب ، وهي عبارة عن رسائل متبادلة بين مركز الحزب في القاهرة وفروعه في فلسطين وسورية والسودان والعراق .

(٢١) راجع كتاب المؤتمر العربي الاول ، المقدمة صفحة ب ، بقلم رشيد رضا .

(٢٢) لقد قدم احمد عزت الاعظمي في كتابه القضية العربية ، ج٤ ، تحليلا وافيا حول مقررات المؤتمر والاتفاقية ، نرجو الرجوع اليه .

(٢٣) راجع كتاب ساطع الحصري ، نشوء القومية العربية ، ص ٢٠٣ .

(٢٤) اعضاء هذا الوفد هم من اعضاء هيئة المتابعة التي بقيت في باريس لمتابعة قرارات المؤتمر برئاسة الزهراوي وقد ارسلت وفدا من اعضائها الى الاستانة بناء على طلب عبد الكريم الخليل ، ويتالف من سليم سلام والشيخ أحمد طبارة واحمد مختار بيهم ، بينما بقي الزهراوي في باريس .

(٢٥) مجلة المنار ، م١٩ ، ج٣ ، ص ١٧٦ .
وبين مجموعة اوراق محب الدين الخطيب عدة رسائل متبادلة بين الحزب وعبد الحميد الزهراوي وفيها يظهر بوضوح ان الحزب لم يستطع الضغط على صديقه الزهراوي ، فترك له حرية الخيار في السفر الى الاستانة .

(٢٦) راجع اسعد داغر ، ثورة العرب ، ص ٩٢ .

(٢٧) راجع نص الحديث الصحفي في اسعد داغر ، ثورة العرب ، ص ٩٣ – ٩٤ .

(٢٨) راجع حول هذا الموضوع ، جريدة الاهرام ، بتاريخ ١٩١٤/١/٢١ ، و ١٩١٤/١/٣٠ والاعضاء هم: عبد الرحمن اليوسف ، سليمان الباروني ومحي الدين النقيب ، ثم محمد بيهم ويوسف سرسق واحمد الكيخيا .

(٢٩) راجع نص البيان ، في مجلة المنار ، م١٦ ، ج١١ ، ص ٨٤٩ – ٨٧٩ .
وفي كتاب احمد عزت الاعظمي ، القضية العربية ، ج٤ ، ص ٣٠–٥٣ .

(٣٠) مجلة المنار ، م١٧ ، ج٣ ، ص ٢٣٥ – ٢٣٦ .

(٣١) مجلة المنار المصدر السابق .

(٣٢) مجلة المنار ، م١٩ ، ج٣ ص ١٧٤ .

(٣٣) راجع نص الكتاب الذي ارسلته جمعية الاتحاد السوري ورد حزب اللامركزية عليه في احمد عزت الاعظمي ، القضية العربية ، ج ٤ .

(٣٤) سنتعرض لهذه القضية ونقدم حولها شرحا وافيا في دراسة لاحقة تدور حول حزب العهد العسكري السري .

(٣٥) لقد وجدت بين أوراق محب الدين الخطيب عدة رسائل بخط الزهراوي موجهة الى حزب اللامركزية تدور حول هذا الموضوع .

(٣٦) وهي مذكرات مخطوطة موجودة في مكتبة آل الخطيب في القاهرة ، لم تطبع بعد .

(٣٧) محب الدين الخطيب ، المذكرات ، سيرة جيل.

(٣٨) وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب ،محضر جلسة للحزب بهذا التاريخ .

(٣٩) وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب ،محضر جلسة للحزب .

(٤٠) وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب ،بيان صادر عن حزب اللامركزية .

(٤١) هناك دراسة مفصلة اقوم باعدادها لتصدر في كتاب مستقل تحمل عنوان « جمعية العربية الفتاة السرية » دراسة وثائقية .

(٤٢) وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب مصدرها مدينة حمص .

(٤٣) محب الدين الخطيب ، المذكرات ، سيرة جيل

(٤٤) كان حقي العظم قد اسس الجمعية الثورية واخذ يصدر المناشير والبيانات التي تهاجم الاتحاديين والوضع بشكل عام في الامبراطورية ، وكانت هذه البيانات تنسب الى حزب اللامركزية . ويشير احمد قدري في كتابه مذكراتي عن الثورة العربية ان هذه المناشير كانت السبب في المشانق التي علق عليها جمال باشا احرار العرب . راجع حول هذه النقطة « الجمعية الثورية » احمد عزت الاعظمي، في كتابه القضية العربية ، ج ٤ . واحمد قدري ، مذكراتي عن الثورة العربية .

(٤٥) وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب .

(٤٦) نفس المصدر السابق .

(٤٧) المصدر السابق .

(٤٨) وثيقة من وثائق محب الدين الخطيب ، محضر جلسة .

(٤٩) لقد وجدت عدة وثائق بين وثائق محب الدين الخطيب في مكتبته حول هذا الموضوع وساقدم حولها دراسة مفصلة في وقت لاحق .

(٥٠) اسعد داغر ، ثورة العرب ، ص ١٢٩ .

(٥١) من أوراق الدكتورة سهيلة الريماوي ، مقابلة خاصة مع محب الدين الخطيب في القاهرة سنة ١٩٦٦

(٥٢) محب الدين الخطيب ، المذكرات ، سيرة جيل

(٥٣) امين سعيد ، أسرار الثورة العربية الكبرى ، ص ٣٧ .

(٥٤) محب الدين الخطيب ، سيرة جيل .

(٥٥) وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب .

(٥٦) نفس الوثيقة والمصدر .

(٥٧) راجع امين سعيد ، الثورة العربية الكبرى ومأساة الامير حسين ، ص ٣٧ — ٣٩ .

(٥٨) عبد الله بن الحسين ، مذكراتي ، ص ٧١-٧٣
وامين سعيد ، اسرار الثورة العربية الكبرى ، ص ٣٥ — ٣٦ .

(٥٩) انيس صايغ ، الهاشميون والثورة العربية الكبرى ، ص ٧٧ .

(٦٠) Storrs, R., Orientation, P. 123, London 1943.

(٦١) اسعد داغر ، ثورة العرب ، ص ١٣٧ .

(٦٢) لقد قدمنا تحليلا وافيا حول موقف جمعية العربية الفتاة السرية ، في كتابنا عن الجمعية ، وهي دراسة وثائقية ستصدر قريبا .

(٦٣) راجع دراسات تاريخية ، العددان الثالث عشر والرابع عشر ، ص ١٣٨ وما بعدها ، بحث للدكتورة سهيلة الريماوي بعنوان (مفهوم اللامركزية عند العرب العثمانيين) .

* * *

مؤتمرات تاريخية

بعض ملاحظات حول مؤتمر ستراسبورغ عن اقتصاد ومجتمعات الامبراطورية العثمانية

(من نهاية القرن الثامن عشر الى بداية القرن العشرين)

عقد في مدينة ستراسبورغ بفرنسا ، برعاية جامعة ستراسبورغ وبدعم من لجنة اللغات والحضارات الشرقية التابعة المركز الوطني الفرنسي للدراسات العلمية ـ وفي آن واحد ـ المؤتمر الدولي الثاني للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي لتركيا ، وندوة عالمية لمعالجة الاقتصاد والمجتمعات في الامبراطورية العثمانية منذ اواخر القرن الثامن عشر وحتى مطلع القرن العشرين .

وشارك في المؤتمر ما يزيد على مائة باحث ، كما شارك في الندوة ثمانون باحثا ، تقدم واحد واربعون منهم ببحوث ، نشر القسم الاكبر منها في الكتاب الذي نعالجه هنا .

* * *

يعاني التاريخ العربي الحديث من قلة الدراسات عن الولايات العربية التي بقيت تحت السيطرة العثمانية مدة اربعة قرون ، من القرن السادس عشر حتى بداية هذا القرن ، على الرغم من وجود آلاف السجلات في مراكز الوثائق ، في دمشق وطرابلس واستانبول ، وغيرها من المدن ، بالاضافة الى رسائل القناصل الاوروبيين ، التي تنتظر من يتعمق بالبحث فيها . ويأتي الكتاب حول **اقتصاد ومجتمعات الامبراطورية العثمانية (من نهاية القرن الثامن عشر الى بداية القرن العشرين)** ليسد جزءا من هذا الفراغ ، وان كانت الابحاث المخصصة للولايات العربية فيه قليلة نسبيا .

عقد مؤتمر ستراسبورغ بين الاول والخامس من تموز ١٩٨٠ ، وشارك فيه واحد واربعون باحثا من بلدان مختلفة . اما الكتاب الذي صدر في العام الماضي

عن « المركز الوطني للدراسات العلمية بباريس » (★) فقد جمع خمسة وثلاثين بحثا قدمت في المؤتمر حول الموضوعات التالية :

- عهد التنظيمات (الاصلاحات الادارية والاجتماعية والاقتصادية) .
- اثر الرأسمالية الاوروبية على اقتصاد الامبراطورية العثمانية .
- الحياة الاقتصادية الداخلية للامبراطورية .
- المشاكل الديموغرافية واحصاءات السكان .
- ثورة الاتراك الجدد .

وما يؤخذ على الكتاب عدم تبويب البحوث في فصول يتناول كل منها موضوعامعينا وقد يكون السبب صعوبة وجود قاسم مشترك بين العديد من البحوث ، وضعف المستوى « النظري » لمعظمها . وما سنحاول تقديمه هنا هو تلخيص لبعض هذه البحوث التي رأيناها ذات اهمية ، لانها عالجت اقتصاد ومجتمعات الامبراطورية العثمانية ، محاولين بذلك ابراز اهم نتائج وطروحات المؤتمر .

« دمج الامبراطورية العثمانية بالسوق الرأسمالية العالمية »

يعد مقال الباحثين ايمانويل فالرشتاين ورشاد كسبه ، وعنوانه **« الدمج ضمن السوق العالمية : تغيير بنية الامبراطورية العثمانية ، ١٧٥٠ – ١٨٣٩ »** ، اكثر المقالات شمولا لمحاولته بناء اطار منهجي يفسر اقتصاد ومجتمعات وسياسة الامبراطورية العثمانية بصورة عامة .

يكمن الفارق بين اقتصاد الامبراطورية العثمانية واقتصاد الدول الاوروبية الرأسمالية ، بنظر الباحثين ، في ان الاول يخضع ، كاقتصاد سائر الامبراطوريات ، الى نظام سياسي موحد يرتكز على الاسلام الحنفي كركيزة ايديولوجية للدولةالعثمانية. وتضم هذه الامبراطورية ، جماعات وكتل عرقية واديان مختلفة ، لم تسع الدولة ،

(★) **Economie et Sociétés dans l'Empire Ottoman (Fin du XVIIIe- Début du XXe Siècle)**. Actes du colloque de Strasbourg (1er-5 Juillet 1980), Publiés par Jean-Louis Bacqué-Grammont et Paul Dumont (Paris: CNRS, 1983).

المقالات باللغات الثلاث : الفرنسية والانكليزية والالمانية « ٤٨٦ صفحة » .

طوال اربعة قرون ، لدمجها او تفتيتها ، بل اقتصرت علاقتها معها على تحصيل الضرائب واعادة توزيعها . لذا فان نمط الاقتصاد العثماني ، يقتصر بالدرجة الاولى على اعادة توزيع الضرائب وفقا للتراتب السائد في شتى انحاء الامبراطورية . ويختلف هذا النمط من الانتاج عن الراسمالية الاوروبية ، التي نمت منذ القرن السادس عشر ، في ان الدول الاوروبية كانت ذات انظمة سياسية متعددة ، تحاول دمج افرادها ضمن اطر قومية وجغرافية محددة . اما اقتصادها فهو خاضع لمنطق انتاج السلع وتسويقها للحصول على فائض القيمة منها . ولم تتم عملية التسويق هذه في اطار جغرافي معين (اوروبا مثلا) بل اتسعت لتشمل، في القرن التاسع عشر، العالم كله.

ينطلق اذن مقال فالرشتاين وكسبه من الفرضيات التالية :

(١) رافق نمو الاقتصاد الرأسمالي العالمي ، منذ القرن السادس عشر ، تقسيم جديد للعمل في المجتمع .

(٢) يتطلب نمط الانتاج الرأسمالي العالمي توسيع رقعته الجغرافية باستمرار ، وامتدادها الى امكنة تقع خارج سيطرته السياسية .

(٣) ينتج عما سبق ان الاقتصاد الرأسمالي العالمي يحاول باستمرار « دمج » مجتمعات غير رأسمالية ، ومن بينها طبعا الامبراطورية العثمانية ، في السوق العالمية.

يقارن المقال بين مرحلتين من تاريخ الامبراطورية العثمانية : الاولى مرحلة ما قبل « الدمج » بالسوق الرأسمالية العالمية ، والثانية (بين ١٧٥٠ — ١٨٣٩) التي شهدت تنظيما اقتصاديا وسياسيا مختلفا عن المرحلة السابقة . ويتمحور المقال حول السؤال التالي : لماذا بدأت عملية « الدمج » في منتصف القرن الثامن عشر (حوالي سنة ١٧٥٠) وليس قبل ذلك ؟

كان الاقتصاد العثماني يقوم بشكل اساسي على الزراعة الريفية وطوائف الحرف المدينية . وكانت الدولة العثمانية ، بواسطة جهازها البيروقراطي ، تعمل على توزيع الاراضي الزراعية وجباية ضرائبها ، وذلك ضمن اطار النظام المعروف (بالتيمار) . فمعظم الاراضي الصالحة للزراعة هي مبدئيا ملك للدولة ، وتسمى اراضي (اميرية) : ففي سنة ١٥٢٨ مثلا ، كانت نسبة الاراضي « الاميرية » ٨٧٪ . وعندما كانت الدولة العثمانية ، بنتيجة الحروب التوسعية التي خاضتها تلحق اراضي جديدة بالامبراطورية ، كانت تصنف تلك الاراضي وفقا لحجمها واهميتها التراتبية ،

ضمن سجلات خاصة تعرف « بالتيمار » ثم يتم توكيل مسؤول (السباهي) على مقاطعات (التيمار) هذه . وللسباهي وظيفتان اساسيتان : فهو من جهة عسكري ذو رتبة عالية في الجيش ، ومن جهة اخرى هو مسؤول عن تحصيل ضرائب مقاطعات التيمار التي اصبحت ، بعد توزيعها من قبل الدولة ، اشبه بالملكية الفردية .

وكانت اراضي التيمار تصادر من السباهي في حال عدم تمكنه من تحصيل الضرائب المطلوبة .

وكان السباهي ، ابان « العهد الكلاسيكي » للامبراطورية العثمانية ، صلة الوصل بين الفلاحين والسلطة المركزية ، التي كانت بدورها تدعم هذه الصلة عن طريق وسطاء آخرين . فالى جانب النظام القضائي المديني ، كان الدفتردار يقوم بتنظيم توزيع الضرائب وكيفية تحصيلها من المتصرفين بمقاطعات التيمار ، ومن شيوخ طوائف الحرف ، الذين كانوا بدورهم صلة الوصل بين الحرفيين والسلطة المحلية المالية (اي الدفتردار) . اذ يخضع التنظيم الحرفي المديني الى تراتب جامد على رأسه شيخ الحرفة الذي يتولى حل الخلافات الداخلية للطائفة وتحصيل الضرائب وفقا لمقدرة المساهمين ، كما أن الطائفة تحدد عدد العاملين والاجراء والصناع . وتمنع ممارسة المهنة دون اذن سابق من أهل الحرفة .

بدات الصورة التي رسمناها عن الامبراطورية العثمانية ، وتتلخص في سيطرة الدولة على القوى الانتاجية ، تتبدل تدريجيا منذ القرن السابع عشر ، وذلك لعدة اسباب اهمها :

(١) توقف التوسع الحربي للامبراطورية ، حتى انه ، منذ اواخر القرن التاسع عشر اصبحت الدولة غير قادرة على المحافظة على مقاطعات استولت عليها في القرون السابقة .

(٢) اضعف ذلك نظام التيمار الذي يرتكز ، بالدرجة الاولى ، على ضم مقاطعات جديدة كغنيمة حرب واعادة توزيعها ، ويهدف الى زيادة التحصيل الضريبي وفقا لتزايد نفقات الدولة واجهزتها .

(٣) نتج عن دخول الذهب الاسباني بكميات كبيرة الى داخل حدود الامبراطورية العثمانية ، تضخم في الاسعار وفقدان العملات المحلية لقيمتها ، مما زاد في خلل ميزانية الدولة التي ضعفت لعدم قدرتها على زيادة الضرائب .

حاولت الدولة ، للاسباب التي سبقت الاشارة اليها ، ولاسباب اخرى ،كالانفاق على حروب باهظة الثمن وغير مجدية ، والتغيير الذي طرأ على اهمية معظم الطرق التجارية داخل الامبراطورية وخارجها ، الى تحسين نظام جباية الضرائب ، فنتج عن ذلك ابدال نظام التيمار بالالتزام . وما يهمنا من الناحية التاريخية معرفة الفارق في الشكل والبنية بين هذين النظامين والتحولات الاجتماعية التي نتجت عن اعتماد نظام الالتزام . واستغرق الانتقال من نظام الى اخر قرن او اكثر ، وتم التحول في بعض الولايات ، بسرعة اكثر من ولايات اخرى . الا ان ما يهمنا من الناحية التاريخية ، هو المقارنة بين شكلين من ريع الارض برزا في ظروف تاريخية مختلفة .

وبذلك ينتهي البحث .

الانفتاح التجاري العثماني على الدول الاوروبية

يكمل مقال الباحث سلفور كنصال « **غزو الرأسمالية الصناعية للسوق الداخلية العثمانية (١٨٣٨ - ١٨٨١)** » الصورة العامة التي رسمناها باقتضاب شديد عن التطور التاريخي للاقتصاد العثماني . اذ يحلل الكاتب اثر الثورة الصناعية الاوروبية التي بدات في منتصف القرن الثامن عشر وبلغت اوجها في القرن التاسع عشر على اقتصاد الامبراطورية العثمانية . ويتساءل عن اسباب « الانفتاح » الاوروبي الى خارج رقعة سيطرته السياسية ، والاسباب التي حتمت على العثمانيين قبوله كامر واقع لا مفر منه .

يحلل مقال كنصال الفترة الممتدة بين عامي ١٨٣٨ و ١٨٨١ ، وهي الفترة التي شهدت « انحلالا » في السوق الرأسمالية الاوروبية ، بالمقارنة مع الفترة السابقة الممتدة بين عامي ١٧٨٩ و ١٨١٤ . وبدأ الانحلال سنة ١٨١٤ وامتد الى ١٨٤٩ . ففي القرن التاسع عشر ، دُعم الاقتصاد البريطاني ، وهو اقوى قوة صناعية انذاك بالتبادل التجاري مع الدول الاخرى وخاصة « غير الرأسمالية » منها ، وسبب ذلك عدم وجود المواد الاولية الكافية ، في بريطانيا ، للصناعة . واستغلت بريطانيا دورها كاقوى قوة سياسية وصناعية في العالم في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، لتوسيع رقعة تبادلها التجاري ، فاختارت بذلك التوسع الخارجي لان بنيتها الداخلية لم تكن مستعدة بعد لامتصاص نموها الصناعي والاقتصادي المتعاظم .

كانت سياسة بريطانيا الخارجية تهدف الى تفتيت الحواجز التي تعيق توسعها التجاري محاولة بذلك اغراق الاسواق «غير الرأسمالية» ببضائعها وسلعها ، «وضمها»

الى السوق الراسمالية العالمية . فالمعاهدة التجارية مع الامبراطورية العثمانية في ١٧ آب ١٨٣٨ (تلاها اتفاق اخر بين فرنسا والامبراطورية في ٢٠ نوفمبر ١٨٣٨) محاولة لـ « عقلنة » التجارة العثمانية بعد رفع الحواجز الداخلية التي تعيق انتقال البضائع بين مختلف الولايات العثمانية ، وتنظيم التجارة الخارجية مع الدول الاوروبية الراسمالية . اما خط التنظيمات الذي اتبعته الدولة منذ عام ١٨٣٩ ، والذي كان لبريطانيا دور بارز في صياغة خطوطه العريضة ، فما هو الا الجانب السياسي للانفتاح على الغرب ومؤسساته الدستورية والحقوقية .

وكانت الولايات العثمانية ، قبيل معاهدة ١٨٣٨ ، منفصلة تجاريا عن بعضها البعض وكانت الضرائب المرتفعة لتغطية العجز المالي المستمر تعيق انتقال البضائع بحرية من ولاية الى اخرى ، مما اضعف حركة التجارة داخل الامبراطورية . كما كانت التجارة ، كالاراضي الزراعية ، ملتزمة سنويا وبالمزد من قبل اشخاص ذوي علاقة وثيقة بالدولة واجهزتها ، وتمدد عقود هؤلاء الاشخاص في حال تحصيلهم الالتزامات المتوجبة عليهم .

ومن جهة اخرى ، فان الملتزمين لعبوا دور الوسيط بين الدولة والتجارالاجانب، فتمكنت الدولة بذلك من مراقبة حركة التصدير والاستيراد ، والحد من نفوذ التجار الاوروبيين الاقتصادي والسياسي في الامبراطورية .

يستنتج مما سبق ان الامبراطورية العثمانية استطاعت ، حتى معاهدة ١٨٣٨ ، المحافظة على التوازن بين تجارتها الداخلية وتجارتها الخارجية ، وحدت بذلك من عجزها المالي المتفاقم . وقد نتج عن التغلغل التجاري والسياسي الاوروبي منذ عام ١٨٣٨ ، عجز مستمر في ميزان الاستيراد والتصدير ، وتدهور في قيمة العملات المحلية وازدياد ديون الدول غير الصناعية من الدول الاوروبية الراسمالية .

معاهدة ١٨٣٨ التجارية

نبه اورهان كرمش في مقاله « **نظرة جديدة الى معاهدة ١٨٣٨ التجارية** » الى تسرع البعض في التأكيد بان معاهدة ١٨٣٨ بين الامبراطورية العثمانية وبريطانيا (ولاحقا مع فرنسا) قد تسببت في انهيار الحرف في المدن العثمانية . فالبعض يدعي ان المعاهدة ، التي رفعت التعرفة الجمركية على السلع المستوردة من ٣ الى ٥٪ ، وطلبت الغاء « الحواجز الداخلية » لانتقال السلع من ولاية الى اخرى ، لاغراق السوق الداخلية بالبضائع البريطانية الرخيصة الثمن ، قد تسببت في انهيار الحرف في المدن

العثمانية . وتتكون « الحواجز الداخلية » التي طالبت المعاهدة بالغائها من ثلاثة اجراءات ادارية : تلزيم الجمارك الداخلية لاحد الملتزمين واعطائه السلطة التامة في تحصيل الضرائب على السلع المستوردة ، نظام « التذكرة » الذي يسمح في بعض الحالات في نقل البضائع بين الولايات ، واخيرا ، التعرفات الجمركية المتعددة لنقل البضائع بين الولايات .

ففي نظر بعض المحللين ، لم تكن زيادة الـ ٢٪ على الاستيراد الخارجي كافية لمكافحة الضرر الناجم عن الغاء « الحواجز الداخلية » ، وما يعارضه اورهان كرمش هو الربط غير المبني علميا بين معاهدة ١٨٣٨ وانهيار الحرف فيما بعد . ويناقش ثلاث فرضيات تفتقر للبراهين العلمية الكافية .

تقول الفرضية الاولى ان الغاء نظام الالتزام على السلع قد شجع استيراد المصانع الصغيرة الى تركيا وذلك لانخفاض اسعار المستوردات . فالملتزم الذي يحتكر عملية شراء سلع معينة وبيعها ، في سوق غير رأسمالية ، اي غير منفتحة للمنافسة التجارية ، يبيعها باسعار مرتفعة،كما أن كمية السلع المبيعة ضئيلة . ويعارض اورهان كرمش هذه الفرضية الاولى وذلك لان فتح السوق العثمانية للمنافسة « الرأسمالية » لا يعني بالضرورة تدنياً في اسعار السلع وكثرة وجودها في السوق ، اذ ان عملية ارتفاع الاسعار والتضخم في العملات مرتبطة بعوامل عدة . ومن جهة اخرى ، فان المعلومات المتوافرة لدينا عن نظام التزام السلع الذي كان ساريا قبيل معاهدة ١٨٣٨ ، في القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر ، ضئيلة جدا ولا تسمح لنا بالتأكيد بان الغاءه ، بعد ١٨٣٨ ، قد اساء للانتاج المحلي .

اما الفرضيات الاخرى عن نظام « التذكرة » والجمارك الداخلية الاخرى ، فهي كالفرضية التي ناقشناها ، ضعيفة وغير مبنية على اسس علمية . وكثيرا ما يستعمل المؤرخون ارقام القناصل الاوروبيين دون مناقشتها . واذا اخذنا على سبيل المثال الارقام التي تظهر قيمة السلع المستوردة من بريطانيا الى الامبراطورية العثمانية خلال القرن التاسع عشر ، فهي تظهر وبشكل واضح زيادة نسبية سنوية في قيمة السلع . لكننا سرعان ما نلاحظ ان هذه الارقام لا تأخذ بعين الاعتبار معدل التضخم السنوي في بريطانيا (حوالي ١ر٤٪ في القرن التاسع عشر) في قيمة السلع . اي باختصار ، ان الارتفاع في قيمة السلع عن السنين السابقة لا يعني بالضرورة زيادة في الكمية .

ومن ناحية ثانية ، فان تقارير القناصل وتقارير الرحالة الاجانب حول الحرف

المحلية متضاربة فيما بينها . فبينما تدعي بعض التقارير ان عدد الانوال لنسج الاقمشة في حلب مثلا ، قبيل الاتفاقية ، يزيد على الاربعين الفا ، تتحدث تقارير اخرى عن عشرة آلاف نول فقط . والاهم من ذلك ، أن هذه التقارير وغيرها لا تميز في اغلب الاحيان بين « الصناعة » الاستهلاكية و « الصناعة » البيتية ، فهذه الاخيرة معدة لاكتفاء الاسرة الذاتي ولحاجاتها اليومية الضرورية .

اقتصاد بلاد الشام في القرن التاسع عشر

يرسم عبد الكريم رافق وبطرس لبكي صورة حية عن عملية « دمج » اقتصاد ذي بنية « تقليدية » بالسوق الرأسمالية العالمية . واخذا في مقاليهما ، مثالا على ذلك اقتصاد مدينة دمشق وجبل لبنان في فترات مختلفة من القرن التاسع عشر .

يبدأ عبد الكريم رافق بالاشارة في مقاله « **اثر اوروبا على الاقتصاد التقليدي : دمشق بين ١٨٤٠ و ١٨٧٠** » الى دور حلب الاقتصادي المتميز منذ الفتح العثماني عام ١٥١٦ . فمن العوامل التي ساهمت في انفتاح حلب التجاري ، الى جانب تواجد التجار والقناصل الاجانب فيها باستمرار منذ القرن السادس عشر ، موقعها الجغرافي بين الاناضول والولايات العربية . فاصبحت حلب « مدينة ترانزيت » في المنطقة . ولم تستطع دمشق ، طيلة ثلاثة قرون ، اخذ هذا الدور منها على الرغم من مرور قافلة الحج السنوية فيها .

بدات هذه الصورة تتبدل تدريجيا منذ بداية القرن التاسع عشر ، وساهمت عدة عوامل في هذا التبدل ، كالهزة الارضية التي ضربت حلب عام ١٨٢٢ ، وضعف دورها كمدينة ترانزيت بعد ان فقدت السلع المستوردة من الاناضول اهميتها السابقة . ولعل السبب الاهم في بروز دمشق « كبديل » لحلب قربها من شواطىء المتوسط ، فمع توسع التجارة الرأسمالية الاوروبية ، منذ بداية القرن التاسع عشر ، اصبحت وسائل النقل البحرية التي تعتمد البخار الاكثر استعمالا لانها الاسرع والاقل كلفة . فتعاظم دور المدن البحرية ، كبيروت مثلا ، التي اصبح مرفأها صلة الوصل بين اوروبا وبلاد الشام ، واصبحت بذلك ، حسب تعبير احد القناصل الاوروبيين « المرفأ الحي لدمشق » .

بدأ التجار والقناصل الاوروبيون يتوافدون الى دمشق منذ حكم محمد علي في سورية (١٨٣١ — ١٨٤٠) ، فوصل اليها اول قنصل بريطاني عام ١٨٣٣ ، واسست

اول قنصلية فرنسية عام ١٨٣٩ ، وتلتها قنصليات اخرى منها قنصليات بروسيا ، والولايات المتحدة الاميركية ، والنمسا واليونان .

يحلل عبد الكريم رافق ، مستندا الى رسائل القناصل الفرنسيين وارشيف المحاكم الشرعية بدمشق ، الفترة الممتدة بين عامي ١٨٤٠ و ١٨٧٠ ، اي منذ الانسحاب المصري من سورية وعودة الحكم العثماني اليها ، وحتى فتح قناة السويس عام ١٨٦٩ . وتعرف هذه الفترة الزمنية بعهد التنظيمات السياسية والادارية والاقتصادية ، ولقد شجع اتفاق ١٨٣٨ التجاري بين الامبراطورية وبريطانيا وفرنسا، الذي الغى الامتيازات التجارية والاحتكار في شراء السلع وتسويقها ، التواجد الاوروبي التجاري في بلاد الشام .

الا ان الاثار السلبية للانفتاح التجاري على الغرب بدأت تظهر منذ الانسحاب المصري من بلاد الشام سنة ١٨٤٠ . ففي الثلاثينات ، كان يوجد في دمشق ، وفق تقرير جون بورينغ الشهير ، حوالي (٤٠٠٠) نول لصناعة ما بين (٨٣٢ - ١٠٤٠) الف قطعة من الالاجا والقطني ، وهي قطع قماش ذات اقلام مصنوعة من القطن والحرير . وعام ١٨٥٠ ، تدنى عدد الانوال الى (٦٥٣) نولا لصناعة القطني و (١٠١٣) لصناعة الالاجا . ثم عاد وارتفع العدد الى ٢٨٠٠ نول سنة ١٨٥٦ ، وفقدت دمشق نصف صناعتها بعد حوادث تموز ١٨٦٠ .

ويبدو انه ، نظرا للصعوبات التي واجهتها الصناعة الحرفية المحلية ، والزراعة الريفية ، بعد الانسحاب المصري ، انشأت الدولة مجالس تضم اعيان دمشق ، هي اشبه بالمحاكم المختصة وتنظر في الخلافات الناجمة عن سوء استعمال الالتزام ،وبقيت الامور الاخرى من اختصاص المحاكم الشرعية التقليدية . ففي سجل « مجلس شورى الشام العالي » لعام ١٨٤٥ ، شكوى من قبل عبد القادر خطاب ، الذي التزم لعدة اعوام متتالية مقاطعة « الدمغة » (وهي ضريبة على الاقمشة المحلية قبل بيعها في السوق) ومقاطعة « دق القطني والالاجا » . وتشير الشكوى الى خسارته السنوية بسبب المنافسة الناجمة عن اغراق السوق المحلية بالبضائع الافرنجية . كما انشأت الدولة ، سنة ١٨٥٠ ، محكمة تجارية من اربعة عشر عضوا ، يعين نصفهم من قبل السلطات العثمانية ، والنصف الاخر من قبل القناصل الاوروبيين ، مما يدل على اهمية التجار الاوروبيين في بلاد الشام في منتصف القرن التاسع عشر .

ويدرس بطرس لبكي في مقاله « **نسج الحرير في صنجق جبل لبنان : تجربة نمو صناعية غير مستقلة (١٨١٠)** » تطور زراعة وصناعة الحرير في جبل لبنان منذ

بداية القرن التاسع عشر حتى اندلاع الحرب العالمية الاولى ، فكانت صناعة الحرير وتسويقه الى الخارج تشكلان ، في الفترة الزمنية التي يحللها بطرس لبكي ، الركن الاساسي لاقتصاد جبل لبنان . وهي صناعة معدة ، بالدرجة الاولى ، للتصدير الخارجي (اوروبا ، مصر ، بلاد الشام) . لذلك فانها تشكل نموذجاً لصناعة ، في تاريخ اقتصاد الامبراطورية العثمانية ، مرتبطة ارتباطا تاماً بالاسواق الخارجية ، فاستهلاك جبل لبنان للحرير لم يكن يتعدى ، بين العامين ١٨٤٠ و ١٨٤٥ ، (١٥ر١١٪) من مجموع صادرات الحرير . اما الصادرات للخارج فكانت كالاتي : فرنسا ٥ر١٩٪ ، مصر ٢ر٥١٪ ، سورية ٤٥ر١٨٪ . ويكمن التحول الاساسي في صناعة حرير جبل لبنان ، خلال القرن التاسع عشر ، في احتكار فرنسا تدريجيا زراعة وصناعة خيوط الحرير وتسويقه الى مصانع ليون . فارتفعت الصادرات الى فرنسا من ٥ر١٩٪ بين عامي ١٨٤٠ و ١٨٤٥ ، الى ٣ر٩٣٪ عامي ١٩١١ ـ ١٩١٢ ، وعند اندلاع الحرب العالمية الاولى ، انهارت زراعة وصناعة الحرير انهيارا تاما ، فانقطاع العلاقات بين الامبراطورية العثمانية وفرنسا حرم هذه الصناعة من مركز ارتباطها الخارجي الاول ، اي فرنسا .

وننهي عرضنا بمقال غبريال باير « **المالك ، الفلاح ، والحكومة في الولايات العربية للامبراطورية العثمانية في القرنين التاسع عشر وبداية القرن العشرين** » لارتباطه بالمقالات الاخرى التي عرضناها باقتضاب شديد في الصفحات السابقة .

يناقش باير ثلاثة تحولات رئيسية في ملكية الاراضي الريفية ، خلال القرن التاسع عشر ، في الولايات العربية للامبراطورية العثمانية ، وهي : الغاء نظام الالتزام وظهور الملكية الخاصة في الاراضي الزراعية الريفية ، وانحلال المجتمع القروي ، وظهور الملكيات الخاصة الكبيرة .

الغى محمد علي نظام الالتزام في مصر في القرن التاسع عشر ، واصبحت جميع الاراضي المزروعة ملكية خاصة ، كما ان جميع الاراضي الاميرية ، اي التي كانت ملكا للدولة ، قد اصبحت تدريجيا بيد الملاكين . اما في بلاد الشام ، فقد بقي نظام الالتزام سائدا حتى الحرب العالمية الاولى رغم قرار الالغاء الرسمي ضمن خط شريف كلخانة سنة ١٨٣٩ . ويعود ذلك الى قوة الاعيان المحلين في القرى والمدن . فبقيت بذلك نسبة الملكية الخاصة ، طيلة القرن التاسع عشر ، ضئيلة بالمقارنة مع نسبة الاراضي الاميرية .

يشكل « الغرب » ، كقوة اقتصادية توسعية ، القاسم المشترك للمقالات التي اخترناها من الكتاب . فالتوسع الاقتصادي الاوروبي سبب انهيار الحرف المحلية واضعف انتاج الزراعة الريفية ، وساهم في انحلال المجتمع القروي . كما ان التنظيمات السياسية التي اعتمدتها الامبراطورية العثمانية ، بدءا بخط كلخانة سنة ١٨٣٩ ، كانت من وحي الحياة السياسية في الغرب : مساواة جميع الرعايا امام الدولة ومؤسساتها ، الغاء نظام الالتزام ، وتشجيع الملكية الخاصة (بعد قانون الاصلاح الزراعي سنة ١٨٥٨) . وهكذا يبدو الغرب بمؤسساته السياسيةوالاقتصادية القوة التي غيرت بنى مجتمعات مختلفة عنه ، بقيت طيلة قرون تقاوم التغيير الى ان « دمجها » الغرب بزمنه « الافقي » والموحد . وما يؤخذ على معظم المقالات هو عدم تشديدها علىدراسة البنى « التقليدية » لمجتمعات « ما قبل الرأسمالية »ممايفسر القناعة المخطئة بنظرنا بان هذه البنى قد « زالت » . فهل « زالت » فعلا تلك البنى التقليدية ؟

زهير غزال

مرشح للدكتوراه ـ ج. باريس ـ السوربون .

* * *